أشهد أن لا إله إلا أنت

سِيرةٌ ذاتِيّةٌ

- الموضوع: سيرة ذاتية
- العنوان: أشهد أن لا إله إلا أنت
  سيرة ذاتية
- تأليف: أ.د. عماد الدين خليل

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

ISBN 978-614-415-310-9

- الطباعة : مطبعة هادي برس - بيروت / التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت
- الورق: كريم / الطباعة: لون واحد / التجليد: كرتونيه
- القياس: 17×24 / عدد الصفحات: 976 / الوزن: 1300 غ

ISBN 978-614-415-310-9

9 786144 153109

DAR IBN KATHEER

دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: 2225877 11 963+
2228450 11 963+

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 817857 1 961+
705701 1 961+
جوال: 204459 3 961+

website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com

/daribnkatheer @daribnkatheer daribnkatheer daribnkatheer

أ. د. عماد الدين خليل

أشهد أن لا إله إلا أنت

سِيرةٌ ذاتيّةٌ

دار ابن كثير

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هذا غيض من فيض... فلقد اعتدت كتابة مذكراتي يوماً بيوم، منذ عام (١٩٥٦) وحتى عام (٢٠١٠م)، وقد تجمعت لدي ـ بناء على ذلك ـ أكداس من الكراريس والدفاتر والأوراق، بحيث أصبحت محاولة توظيفها في كتابة سيرتي الذاتية، تكاد تكون مستحيلة... ولذا ـ فيما عدا بعض الحلقات ـ اعتمدت على ذاكرتي بدلاً من الرجوع إلى تفاصيل المذكرات اليومية، فهي فضلاً عما تتطلبه من جهد مستحيل؛ تنطوي على الكثير مما لا يهم القارئ الاطلاع عليه، هذا إلى أن الذاكرة تميل للاحتفاظ في معظم الأحيان بالخبرات الأكثر أهمية في حياة الإنسان.

ولطالما خشيت ـ أسوة بغيري من العديد من الكتاب الإسلاميين ـ أن تكون السيرة الذاتية حديثاً عن (الذات) وعرضاً للمزايا، وتجاوزاً للمناقص والعيوب، وأنا أتذكر حديث رسول الله ﷺ: «**حتى يقال أنه عالم فها قد قيل، فيكب على وجهه في النار**». ولذا ظللت متردداً في كتابة سيرتي الذاتية وإخراجها للناس، لكنني إذ أدلف إلى حافات عمري، ولعلي أغادر الدنيا قبل أن تتاح فرصة نشر مذكراتي، ارتأيت أن أتوكل على الله، وأشمر عن ساعد الجد، وأنجز المهمة، كآخر عمل لي في ميدان التأليف، رغم ما قد يتركه ذلك في نفسي من المرارة للسبب إياه... فلعل فيها من الخبرات والتجارب والآلام والانكسارات والانتصارات، ما يعلّم الآخرين، خاصةً وأن تعاملي مع (**الكلمة**) محض ـ بفضل الله وحده ـ ومنذ اللحظات الأولى وحتى الحرف الأخير، لمقارعة خصوم هذا الدين، وعرض تفوقه المدهش في الميادين كافة، متمحوراً عند مفهوم التوحيد الذي شكل الجملة العصبية لعقيدتنا وشريعتنا

وحضارتنا ووجودنا وحياتنا اليومية... الأمر الذي دفعني لأن أختار هذا العنوان الذي يعلن شهادتي وشهادة قلمي على مدى ستين عاماً بأن **(لا إله إلا الله)**!

وكنت دائماً أقول بأن الحياة الدنيا إن هي إلا لحظات من عمر الزمن، وأن الحياة الحقيقية ذات الامتداد في الطول والعرض والعمق... هي الحياة الأخرى... وهي (الثيمة) التي طالما ترددت في كتاب الله وأحاديث رسوله العظيم عليه أفضل الصلاة والسلام... فعلام نحزن؟ وعلام نتردد؟ وعلام نخاف؟ وكل ما في الدنيا من مخاوف وأحزان وانكسارات، سبق وأن خطت في كتاب الكون الكبير: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢ ـ ٢٣].

إنني أنتمي إلى جيل استثنائي كتب عليه أن يجتاز قرنين ميلاديين وقرنين هجريين... وأن يعايش نمطين من الحياة، يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً يكاد يكون جذرياً...

فأما **أولهما**، فهو تلك الحياة الهادئة، البطيئة بوسائلها المتواضعة وخبراتها البسيطة... بعلاقاتها الاجتماعية الحميمة، وصدق تواصلها مع الآخرين... بأجوائها النقية وهوائها النظيف... بمتعها اليومية البريئة وتقاليدها الملزمة... بأفراحها التي توغل في وجدان الناس وتتغلغل في شرايينهم... بأكلاتها الشهية... ووسائل لعبها البسيطة، ولكن المترعة بالغبطة والبهجة... بصحّتها وعافيتها وقلة منغصاتها... ببراءتها ونقائها... بغياب الصخب والضوضاء... بطقوسها المتكررة صيفاً وشتاء... برحلاتها الربيعية الرائعة...ومهرجاناتها الرياضية المتألقة... وبكل ما يخطر على البال... من حياة ذات إيقاع بطيء وتغيّر هادئ وتوافق ومحبة وانسجام.

وأما **ثانيهما**، الذي بدأ حصاره يحكم قبضته علينا بعد مضي عقدين أو ثلاثة... فيما يحلو للبعض أن يطلق عليه عصر التكنولوجيا؛ فقد تغيّر الحال غير الحال، وأخذ الناس يركضون إلى أهدافهم ركض الوحوش في البراري

ويريدون المزيد... أصبحت المصلحة هي الهدف الأسمى لمعظم الناس... ومن لا يركض معهم يتخلف ويداس بالأقدام... تلوّثت العلاقات الاجتماعية... وضاع الصدق في التعامل بين الأقران... فقدت المتع اليومية براءتها ولم تعد تنطوي على أي قدر من الإلزام... الأفراح أصبحت قشوراً لا يتغلغل إسقاطها في الأعماق!! غابت الصحة والعافية وكثرت المنغصات... ازداد صخب الأجهزة والمكائن وطغت الضوضاء... غابت الرحلات الربيعية، وانطفأت المهرجانات الرياضية... استوت فيها تقاليد الصيف والشتاء... أصبح إيقاع الحياة سريعاً، وضاع التوافق والمحبة والانسجام...

التكنولوجيا نعم... وبكل تأكيد... وهي تعدّ ولا ريب ضرورة من ضرورات الحياة عبر تجدّدها... ولكن آه مما اقترن بها من رغبات محمومة بالتكاثر بالأشياء... من ركض مجنون صوب الأهداف حتى تتقطع الأنفاس... من تمزّق للعلاقات الاجتماعية... من ضمور للمشاعر الإنسانية الحميمة...

في ظلال التكنولوجيا التي كان يتحتم أن تسعد الناس... حدث هذا الذي حدث، والذي عايشه جيلنا لحظة بلحظة ودقيقة بدقيقة... وهو يسترجع ذكريات الحياة المبكرة ويجرّ عليها الحسرات والآهات.

ها أنا ذا، وقد تجاوزت الخامسة والسبعين، وقطار العمر يمضي صوب المحطات الأخيرة، فإن الفاصل يكاد يتلاشى تماماً ما بين الأشياء والخبرات والظواهر والموجودات، وبين جوهرها ومغزاها، ما من لحظات كهذه، تتكشف فيها المرئيات، وتتعرى التجربة، كهذه اللحظات... وكلنا يتذكر، والقطار يمضي به متسارعاً إلى هدفه، كيف تفقد رؤيته القدرة على التركيز في الأبعاد المنظورة للمرئيات... كيف تلتمّ هذه كلها وتفقد، شيئاً فشيئاً، خصائصها الذاتية، لكي ما تلبث أن تصير هي نفسها جزءاً من المنظور الشامل، الذي يعبر فيه الإنسان حافات الحس إلى الوجدان، والبصر إلى البصيرة، والتعامل المباشر مع الأشياء، إلى الإيغال بعيداً بحثاً عن الوحدة التي تلمّها جميعاً لكي تجعل منها منظوراً واحداً... هنا تصير (**الكلمة**) الأداة الوحيدة القادرة على

التعامل مع الظاهرة، تماماً كما يصير الإيمان الكشف الوحيد القادر على الإضاءة والتفسير، وفي الحالين يجد الإنسان نفسه قبالة اللحظة المشحونة بالوعد والعطاء... وإزاء الدافع الملح، المترع باللهفة والشوق، للإفصاح والتعبير... فمن يقدر، وهو يطل من نافذة قطار يرحل بعيداً، عبر وقبالة المغزى الكوني للوجود البشري في هذا العالم... ألا يقدم خبرة حياته للناس؟ من؟

اعتمدت في كتابة سيرتي هذه اللغة الواضحة التي تخاطب الناس كافة... فالسيرة الذاتية هي خبرة حياة تنطوي على الكثير من القيم والتعاليم، التي يتحتم نقلها إلى الآخرين بأكثر الأساليب وضوحاً وبياناً.

تضمنت مذكراتي هذه جملة من الفصول والملاحق... تابعت فصولها العشرة الأولى الخطوات والمنحنيات الأساسية في حياتي، وأعقبتها ثلاثة فصول أخرى في رحلتي مع الكلمة... أما الفصل الأخير فقد آثرت فيه أن أنقل للقراء مياوماتي عبر رحلاتي العديدة خارج العراق، بدءاً من رحلتي الأولى عام (١٩٦٣)، وانتهاء برحلة فرنسا عام (٢٠٠١م)، دون أن أعمل فيها تغييراً أو تبديلاً... وأما رحلات ما بعد (٢٠٠١م)، فقد أوردت جانباً من تفاصيلها في سياق الفصلين الأخيرين (التاسع والعاشر) من سيرتي الذاتية هذه.

وقد يجد القارئ، عبر متابعته لسيرتي الذاتية هذه الكثير من المفارقات المثيرة للضحك، وذلك ليس فقط من قبيل احترام الحقائق والخبرات التي مررت بها، وإنما ـ أيضاً ـ للترويح عن القرّاء، فإن الجد المتواصل يقودهم إلى الإعياء، ولا بدّ من الترويح عنهم بين الحين والحين، فإن القلوب إذا كلَّت عميت... وقد لاحظت عبر لقاءاتي المتكررة بعلماء الأمة وشيوخها الكبار، أنهم أحرص من الشباب على متابعة ورواية النوادر والتحميضات والنكات النظيفة، بطبيعة الحال.

قد يسألني الكثيرون عما أحب وأكره... وهذا حق... فليس ثمة إنسان في هذه الدنيا لا يحب ولا يكره... ولقد أحببت عبر حياتي الكثير من القيم

والممارسات والخبرات إلى حدّ العشق، وكرهت أخرى إلى حدّ الخصام والتوتر والمقت والبغضاء... والمنظومة في جانبيها، المحبة والكراهية، تنطوي على العديد العديد من الخبرات، التي تتدرج من قضايا السلوك اليومي وتمضي باتجاه عالم الأفكار الرحيب.

فلقد أحببت التواضع إلى درجة العشق، وجعلت ممارسته جزءاً أساسياً من حياتي وسلوكي اليومي وتكوين شخصيتي، التي طالما جذبت محبة الآخرين وتقديرهم... ذلك أنني رأيت في التواضع تعليماً أساسياً من تعاليم هذا الدين، الذي أعلن حملته الشعواء ضد التكبر والكبرياء... بل إنه حرم الجنة على المتكبرين، في حديث رسول الله ﷺ: **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»**... كما أن ذوقي الشخصي ـ بحمد الله ـ يرفض أية صيغة من صيغ التكلف والتمثيل وابتزاز الآخرين تحت مظلة الاستعلاء الممقوت.

وأحببت الصداقة الحقة التي يتبادل فيها الطرفان وفاء بوفاء وإحساناً بإحسان... وأحببت الإنسان المتوحد بين الكلمة والسلوك، بين القول والفعل، ذلك الذي إذا حدّث صدق، وإذا وعد نفّذ، وإذا أؤتمن حرص على ما بين يديه... وأحببت الإنسان الذي تغمر البشاشة وجهه، وتفيض من مشاعره، وتتدفق من كلماته... وأحببت الإنسان ذا القلب النظيف، والروح النقية الطاهرة، والذي لا ينطوي في سلوكه مع الآخرين على أي قدر من الخبث والالتواء... وأحببت الإنسان (الأنيق) في ذوقه وعلاقاته وتصرفاته... بدءاً من حسن اختياره لكلماته مع الآخرين وصولاً إلى طريقته المهذبة في تناول الطعام، وقلة كلامه إلّا فيما هو ضروري... وإفشائه السلام على من يعرف ومن لا يعرف... وسخائه على نفسه وعلى أسرته... وعلى أصدقائه ومحبيه...

وأحببت الأجواء الماطرة وأماسي الشتاء العميق، والجلوس عند المدافئ لتبادل الأحاديث والذكريات، أو الانغمار في قراءة رواية رائعة أو كتاب ينطوي على فكر عميق... وبطبيعة الحال فلقد أحببت إلى درجة العشق الكتابة والإنجاز المتواصل والسعادة الطاغية التي تملك عليّ مشاعري وأنا أنجز هذا العمل أو

ذاك فيما يدخل دائرة قناعتي، ويجعل من أوقات الاسترخاء، بعيداً عن الكتابة والإنجاز، مترعة بالملل والتشتت والإحساس بأني فرطت بشيء ثمين... وهذا ينسحب على تعاملي مع الزمن الذي أرى ضرورة اعتصار ساعاته حتى الثمالة، فيما يخرج على الناس بهذا البحث أو الكتاب أو ذاك... وأحببت إلقاء المحاضرات، حيثما طلب مني ذلك، والتي أتجاوز فيها الصراخ، والطرائق التقليدية، والمواضيع المكرورة، وأحاول ما وسعني الجهد أن أقدّم في كل منها جديداً مبدعاً، بحيث أن قاعدة متابعي محاضراتي داخل الموصل أو العراق، أو في البلدان التي تجولت فيها راحت تتزايد عدداً مع الأيام...

وأحببت الحوار الهادئ، والجاد، والذي يبتغي فيه الطرفان الوصول إلى الحقيقة بعيداً عن دائرة (الأنا) التي تحيله إلى صراع لا يرحم بالكلمات، وربما بالأيدي والأرجل...

وأحببت الجلوس وراء شاشة التلفاز لمتابعة البرامج الثقافية التي أحرص على ألا تفوتني، وبخاصة تلك التي تبثها فضائيات معروفة من مثل الناشيونال جيوغرافي، والجزيرة الوثائقية، والسكريتس، وقنوات الجزيرة، والحوار، والتركية العربية، على ما فيها من دَخَل قد لا يتقبله الإنسان...

وأحببت ـ ولأقلها بصراحة ـ اللقمة الطيبة في البيت، أو عبر الدعوات، أو في المطاعم الخارجية... وحرصت على مدى حياتي في البحث عن وجبات الطعام المتميزة، والشهية، بحيث أخفقت مراراً في ترشيد وجباتي، وفق نصائح الأطباء، ولذا ازداد وزني بحوالي عشر كيلوات عن المطلوب، فيما يؤثر بطبيعة الحال على الجهد القلبي، وضيق النفس الذي عانيت منه على مدى حياتي...

لقد أحببت التعامل بيسر وسماحة مع مطالب هذا الدين... وبالمقابل كنت أحاول أن أعيش حياتي بكل تفاصيلها ومنحنياتها الممتعة والبهيجة... لم أنس يوماً الترفيه عن نفسي وعمن يحيط بي... بممارسة اللعب في مختلف صنوفه، بالرحلات الداخلية والخارجية للتمتع بمناظر الطبيعة الرائعة، ومعاينة إبداعية الله في الخلق... بجولات التخطي اليومي، ومشاهدة البرامج التلفازية، ومتابعة

مسابقات كرة القدم والسلة والطائرة والمنضدة وألعاب الساحة والميدان، لعباً ومشاهدة، وأنتظر لقاءات كأس العالم كل أربع سنوات وأتابعها باهتمام كبير، وكذلك مع بطولات الدوري الممتاز لكرة القدم الأوربية... والبحث عن الوجبات الطيبة من الطعام، والجلوس في المقاهي والكازينوات والحدائق والمتنزهات، والمطالعة المتواصلة، وتبادل الأحاديث التي يمتزج فيها الجد بالهزل ترويحاً عن النفس وإراحة للجملة العصبية من الشدّ المتواصل.

وبالمقابل فقد تعاملت بالجد المطلوب مع الزمن، وسعيت إلى توظيف ساعاته ودقائقه بكل ما أقدر عليه في ساحات الفكر والقلم، وكنت أكره الكسل والاسترخاء وقتل الوقت، وأقول لطلابي على مدى خمسين عاماً من التدريس الجامعي: إنكم إذا أردتم أن تكونوا شيئاً فعليكم باحترام الزمن وحسن توظيفه، ولطالما أكدت على ضرورة التثقيف الذاتي، وإذا أراد الطالب أن يتخرج وهو يحمل بحق شهادة البكالوريوس أو الماجستير أو الدكتوراه؛ فإن عليه أن يقرأ ويقرأ، ويقرأ، حتى تعمى عيناه ويدس أنفه في التراب!!

كرهت التكبر إلى حدّ الاحتقار، وكنت أنظر إلى المتكبرين ـ الذين يجرون أثوابهم بخيلاء ـ بازدراء بالغ، وأعاملهم ـ متعمداً ـ بقدر كبير من تقليل القيمة وعدم الالتفات، وأنا أتذكر حديث رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»... وقد امتدت كراهيتي هذه إلى الطبقات الغنية المترفة التي تصوّر أربابها ـ للأسف الشديد ـ أن المال هو الذي يمنح الإنسان قيمته الحقيقية ويرفعه فوق الآخرين، فكنت أكره مجالسهم المصطنعة وأحاديثهم الفارغة وادعاءاتهم الكاذبة...

كرهت تيبّس الطرفين: البائعين والمشترين، في عمليات البيع والشراء، وإلحاحهما الشديد في تحديد سعر البضاعة المطلوبة، وكذبهما ـ أحياناً ـ بل قسمهما بالله لمرة ومرتين وعشرات المرات من أجل الدرهم والدرهمين... وكنت وأنا أبيع أو أشتري أتذكر دائماً حديث رسول الله ﷺ وهو يصف المسلم الصادق لدى تعامله مع الآخرين «**سمحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى**»... ولذا

أتجاوز الإلحاح على البائعين في تنزيل أسعار بضائعهم، كما أنني في المقابل أوافق على معظم ما يطلبه مني المشترون... دونما أي قدر من التشبث بالحصول على دينار أكثر...

كرهت حتى النخاع ذوي الشخصية المزدوجة، أولئك الذين يقولون ما لا يفعلون... قلوبهم سوداء كالفحم والقار، ولكن ألسنتهم تنضح ـ بما يبدو للوهلة الأولى ـ عسلاً وشهداً، ولكنك إذا تمعنت فيها كشفت لك عن أنيابها الصفراء... أولئك الخبثاء بالسليقة، الذين يحلو لهم أن يمارسوا اللدغ لحظة بلحظة ودقيقة بدقيقة، كأنما خلقت ألسنتهم وقد اختفت تحتها أكياس السم الصفراء... لقد عايشت نمطين من الأصدقاء، بعضهم ممن تتمنى أن تفتح لهم قلبك لكي تضعهم فيه، وبعضهم الآخر تتمنى ألا تلتقي بهم أبداً، حتى إذا ما فرضت عليك الظروف لقاءهم انعصر قلبك، وأظلمت الدنيا في عينيك لأنك تثق ابتداء أنك مهما جاملتهم وأبديت لهم عواطف المحبة الصادقة؛ فلا بدّ أن يدوروا حولها بحثاً عن مكان في كيانك لكي يوجهوا لدغاتهم إليه، وأنا أتذكر قول الشاعر:

وفي الناس من فمه عقرب   فيا ويلنا من سموم الشفاه!!

ولطالما قلت لأصدقائي: إن بعض الناس ممن تربطك بهم علاقة ما، لو عشت معهم خمسين عاماً فلن تتلقى منهم كلمة واحدة مما يجرح، ويؤذي، وبعضهم الآخر لو التقيته لدقيقة واحدة فإنك قد لا تخرج سليماً من لدغاته الصفراء...

أكره إلى حد المقت فئة المَصلحيين والانتهازيين الذين طالما باعوا مبادئهم لقاء الحصول على منصب ما، أو حفنة من الذهب والفضة، أو حموا أنفسهم وأسرهم من الأذى والخوف... ولسوف يمرّ القراء بنماذج كثيرة من هؤلاء وأولئك عبر قراءتهم لمذكراتي هذه التي تنطوي على الأبيض والرمادي والأسود.

أكره الإنسان الثرثار الذي لا يكف لسانه عن الحركة ذات اليمين وذات

الشمال، ولا يعطي الطرف الآخر الفرصة للإدلاء برأي أو تعليق على مقولاته، بل حتى لالتقاط الأنفاس... ويزيد الأمر سوءاً أن هذه النماذج من الناس عند تناول وجبات الطعام، تتطاير الكلمات من أفواههم ومع الكلمات رشاش من بقايا الطعام العالق بين شفاههم... فوالله لو أتيح لهم أن يروا السيال الذي يخرج من أفواههم منصبّاً على أطباق الطعام؛ لتقززت نفوسهم من هذا الذي يفعلونه، فكيف بالآخرين؟

وثمة من يأتي لزيارتي في أعقاب عودتي من هذه الرحلة أو تلك، قائلاً: أريد أن أسمع منك ما شهدته في رحلتك... ثم ما يلبث سيّال كلماته أن يتدفق حتى آخر لحظة من اللقاء، وعندما يهم بالمغادرة يقول كالمعتذر: لم نسمع منك شيئاً... أتراه قد ترك لي فسحة من الزمن لكي أحكي له عما يريد؟ فآه من شهية الكلام التي تتحول لدى البعض إلى ما يشبه الحالة المرضية، أو الوسواس التسلطي القاهر...

كرهت أولئك الذين لا تفوتهم صلاة ولا صيام، ولكنك عندما تضرب معهم موعداً يجدون أنفسهم في حِلّ من الالتزام بمواقيته التي حددت سلفاً، وكأنهم ـ بصلاتهم وصيامهم ـ قد أخذوا رخصة مفتوحة من الله ﷻ في ألّا يلتزموا بالتوقيت، وأن يأخذوا حريتهم الكاملة في أن يأتوا بعد ساعة أو ساعتين من الموعد المضروب، وقد لا يأتون مطلقاً، دون أن يكلفوا أنفسهم حتى بتقديم الاعتذار عن أسباب تأخرهم أو تغيبهم عن الحضور... وأنا بسبب حساسيتي الفائقة مع المواعيد، أحسّ عبر الهامش الزمني الذي يسبق الموعد كما لو أن عشرين ساعة منبهة تدق في جملتي العصبية، تنبهني الواحدة تلو الأخرى إلى اقتراب أجل الموعد المضروب حتى أكون في المكان المحدّد في الوقت المتفق عليه تماماً... ولهذا السبب فإنني أدفع بمشاغلي وكتاباتي وارتباطاتي جانباً، مركّزاً عيني على عقرب الساعة كي لا يفوتني الموعد المضروب، أو يجيئني الأصدقاء وأنا منشغل عنهم...

ولكم أن تتصوروا كيف لو امتدت هذه الحالة من التوتر العصبي لأكثر من

ساعة أو ساعتين كيف يكون العذاب؟! وأستطيع أن أقول بأن كل تسعة مواعيد من عشرة مما ضربته مع أصدقائي الذين يصلون ويصومون... كنت أسبقهم فيها إلى المكان المحدّد للقاء فلا أجدهم... وبعد نصف ساعة أو أكثر يجيئون دون أن يبدو على ملامحهم أي أثر للإحساس بالخطأ الذي ارتكبوه...

وفي هذا السياق كرهت أولئك المتدينين الذين يقترضون منك مبلغاً من المال، قلّ أو كثر، فلا يكلفوا أنفسهم، بل هم لا يشعرون بأية مسؤولية شرعية ترغمهم على تثبيت الدين في ورقة مكتوبة... والأنكى من هذا أنهم يحددون موعداً للسداد، فإذا بالموعد يحين، دون أن يكلفوا أنفسهم اتصالاً هاتفياً يعتذرون فيه عن التأخير... وتمرّ الأسابيع والشهور وربما السنوات، وهم قد تناسوا حقوق الآخرين في ذمتهم... يستثنى من هؤلاء أولئك الذين تضطرهم الحاجة إلى التأجيل... فنَظِرة إلى ميسرة... ولكن كم من المقترضين من تنطبق عليهم الحالة؟!

أكره أولئك الإمّعات الذين لا يملكون رأياً ولا موقفاً إزاء ما يعترضهم، وما يعايشونه من وقائع وأحداث، وما يجبههم من تحديات... تقول لهم: أبيض فيلووا رؤوسهم موافقين... تغير موقفك ــ لهذا السبب أو ذاك ــ وتقول لهم أسود، فيلووا رؤوسهم موافقين... ينجرفون بيسر وسهولة مع كل دعوة أو واقعة، دون أن يعملوا عقولهم ويشحذوا إرادتهم لتبين ما تنطوي عليه من خطأ أو صواب... يهرعون مع كل ناعق... يستكينون لكل سلطة قاهرة، وسرعان ما يصيرون من أبواقها... والناعقين بشعاراتها... لا يهمهم سوى حماية مصالحهم من أي شيء قد يتصورونه سيمس بها، ويؤثر عليها...

ويتساءل المرء: أتراهم لم يسمعوا صوت رسول الله ﷺ وهو يحذرهم من هذه الخصيصة المرذولة... ويناديهم بأعلى صوته: «**وطِّنوا أنفسكم... إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا أن تجتنبوا إساءتهم...**»... لكأنهم قد وضعوا على آذانهم شمعاً أحمر كي لا ينصتوا إلا لما تمليه عليهم مصالحهم القريبة وأمنهم الذاتي، والرغبة المحمومة في حماية أسرهم وذراريهم...

أكره من أسميهم بفرسان المجالس، أولئك الذين يستعرضون بطولاتهم الكاذبة وادعاءاتهم التي لا رصيد لها من الواقع، في الجلسات الخاصة، حتى ليخيل إليك أنهم ـ بحق ـ من أولئك الرجال الذين لا يخشون في الله لومة لائم... حتى إذا ما غادروا المجالس البيتية غدوا من أجبن الجبناء وانكفؤوا كالجرذان أمام خصومهم... فإذا ببطولاتهم البيتية الباهرة تتكشف عن لا شيء، لقد أدانهم القرآن الكريم بكلماته القاطعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣].

أكره المتحذلقين، المتفيقهين، أدعياء العلم ومحتكري المعرفة، أولئك الذين يصمّون آذانهم عما يقوله الآخرون، معتقدين أن ما يملكونه من علم يغنيهم عن كل إنسان... كما أكره أولئك الذين لا يعرفون للمجاملة في الحق أصولاً، ولا تصدر منهم كلمة طيبة، تلامس أفئدة الآخرين وتلطف مشاعرهم... يكسو الغضب الدائم ملامح وجوههم... تسلّم عليهم بحرارة علك ترطب أفئدتهم المتيبسة، فهم إما يكتفون بالرد على التحية بنصفها أو ربعها، أو يشيحوا بوجوههم الكالحة عنك، فلا يردون على التحية بمثلها، وكأنهم لم يقرؤوا في كتاب الله ﷻ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾ [النساء: ٨٦].

ومع الخبث والالتواء، والمصلحية، والانتهازية، والادعاء، والتجهم، وغياب الكلمة الطيبة... هنالك الأنانية التي انتشر سرطانها بين الناس، فكل ما يقولونه ويفعلونه، إنما يدورون فيه حول ذواتهم، فكأنهم يلغون من يحيط بهم من الحساب فلا يرون إلا أنفسهم...

ولشد ما أكره بناء مكانة الإنسان، مفكراً كان أم كاتباً أم أديباً، على حساب الآخرين، حيث تأخذ (الأنا) بخناق الإنسان، فيغمض عينيه عما أنجزه الآخرون، ولا يرى إلا إنجازه هو... بل هو يمضي إلى أبعد من ذلك فيوجه إليهم النقد القاسي، ويكيل لهم الاتهامات، من أجل أن يشبع في نفسه حاجة للتميز والظهور... وأنا أفهم سلوكاً ملتوياً كهذا يصدر عن غير الإسلاميين،

ولكن كيف إن صدر عن بعض الكتّاب الإسلاميين أنفسهم أولئك الذين يحلو لهم الطعن في منجزات الآخرين، من أجل أن يلمّعوا نتاجهم ويبرزوه للناس.

بل إن بعضهم قد يسرق جهود إخوانه ويدّعي هذا الذي سرقه لنفسه، فيضيف بذلك إلى جرمه جرماً قبيحاً... ومن أجل ذلك خلت كتاباتي كافة من هذه الخطيئة والحمد للّه، بل إنني كنت أمضي أبعد من ذلك، فأقيّم كل أعمال أولئك الذين سبقوني في الكتابة حول الموضوعات ذات العلاقة... بل إنني كنت في كثير من الأحيان أسرف في توجيه التقييم لهم، تشهد بذلك مقدماتي لمؤلفاتهم، والتي جاوزت المائة مقدمة عدداً، حتى أن بعضهم كان يعترف لي بأن ما كتبته في مقدماتي لبحوثهم يفوق في مستواه بكثير معطياتهم ذاتها، ولكني كنت أطمئنهم بخطأ هذا الذي يتصورونه.

أكره أولئك الذين لا زالت البداوة تهيمن على سلوكهم، وتطبع مفردات حياتهم، فهم لا يرعون لجيرانهم حرمة، ولا للطريق نظافة، ولا لأصول الحياة الاجتماعية وقاراً. كما أنني كرهت أولئك الجفاة الغلاظ من عديمي الذوق الذين يتعاملون مع عالم الأشياء الجميلة بغلظة وجفاء فيلحقون بها الأذى والتشويه، وبخاصة، أولئك الذين يستعيرون الكتب فيعيدونها إلى أصحابها وقد تمزقت صفحاتها، والتوت زواياها...

ولقد كان من طبيعتي، على مدى سنوات تدريسي الجامعي، ألا أردّ طلباً لأحد من المستعيرين، حتى لو حملني ذلك أكداساً من الكتب كنت أسلمهم إياها طالباً فقط أن يعتنوا بها، لأن الكتاب عندي حتى لو بقي عشرات السنين فإنه يظل محتفظاً بأناقته كيوم خروجه من المطبعة... فاذا ببعضهم يعيدونها إلي وقد تغير حالها وأصبحت المطالعة فيها تدعو إلى الاشمئزاز، فكنت أرمي بها في وجوههم وأقول لهم: لن تعثروا بعد اليوم على كتاب واحد من مكتبتي!!

وفي هذا السياق كرهت أولئك الأشخاص من عديمي الذوق، الذين يمارسون على المكشوف قبالة الآخرين، اللعب المتواصل بأنوفهم وأسنانهم، ويستخرجون منها ما يثير القرف والتقزز والاشمئزاز، لدى النفوس الحساسة،

خاصةً إذا كان ذلك يتم على موائد الطعام... وهم لا يكتفون بذلك، بل إنهم طالما مدّوا أيديهم إلى أيدي الآخرين وملابسهم، مصافحين أو ماسحين ما يعلق بها، فيما كان يصيبني بتوتر نفسي يهيمن على جملتي العصبية، ويكبسني أوقاتاً قد تطول وقد تقصر، فلا أسترجع توازني وأستعيد وضعي إلا بعد أن أشرع إلى أقرب مغسل لكي أقوم فيما كنت أسمّيه دائماً: إزالة آثار العدوان... بل إن الأمر تجاوز، بالنسبة لي على الأقل، حالة التوتر النفسي، إلى نوع من الشد والتشنج العضلي في قلبي وذراعي الأيسر، وبضيق في أنفاسي إلى درجة الاختناق، فيما كنت أعاني منه الأمرّين... ويبدو أن الأمر قد تحوّل بمرور الوقت إلى ما يسميه علماء النفس بالوسواس القهري أو التسلّطي، الذي لا يدفعه حساب ولا منطق، وانما هو يفرض نفسه فرضاً بعيداً عن كل حساب، فيضعني في حالة الجحيم النفسي والجسدي، وبخاصة في الحالات التي أجدني محصوراً في قاعة للاحتفالات أو المناسبات العامة، حيث يصعب علي العثور على مصدر قريب للماء، لكي أزيل آثار أولئك الذين لا يرعون لمشاعر الآخرين حرمة ولا مقاماً... فتظل أيديهم تجوس في أنوفهم أو أسنانهم... دون أن يكترثوا لنظرات المقت والازدراء التي تنصب عليهم ممن يحيطون بهم من مرهفي الإحساس... لقد افترست هذه الحالات الكثير الكثير من لحظات السعادة في حياتي، وغطت مساحات كبيرة منها، وحولتها إلى جحيم مشبوب، ولقد قمت بمحاولات متواصلة لتجاوز هذا الوسواس القهري، والتغلب عليه، ولكن عبثاً... فليس ثمة إلا الماء ما يطهرني من ويلاته!!

(ولكني، وأقولها بصراحة، هل أنني لم أمارس وأقع في واحدة أو أكثر من حلقات الكراهية هذه أبداً؟ فإن الإنسان يظل إنساناً... كائناً معجوناً من نفخة الروح العلوية وقبضة الطين السفلية... ولطالما وجدت نفسي أنساق مختاراً أم مرغماً صوب واحدة من مطبات الكراهية هذه، لكنها وبفضل الله وحده، حالات عابرة لا تسعى لأن تتأصل في السلوك فتصير ممارسة يومية، كما هو الحال عند الكثيرين).

أستقبل يوماً بيوم، سواء في بيتي أم في دائرتي، حشوداً من الأصدقاء والضيوف والطلبة والباحثين والمفكرين والأدباء... أتبادل معهم الرأي، وأبدي ملاحظاتي بخصوص بحوثهم ودراساتهم، ونتابع معاً ما تشهده الساحة من متغيرات في عالم السياسة والفكر والاقتصاد.

لم أتنازل يوماً عن رأي أؤمن به، أو أساوم على موقف قد ينزاح بي بعيداً عن قناعاتي... ولقد ألحق هذا بي ــ كما سيجد القارئ ــ الكثير من الأذى، ولكني كنت سعيداً به. أما على مستوى العلاقات الشخصية والاجتماعية فلطالما تنازلت للآخرين، سواء كان الحق معي أو معهم... وكان ذلك ينزل على قلبي برداً وسلاماً، ويزيد من أواصر المحبة بيني وبين الآخرين.

لم أرتكب في حياتي، على امتدادها، كبيرة من الكبائر والحمد لله... ودائماً أذكّر نفسي بالرؤية التي رأتها جدتي يوم كانت تحمل بأمي، وقصّتها لها ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]...

ولكن ممارستي للأخطاء، والخطايا الصغيرة، أو ما يسمى (باللمم) تغطي حياتي من أقصاها إلى أقصاها... تكتسحني كسيل لا يرحم، فأستجيب للكثير من مطالبها، ثم ما يلبث الإحساس بالندم أن يمسك بخناقي... وثمة ما هو أكبر من الندم... إنه الخوف من الحساب يوم الحساب، حيث لا يخفى على الله ﷻ شيء من ممارسات الإنسان ظاهرة أو خفية، صغيرة أو كبيرة... ولهذا طالما دعوت الله أن يغفر لي أخطائي هذه... توسلت إليه أن يحيطني بعفوه... أن يتكفلني برحمته التي وسعت كل شيء... مؤملاً أن تكون كتاباتي التي افترست عمري وصحتي وعافيتي، جواز سفري إلى عفوه ورضوانه...

ومع هذا الجهد اللافح على مدى ستين عاماً، دقيقة بدقيقة ويوماً بيوم: والذي أسفر بعون من الله عن تسعين مؤلفاً... هنالك ما أرجوه من عفو الله ورحمته، بما أصبت به من ضيق في النفس، والذي لازمني منذ مطلع حياتي وحتى اللحظات الأخيرة... ولطالما كان يشدد علي الخناق خلال ممارستي الكتابة والتبييض، حيث كنت أبذل جهداً شاقاً لالتقاط الأنفاس بصعوبة بالغة

لإدخال ولو حفنة من الأوكسجين إلى رئتي المحترقة، لا لشيء إلا لأستطيع مواصلة الكتابة والتبييض... ومع ضيق النفس هنالك الشد والألم الذي ينصب على ساعدي الأيسر، والتشنج الذي يمسك بقلبي فلا يفلته حتى أكف عن الكتابة والتبييض...

ولكنني ـ مع ذلك ـ كنت أواصل العمل الساعات الطوال التي ألزمت بها نفسي، موقناً بأن مهمتي في الحياة هي هذه: أن أواصل الكتابة حتى لحظة وضعي في التراب... وأن الكف عنها، ومحاولة الاسترخاء بعيداً عن الكتابة، يضعني دائماً في دائرة الإحساس بالتفريط والندم، ويحيطني بالملل وبفقدان طعم الأشياء... فبالإنجاز وحده كنت أحس بالسعادة، والفرح، والتوازن والاستقرار... وحتى المتعة بالأمور اليومية للحياة من مأكل ومشرب ولعب وحوار...

وإلى جانب ضيق النفس عانيت الكثير الكثير من المتاعب المرضية والأوجاع شبه المزمنة من مثل الالتهاب الدوري للجيوب الأنفية والسعال المتواصل... والاحساس القاسي بحالات الدوار وتنميل الرأس... والغياب المفاجئ للنفس، واختراق نقطة قاسية لقلبي من أقصاه حتى أقصاه في العديد من الليالي... وآلام الساق الروماتيزمية... وآلام الأضراس وفقاعة الفم التي افترست معظم حياتي... وأوجاع الصدر... والحساسية الجلدية... وتكلس الفقرات العنقية والقطنية... وكنت دائماً أتوجه بالشكر والامتنان إلى الله ﷻ، والدعاء الحار بأن يجعل من هذه الأوجاع تكفيراً عن أخطائي الكثيرة، وتخفيفاً من عذاب القبر وحساب يوم الحساب...

هذا إلى أنني أجريت ست مداخلات جراحية، بما فيها استبدال الصمام الأهليلي، ووضع بطارية لتنشيط حركة القلب التي قال الأطباء أنها قد انخفضت إلى الثلث، ولكن المداخلات الجراحية الست (الزائدة، الغدة الدرقية، الصمام، الفتقة، البطارية، وإزالة الماء الأبيض من العين اليمنى)، تكللت بعون الله ﷻ ومهارة الأطباء الاختصاصيين بالنجاح.

لم أتردد يوماً في الإجابة على رسائل الأصدقاء والمتابعين والطلبة

والمفكرين والأدباء، والتي تتدفق علي من مشارق الأرض ومغاربها، سواء بالبريد أم الإنترنيت، حتى أولئك الذين لم يتجاوزوا في دراستهم المرحلة الإعدادية... وكنت أرى في عدم الإجابة هذه نوعاً من التقصير وانعدام الذوق... ولذا كنت أسارع في الإجابة على عشرات الرسائل ومئاتها في العام الواحد، حتى أنني في أحد أعوام الثمانينيات أجبت على ما يزيد عن الثلاثمائة والخمسين رسالة، الأمر الذي وسّع من شبكة أصدقائي ومحبّي كلماتي، أولئك الذين انتشروا في قارات الدنيا الستّ بحمد الله وفضله.

ولم أتردد يوماً في السعي للتوسط لذوي الحاجات وحلّ مشاكلهم، حيثما وجدت في نفسي وعلاقاتي القدرة على ذلك، وكنت أقتفي بذلك خطوات أبي ـ رحمه الله ـ الذي طالما أمم وقته وجهده للسعي في حل مشاكل الآخرين مبتغياً وجه الله وحده...

القطيعة، حتى مع خصومي وأعدائي، تؤلمني وتؤرقني، ولذا وجدتني أسعى دائماً لمصالحتهم، رغم سلامة موقفي أحياناً، وكنت أشعر ببرد الرضا والسعادة وأنا أتجاوز قطيعتي إياهم، وأعيد علاقتي بهم كما كانت أول مرة.

ما أكثر حلقات الندم على شبكة من الأخطاء وسوء التقدير، وقعت فيها عبر حياتي من بدئها حتى اللحظات الراهنة... وأنا إذ كنت أدوِّن مذكراتي يوماً بيوم... فقد أتيح لي أن أعدّ حلقات الندم تلك، فإذا بها تبلغ المائة والثمانين، تقابلها مائة حلقة من التوجس والقلق والخوف مما قد يحدث مستقبلاً، دون أن يتحقق هذا الذي توجست من وقوعه خيفة... ودائماً أذكر الإعجاز المدهش للآيتين الكريمتين: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢ ـ ٢٣] فيقودني هذا إلى برد السكينة والرضا والاطمئنان...

تعرضت عبر حياتي لانكسارات مالية شتى... ورفضت إغراءات مالية أخرى بسبب قناعاتي الذاتية... وكدحت كثيراً لتغطية حاجاتي المالية

المتزايدة... حاصرت أسرتي الأمراض والمداخلات الجراحية التي لا أوّل لها ولا آخر... آثرت البقاء في مدينتي رغم التحديات التي مررت بها، ودفعتِ الكثيرين للهجرة، أو الاعتقال، أو التصفية الجسدية... شاركت في معظم التظاهرات التي نددت بالحكام منذ بداية الخمسينيات وطيلة العصور التالية... طالبت أكثر من مرة وعبر أكثر من مناسبة بإعطاء هامش لحرية العمل الأكاديمي في زمن البعث حيث كممت الأفواه، ودفعت ثمن ذلك بإخراجي من الجامعة...

تعرضت في العديد من مقالاتي ومؤلفاتي لنقد صريح للحكام والطواغيت رغم ما في ذلك من محاذير... ومنع العديد منها في بعض البلدان العربية، وبخاصة في بلدي العراق، حيث كانت تعليقات الرقباء عليها تحمل تنديداً صريحاً بالعديد من مضامينها الحادة والساخرة... وطالما قامت الأجهزة الأمنية بمصادرة العديد من كتبي المنتشرة في المكتبات...

تعرضت للموت مراراً، ولكني خرجت من مآزقه سالماً غانماً بمعونة الله وحده... العديد من أصدقائي وأقربائي أخذوا يغيبون الواحد تلو الآخر ويحتويهم والتراب... بما فيهم أبي وأمي وأخي الغالي نبيل (رحمهم الله)... ولقد أحصيت يوماً أولئك الذين رحلوا ممن تربطني بهم أشد الروابط قوة فإذا بهم يتجاوزون المائتين... أخذت الدنيا تتصاغر وتتضاءل في عيني وأنا أتجاوز السبعين من العمر، فلم أعد أكترث لشيء... لا لمال ولا لوظيفة ولا لصحة أو عافية...

تلقيت عبر حياتي حشداً كبيراً من الدعوات، بلغ ما يزيد على السبعمائة دعوة لحضور الندوات والمؤتمرات والملتقيات وجلسات الحوار وإلقاء المحاضرات وتسجيل اللقاءات الفضائية والتأسيس للمراكز العلمية والأدبية... والتكريم الشخصي والحصول على الجوائز.

لم أنفذ من مئات الدعوات التي وصلتني سوى عدد محدود جداً لا يتجاوز العشرات، لأسباب شتى منها عوائق السلطات، والموانع الوظيفية، والمتاعب

الشخصية، والظروف العائلية... كما أن بعض تلك الدعوات كان يرتبط بشكل أو آخر، بتوظيف السلطات الحاكمة، فكنت أسارع بالاعتذار عن الحضور.

ومن بين مشاركاتي في تلك الندوات والمؤتمرات: المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية ـ الدوحة ـ قطر ـ (١٩٧٩)، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين) ـ عمان ـ الأردن ـ (١٩٨٠)، الندوة العالمية الثالثة للآثار والتراث ـ بغداد ـ العراق ـ (١٩٨١)، ندوة حوار حول الأدب الإسلامي ـ المدينة المنورة ـ السعودية ـ (١٩٨٢)، ندوة كتابة تاريخ الأمة الإسلامية ـ الزقازيق ـ مصر ـ (١٩٨٩)، ندوة المنهاجية وإسلامية المعرفة ـ أكسفورد ـ المملكة المتحدة ـ (١٩٩٠)، الأسبوع الثقافي للمعهد العالمي وجمعية الدراسات والبحوث الإسلامية ـ عمان ـ الأردن ـ (١٩٩٢)، المؤتمر العالمي الثاني حول سعيد النورسي وتجديد الفكر الإسلامي ـ إسطنبول ـ تركيا ـ (١٩٩٢)، ندوة مستقبل العالم الإسلامي الثقافي من خلال واقعه المعاصر ـ فاس ـ المغرب ـ (١٩٩٣)، المؤتمر العالمي الثالث حول فكر سعيد النورسي ـ إسطنبول ـ تركيا ـ (١٩٩٥)، المؤتمر الثاني لجامعة الزرقاء الأهلية حول الأدب الإسلامي: الواقع والطموح ـ عمان ـ الأردن ـ (١٩٩٩)، الملتقى الدولي الثالث للأدب الإسلامي ـ أغادير ـ المغرب ـ (٢٠٠١)، الملتقى الدولي الرابع للأدب الإسلامي ـ فاس ـ المغرب ـ (٢٠٠٤)، مؤتمر العولمة ـ المعهد العالمي للفكر الإسلامي ـ عمان ـ الأردن ـ (٢٠٠٤م)، مؤتمر حول الفكر الخلدوني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان ـ الأردن ـ (٢٠٠٧م)، المؤتمر العالمي الثامن حول فكر سعيد النورسي ـ إسطنبول ـ تركيا ـ (٢٠٠٧م)، ندوة أسواق الموصل ـ كلية الآداب ـ جامعة الموصل ـ (٢٠٠٨م)، ندوة مورفولوجيا مدينة الموصل التراثية: مقترحات تطويرية ـ مركز دراسات الموصل ـ جامعة الموصل ـ (٢٠٠٨م)، المؤتمر العلمي السادس ـ كلية الآداب ـ جامعة الموصل ـ (٢٠٠٩م)، ندوة المناهج الجامعية ـ المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بيروت ـ لبنان ـ (٢٠١٠م)، ندوة العلاقات التركية

العراقية والآفاق المستقبلية ـ إسطنبول ـ تركيا ـ (٢٠١٠م)، مؤتمر التكامل المعرفي ـ المعهد العالمي للفكر الإسلامي ـ تلمسان ـ الجزائر ـ (٢٠١٠م)، المؤتمر القرآني الثالث لجمعية المحافظة على القرآن الكريم ـ عمان ـ الأردن ـ (٢٠١٠م)، المؤتمر العالمي التاسع حول فكر سعيد النورسي ـ إسطنبول ـ تركيا ـ (٢٠١٠م).

أما تلك التي رفضت أو اعتذرت عن المشاركة فيها، فهذه بعض نماذجها: رفض الانتماء لاتحاد الكتاب والأدباء العراقيين، رفض الانتماء لاتحاد المؤرخين العرب، رفض المشاركة في كتاب يصدر في الكويت بدعوة من اللجنة التحضيرية لمؤتمر القمة الإسلامي عام (١٩٨٦م)، رفض عرض كتابة مقال لمؤتمر القمة عام (١٩٨٠م)، رفض الموافقة على دعوة اللجنة المشرفة على جائزة أبو ظبي لأكون عضواً فيها عام (٢٠٠٨م)، رفض دعوة دار الحكمة في بغداد لأكون ممثلها في الموصل عام (١٩٨٤م)، رفض دعوة رابطة العالم الإسلامي لأكون ممثلها في العراق عام (٢٠٠٣م)، الاعتذار عن الإسهام في موسوعة تاريخ الموصل التي تصدرها جامعة الموصل في الثمانينيات، الاعتذار عن تسجيل حلقة لتلفزيون بغداد عن تراث الموصل في الثمانينيات، رفض محاولة السفارة العراقية في المغرب استدعائي لإلقاء جملة من المحاضرات بسبب ضغط المعجبين هناك، اعتذار عن قبول منصب معاون المدير العام لآثار المنطقة الشمالية عام (١٩٨٧م)، اعتذار عن رئاسة هيئات المنطقة الشمالية عام (١٩٨٧م)، اعتذار عن تسجيل ربيورتاج عن إحدى الدور التراثية في الموصل لمجلة ألف باء العراقية، اعتذار عن دعوة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية للمشاركة في كتاب منهجي عن الثقافة الإسلامية عام (١٩٨٧م)، اعتذار عن دعوة اتحاد المؤرخين العرب في بغداد للمشاركة في مؤتمر حطين عام (١٩٨٧م)، اعتذار عن دعوة وزير الأوقاف العراقي للكتابة في مجلة (الرسالة الإسلامية) في عددها الخاص، الاعتذار عن برقيات ودعوات متواصلة وترشيح لعضوية الهيئة الاستشارية لكتاب (الإسلام

والمستقبل) وحضور المناقشات حول الكتاب في الكويت، اعتذار عن دعوة الدكتور المشهداني أمين سر اتحاد المؤرخين العرب لترشيحي لنيل وسام المؤرخ العربي في ثمانينيات القرن الماضي، اعتذار عن قبول جائزة تقديرية من اتحاد المؤرخين العرب عام (١٩٨٧م)، الاعتذار عن المشاركة في المؤلف الشامل عن تاريخ الأمة العربية بدعوة من الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري عام (١٩٩٠م)، الاعتذار عن المشاركة في مؤتمر أقامته جامعة الزيتونة في تونس بسبب من ارتباطه بالطاغية (زين العابدين بن علي) عام (١٩٩٤م)، الاعتذار عن ترشيحات عديدة من جامعة الموصل لأكون الأستاذ الأول فيها، رفض ملء الاستمارة الخاصة باختيار علماء العراق عام (١٩٩٧م) بسبب ارتباطها بالضوابط الحزبية... الاعتذار عن الترشيح لجائزة الملك فيصل عام (١٩٩٥م)، الاعتذار عن الترشيح لجائزة دبي الدولية عام (٢٠٠٨م)، الاعتذار عن المشاركة في مسابقة للسيرة النبوية أعلنت عنها رابطة العالم الإسلامي، وأخرى أعلن عنها مركز دراسات السيرة النبوية في المدينة المنورة، الاعتذار مرتين عن دعوة شخصية وجهها إلي أحد الأمراء السعوديين لإلقاء جملة من المحاضرات في شهر رمضان بالمدينة المنورة في عامي (٢٠٠٨ و٢٠٠٩م)، الاعتذار عن قبول ترشيح مؤسسة آل البيت في عمان لأكون مندوبها في العراق عام (٢٠٠٤م)، الاعتذار عن المشاركة في الجائزة الثقافية لجامعة اليرموك، الاعتذار عن العرض الذي طرحه علي الثري الإماراتي (ماجد الفطيم) في طبع ما أشاء من كتبي وتوزيعها مجاناً... الاعتذار عن عرض آخر من الوقف السني في بغداد لطبع خمسة من كتبي وتوزيعها مجاناً، الاعتذار عن تكليفي برئاسة لجنة إعادة كتابة التاريخ الإسلامي تتولاه جامعة الإمام محمد بن سعود عام (١٩٧٩م)، رفض دعوة الرئيس العراقي صدام حسين للحوار مع المؤرخين العراقيين... الخ... الخ...

وبالمقابل فقد تلقيت عبر حياتي الفكرية والثقافية والأكاديمية، حشوداً من التقييمات ومناسبات التكريم، يصعب على المرء أن يلمها في ذاكرته، وقد

يكتفي في مقدمة كهذه بالتأشير على بعضها فحسب... رغم ما في ذلك من حساسية بالغة وإحساس قاس بالتأثم لأنه ينطوي على تمجيد الذات!!

فقد عُرضت عليّ رئاسة تحرير اثنتين من أكثر المجلات الإسلامية أصالة وانتشاراً (الأمة) القطرية و(المسلم المعاصر) المصرية، ولكني وجدت نفسي مضطراً للاعتذار عن الاثنتين بسبب ارتباطاتي العائلية. كما عُرض علي أن أتولى منصب المستشار الأكاديمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي في العراق، فاعتذرت خشية أن أوزع جهدي على حساب عملي التأليفي... وكذلك الحال بالنسبة لمنصب رئيس رابطة الأدب الإسلامي في العراق، حيث جرى التصويت على المرشحين للرئاسة عام (٢٠٠٣م) فإذا بي أفوز بكل الأصوات، ولم يكن هذا مما أرغب فيه، ولكن لا بدّ مما ليس منه بد، وقد قمت باختيار أعضاء اللجنة الاستشارية للرابطة، وتم عقد عدة لقاءات أسبوعية لترتيب جدول بالأنشطة التي سنتولاها، وبدأنا بتنفيذ بعضها... لكن ما حدث في العراق عامة والموصل على وجه التحديد من تضييق حرية الحركة، والظروف الأمنية القاسية التي عاشها الموصليون... دفعتنا إلى تجميد لقاءاتنا، بانتظار ظروف مناسبة أكثر مواتاة... كما تلقيت دعوة من سويسرا من المجلس العالمي للبحوث باعتباري عضواً في هيئته العليا... وقامت جامعة الخرطوم بترشيحي عضواً في هيئتها التنظيمية، لأنشطة التأصيل الإسلامي للمعرفة.

وأما ترشيحي عضواً ممثلاً للهيئة التدريسية في جامعة صلاح الدين بأربيل، وفي الهيئة المركزية للترقيات العلمية، فقد أصابني بهمّ كبير خشية مداخلاته السياسية، ولأنني فطرت على كراهية المناصب، فانتهزت فرصة إجراء المداخلة الجراحية لقلبي وقدمت طلباً بالاعتذار عن الاثنتين، ولا تسل عن الفرحة التي غمرتني لدى تلقي نبأ قبول استقالتي... وثمة دعوة لتكريمي في المغرب لم أقدر على تلبيتها بسبب تعارضها مع موعد سفري للحج عام (١٩٩٨م).

العديد من رسائل الأدباء المغاربة تعتبرني أستاذاً لهم... مركز أسلمة

المعرفة في فيرجينيا بالولايات المتحدة، يقيّم كتابي **(تحليل للتاريخ الإسلامي)** (١٩٨٧م)... إذاعة مغربية تشير إلى كتابي **(مقال في العدل الاجتماعي)** وتستشهد بمعطياته عبر حوار حول الموضوع (١٩٨٧م)، تقييم سخي لكتابي **(قالوا عن الإسلام)** من مفكر إسلامي كبير (١٩٨٧م)... الدكتور عمر الطالب يشير إلى أن فكري المتميز بالأصالة هو سبب انتشاري في المغرب (١٩٨٧م)... نشر العديد من مقالاتي كافتتاحيات لمجلة (المسلم المعاصر) (١٩٨٧م)، نبأ خاطئ عن وفاتي (في نيسان ١٩٨٧م) يصل تونس فتتدفق علي من هناك جملة من رسائل النعي يصفني أصحابها (بالعملاق)، وأن كتاباتي تحرك الهمم الخامدة وتنفخ فيها النار، وأن خبر الوفاة يصيب بالحزن قسماً داخلياً بكامله في تونس... تقييمات عديدة أتلقاها من عدد من الكتاب والأدباء والمثقفين... فثمة رسالة تصلني من الأخ الشاعر المغربي حسن الأمراني الذي يحضر للدكتوراه في باريس عن الأدب العربي يقول فيها: (بلغني أن روايتك **(الإعصار والمئذنة)** قد نزلت إلى السوق المغربية ونفدت في فترة وجيزة جداً... وقد زارني أحد الأخوة من المغرب، وقد قرأ الرواية بإعجاب كبير، وكان ذلك هو الانطباع العام الذي تركته الرواية في أنفس القراء، بعد ما اقترب من قراءتها بحذر شديد وتساؤل ضخم: أيمكن للدكتور عماد الدين خليل المبرز في التاريخ والنقد والمسرح والشعر أن يوفق أيضاً في الرواية؟ وقد كان الرهان صعباً، فإن الإحسان في كل ضروب القول، أو حتى في بعض ضروب القول أحياناً مما تنقطع دونه الاعناق، ولكن بحمد الله ﷻ، كان التوفيق أكثر مما يتوقع، وقد جعلني هذا الحديث أشدّ شوقاً إلى قراءة روايتك)...

ورسالة الناقد المغربي الدكتور محمد إقبال عروي يقول فيها: (يخيل إليّ كثيراً أنكم تملكون زمناً خاصاً، وأن اليوم عندكم كألف ساعة مما نعد، وإلّا كيف لم تنسوا مد القنوات العديدة التي تمتص قسطاً كبيراً من جهدكم ووقتكم؟ وكيف وكيف؟ إن الفضل ــ بعد الله ﷻ ــ يعود إليكم في تلمّس طريق الأدب الإسلامي، ومن ثم كيف يحلو لتلميذ أن يرفع صوته بين يدي أستاذه؟)...

ورسالة من الناقد الدكتور حلمي القاعود يقول فيها: (أنني واحد من قلة مؤمنة ومخلصة للأدب الإسلامي في إطاره الناضج والفعال، وتشغله دائماً قضية المواجهة مع الأدب المنحرف... وكانت حركته في اتجاهين متكاملين: مجال الإبداع فكتب القصيدة والمسرحية، ومجال المتابعة فكتب وتناول كثيراً من الأعمال الأدبية، التي تنطلق من مفهوم إسلامي، وتصدى لأكثر من عمل أدبي يهدف إلى تدمير الشخصية الإسلامية)...

وأخرى من طالب في دار العلوم في القاهرة حول تصحيح كتاباتي للمسار الإسلامي، وإزالتها للازدواجية بين الأصالة والمعاصرة، وإزاحتها للغيوم التي أحاطت بالتاريخ والفكر الإسلامي وما تتميز به من إخلاص...

الدكتور عمر الطالب يقدم تقييماً سخياً لمسرحيتي (**المغول**)، ويعتبرها عملاً متقدماً ومقنعاً وأنها من أحسن أعمالي، كما أنها تدل على قدرتي على تطوير كبير لأداتي المسرحية...

ورسالة من مثقف جزائري يقول فيها: (حقيقة أن الله ﷻ منّ علينا بالخير الكثير الذي نستحسنه ونذكره؛ أن جعلنا نتشرف بلقائكم والاجتماع بكم من خلال كتبكم القيمة التي تزخر بها المكتبة الإسلامية والعربية، والتي كانت لنا مفتاحاً لباب المعرفة... ونحن نقر ونشهد لكم بالدور العظيم الذي ما فتئتم تقومون به في ظل الدعوة الإسلامية، وإننا لنقدّر فيكم روح البذل والعطاء. لقد تأسفنا أشد الأسف لعدم حضوركم لملتقانا للفكر الإسلامي العشرين... وقد علمنا من وزارة الشؤون الدينية أنه قد وجهت إليكم الدعوة للمشاركة، وأرسلت عن طريق وزارة الخارجية... وهذا ما أدى بنا إلى التساؤل عن أسباب غيابكم، ونحن إذ نهتم بهذا فلأننا تحدونا في ذلك روح التقدير لفضيلتكم، والاشتياق لسماع محاضراتكم القيمة ذات الأهمية الكبرى. وهذا ليس من باب المبالغة، وانما هي الحقيقة التي تكمن في قرارة نفس كل أخ أو أخت حضروا إلى ذلك الملتقى، ولا يزالون يحضرون مثله من الملتقيات...).

ورسالة من أديب مغربي يقول فيها أنه يعتبرني المدرسة الرابعة التي

تخرج فيها بعد المنفلوطي والرافعي وسيد قطب، وأنه أخرج مسرحيتي **(معجزة في الضفة الغربية)** فنالت نجاحاً كبيراً، ويقيم روايتي **(الإعصار والمئذنة)** باعتبارها (رائدة) وكذلك مسرحية **(المغول)**...

رسالة من عدد من الطلبة السودانيين الجامعيين تعرب عن تقييمهم البالغ لكتابي **(التفسير الإسلامي للتاريخ)**، واعتبارهم إياه منطلقاً فكرياً وحركياً للإسلاميين في الفترة الراهنة...

ورسالة من أستاذ هندي تؤكد اعتماد مقدمتي لكتاب الشيخ الندوي عن السيرة في الطبعة القادمة، وتحمل سلاماً عطراً من الشيخ نفسه الذي سبق وأن اقترح أن أتولى كتابة مقدمة لكتابه...

رسالة من البروفيسورة الأمريكية إيفون حداد تقيّم فيها كتابي **(التفسير الإسلامي للتاريخ)** وتعتبره مرجعاً مهماً للعديد من أبحاثها.

الأستاذ الدكتور توفيق الطويل يقيم كتابي **(أصول تشكيل العقل المسلم)** ويبدي إعجابه برؤيته، والأستاذ الدكتور حسن شلبي يقيم كتابي **(مدخل إلى التاريخ الإسلامي)**، والدكتور الشيخ يوسف القرضاوي يقيم كتابي **(ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز)**، والناقد المعروف الأستاذ الدكتور أحمد بسام ساعي يقول بأنه على مكانته المتقدمة في ميدان النقد إلا أنه عندما يجد نفسه قبالتي يصير قزماً!! (وحاشاه)، والداعية الكبير الدكتور طارق سويدان يعلن في حوارياته التلفزيونية عن تلمذته على كتاباتي، ويدعو جماهير متابعيه إلى التعلّم منها...

العديد من الإذاعات العربية والإسلامية والعالمية، عقدت لقاءات شتى تحدثت فيها عن مؤلفاتي: في لندن حيث قورن اسمي باسم سيد قطب، ومونت كارلو حيث كتبي الأكثر مبيعاً في معرض للكتاب الدولي في القاهرة، والكويت، وتونس، وطهران، وإسطنبول، والمغرب وبغداد وصنعاء والخرطوم... الخ... وفي استفتاء ثقافي جرى في تونس في ثمانينيات القرن الماضي، عن أكثر الكتاب الإسلاميين إقبالاً جماهيرياً في العالم الإسلامي كله، وضع اسمي سادساً بين

حشد من الكتاب المعروفين، كما تم تقييم كتابي **(مدخل إلى الحضارة الإسلامية)** من قبل مؤسسة أراميكس ميديا في عمان، واحداً من أفضل عشرة كتب في العالم عام (٢٠٠٥م)...

وثمة تعليق للدكتور حسن الأمراني يرد في مقدمته للكتاب الذي أصدره المعهد العالمي للفكر الإسلامي بعنوان (المداولة في أعمال عماد الدين خليل) وهو في الأصل أطروحة دكتوراه من إحدى الجامعات المغربية في الدار البيضاء أنجزها الأخ الباحث سعيد لغزاوي، ما يلي: (مهما يكن من أمر فإن القارئ المتخصص قد يخالف الباحث في بعض اجتهاداته، إلا أنه لا يملك في نهاية الأمر إلا أن يكبر هذا الجهد العظيم الذي بذله في قراءة أدب علم من أعلام الأدب الإسلامي المعاصر، إبداعاً وتنظيراً، وأن يقدر هذه النتيجة التي استخلصها، فوضع بذلك في يد القارئ مفتاحاً حقيقياً يمكنه من قراءة أدب عماد الدين خليل، في جميع مظاهره وتجلياته، قراءة تمكنه من كشف أغوار أدب رجل عملاق).

العديد من المعنيين بالهمّ الثقافي أخذوا يطلقون عليّ لقب (العلّامة) وأنا أرفض هذا الذي لا أستحقه، حتى أن الأخ الدكتور مهند العاني الذي تولى تصميم موقع لي على الإنترنيت أراد وضعه تحت عنوان (العلامة الدكتور...) وأصر على ذلك، لكنني رفضت عرضه بشكل قاطع واخترت عنوان (موقع الأستاذ الدكتور...) وكذلك فعلت مع الأخ الدكتور زكريا الملكاوي الذي سبق وأن منحني مساحة على موقعه (الفكر الحرّ)... فمن أنا حتى أستحق هذا اللقب؟!

وفي رسالة على الإنترنيت تلقيتها من الأخ المؤرخ الأديب الأستاذ الدكتور أحمد الحسّو يقول فيها:

أمضيت أياماً سحبتني فيها **(تأملات في الكتابة والإبداع)** إلى البدايات قبل سبعة عقود، واستمر بي المطاف إلى أيامنا هذه، وأنا وأنت في مرحلة عمرية نحمد الله أنها لما تزل ذات حيوية.

أرفق لكم مع هذه الرسالة تعقيباً متواضعاً عن تأملاتك الجميلة والغنية والمفعمة بالكثير.

كنت أحسب أنني قادر على أن أكتب لك بعد وصول رسالتك بيومين اثنين، ولكن النص ثر ومليء بما اقتضى مني تأملاً وتوقفاً وأنا أشهد تجربة صدقك ونقائك.

قرأت كل شيء بتمعن، ووقفت كثيراً عند قناعاتك الخاصة في موضوعات عامة، فإذا أنا أمام زخم كبير من الثمار المهمة، والتي تعكس كل مفرداتها كماً ونوعاً كبيراً من المعلومات، وقد وجدت الصادق الأول قبل سبعين عاماً هو ذاته الصادق الدائم الآن.

تمنيت ـ وأنا أقرأ ـ أن يتسع الحديث، فهو يشعر بأهمية وضرورة تفصيل ما لم يفصّل فيه... فلعلك تجود علينا يوماً بمفصّل يبدأ بخطواتك الأولى وأنت تمر عبر دروب بيتكم الذي أحبه قرب جامع خزام...

تجربتك غنية وثرية، وأفكارك متفردة من حيث النمط الذي اتخذته مؤمناً به ومتفاعلاً معه، ومن حق نفسك عليك وحق الآخرين عليك ألا تكتفي بإيماء.

كلما قرأت لك، أو مر أمامي ذكر لكتاب جديد لك؛ كنت أتوقع أن يأتي تكريم لك من هذه الجهة أو تلك... ثمانون كتاباً ومئات المقالات وأعمال أكاديمية معروفة كانت وما تزال تستحق الكثير... ومع ذلك فإنها حظيت بما هو أهم، وهو تقييم يتمثل بقرائك ومحبيك عبر المعمورة، وقد أشرت أنت إلى أنهم سندك وقاعدتك؛ وإنك لمحق.

إن إنجازاتك أكبر من أن يغطي عليها أحد، وهي من السعة والانتشار ما يفتخر به، أما التجاهل لها من قبل البعض سواء في المدينة أو غيرها؛ فهو انعكاس لغياب الجو الثقافي النقدي في عصر متعب مترهل. نحن نعيش في عالم من التسطيح الثقافي وسيادة الجهالة التي تلبس لبوس العلم. تصور لو أنك كنت في وسط ثقافي علمي كبير متفاعل، أكان رد الفعل سيكون مساوياً.

فاقد الشيء لا يعطيه كما لا يخفى عليك.

لقد قدمت يا سيدي العزيز عصارة فكرك ورائع كلمك وحسبك ــ كما عبرت ــ أنك ابتغيت في ذلك مرضاة الله وأنك حاولت أن تغير واقع المجتمع.

كثير من الكتاب يؤلفون وينشرون الكثير إلا أنهم يغادرون كتاباتهم ويدعونها تفعل فعلها في ساحة المتلقي، وثمة آخرون يفعلون الفعل ذاته بيدَ أنهم لا يغادرون ما يكتبون، فالحرف الأخير لديهم هو الوليد الطبيعي لكل آفاق التجربة الفكرية التي ابتدأت بالحرف الأول.

إنهم يحيون ما يقولون، بل إن حياتهم بكل تموجاتها تأخذ ذات الأبعاد في تجربتهم الفكرية والأدبية بين الحرف الأول وآخر الحروف استمراراً نحو تشكيل حروف المستقبل.

هذا ما أحسسته وأنا اقرأ بشغف **(تأملات في الكتابة والإبداع)** للمؤرخ المفكر الروائي الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل.

عشت معه وهو يصور مسار الفكرة لديه ويحدد أبعادها وأوجهها، ثم وهو يقلبها يمنة ويسرة حتى إذا وصل إلى قرار، صنع منها معماراً متناغماً حاول جاهداً أن يجعله **(مقنعاً في نسبه وأبعاده ومساحاته...)**.

بيد أن هذه المعمارية الفكرية في أدبيات الدكتور عماد لها طابعها الخاص، فهي لديه دونما جدوى ما لم تكن **(مرآة لكلمة الله في العالم... لوحدانيته جلّ في علاه، ولحاكميته التي كانت الأديان كلها، وخاتمها الإسلام، تعبيراً عن بعدها الأول والأخير: أن يكون منهاج العمل في هذا العالم قادماً من فوق... من عند الله)**.

عبر هذا المنظور، نشأت التجربة الفكرية لدى الدكتور عماد منذ بدايات مراحل حياته، وظلت تعتمل في عقله ووجدانه مرحلة فأخرى حتى يومنا هذا.

وإذا كان لكاتب هذه السطور الذي كان شاهداً على كثير من محطات هذه التجربة الثرة، أن يقول كلمته عنها؛ فإنه يشهد أن مالك ناصيتها الدكتور عماد الدين خليل كان عاشقاً للحقيقة باحثاً عنها مخلصاً لها متجرداً إليها.

إنها تجربة حية لم تتخلّ عن محتدمها بدءاً وانتهاء؛ رسماً للخيوط

النهائية وإضفاءً لتصوراتٍ مستجدةٍ، وولادةً لرؤى جديدة في إطار نظرة واضحة للعلاقة بين الإنسان والكون والله.

في أول تأملاته التي عنوانها **(البحث عن اللغة)** وجدت نمطاً من المسؤولية أصبحت مغيبة في عصرنا هذا مع الأسف... مسألة الغوص في اللغة وفقهها والبحث خلالهما عن التوأم الأكثر اقتراباً مما يعتمل في العقل والروح، وعاء قادراً على الوصول إلى المتلقي بأمانة دقيقة.

بيد أن التعامل مع اللغة عند عماد الدين خليل ظل مع ذلك، قلقاً بين اختيارين؛ الكتابة بلغة مبسطة تتلاءم مع ثقافة الجماهير العامة، أو الكتابة بلغة أكاديمية ترضي شرائح المثقفين والمتخصصين.

إن من يقرأ كتب الدكتور عماد الدين؛ وهي غزيرة ومتنوعة، يدرك تماماً أنه نجح إلى حدٍ كبير في اختيار اللغة والأسلوب اللذين جاءا حلاً وسطاً لهذه الإشكالية، ضمن له ارتباطاً عميقاً وواسعاً مع قاعدة واسعة من قرائه ومحبيه، بل إن كتاباته كانت مثار اهتمام كبير حتى من أولئك الذين اختلفوا معه.

لقد أحسن الدكتور عماد الدين في تناوله لأبعاد تجربته الفكرية وأسرارها وخلفياتها وردود الفعل تجاهها ودوره فيها، والواقع أن ما كتبه يقدم نصاً سيأخذ مكانته ضمن أدب الترجمة الذاتية في عصر الحداثة.

وبعد... فإنها لسعادة غامرة، أن أقرأ بل أعيش كل كلمة في تأملات الدكتور عماد الدين، وكم آمل أن يتاح للكاتب الفاضل والصديق العزيز، أن يتوسع فيما أوجز، وأن يوضح ما أومأ، فالمرحلة التي عاشها وعشناها معه غنية وحمّالة أوجه.

ولا بدّ لي في ختام كلمتي هذه أن أقف عند عبارات وردت في متن هذه التأملات، ومنها:

(أحترق بنار التجربة... النار التي تنزّ في جملتي العصبية... الهاجس نفسه يلحّ عليّ، ويتقلب بي، كالموج الصاخب... إنها مأساة الرغبة في التحسين... رحلة الذبول والانطفاء... كنت أعتصره حتى الثمالة... بلغت غورها

العميق وأدركت سرّها المخبوء... الفضاء الرؤيوي...) فإذا أنا أمام حالة من غوص متأجج وعنفوان لا نهاية له، لرجل كان شاعراً وروائياً ومؤرخاً في آن واحد.

وعبر رحلاتي إلى خارج العراق لحضور المؤتمرات وإلقاء المحاضرات، تلقيت على لسان القائمين عليها جملة من التقييمات والعروض... و... و... والحديث في هذا الموضوع يطول، ويكفي أن يصفني العديد من المعنيين بالهمّ الثقافي بأني (عقاد) العراق و(سيد قطب) العراق.. وحاشا لله... وبخاصة بالنسبة لثانيهما، الذي لا زلت أعتبر نفسي تلميذاً مخلصاً ومتواضعاً له ولأفكاره المتميزة... لاسيما ونحن الثلاثة مارسنا التأليف الغزير، وبالقوة نفسها، في السياقات الثلاثة: الفكر، والتاريخ، والأدب (تنظيراً ونقداً وإبداعاً)...

ولقد لقيت مؤلفاتي رواجاً كبيراً بفضل الله ﷻ، وتوفيقه، وطبع كل واحد منها أكثر من مرة، حتى أن أحدها (وهو دراسة في السيرة) طبع ما يقرب من العشرين مرة... فلا أدري كيف أزجي شكري وامتناني لله الذي أعانني على هذا التوفيق... ولجماهير القراء والمتابعين التي لولاها لما قدرت على مواصلة الطريق...

ما كتب وقيل عني وعن أعمالي في الصحف والمجلات والبحوث والمؤلفات ورسائل وأطروحات الدراسات العليا... وفي الإذاعات والفضائيات... وعبر الحواريات والندوات والمؤتمرات... وفي قصائد الشعراء... يغطي مساحة واسعة جداً... ولا زلت أحتفظ بإضبارة ملأى ببعض هذا الذي قيل... ولكني آثرت عدم إدراجه في سيرتي الذاتية هذه خوفاً من تضخم صفحاتها والتي جاوزت السبعمائة... فضلاً عن تحسّبي الذي يمسك بخناقي، وهو التخوّف من الانسياح وراء إغراءات (الأنا) التي سيحاسب عليها بنو آدم يوم الحساب... ولذا اكتفيت بإيراد بعض الشواهد فحسب.

وطالما سألني أصدقائي عن السبب في التعتيم على حضوري في الساحة العراقية، في الوقت الذي حققت فيه ذلك الانتشار الواسع في سائر البلدان

العربية والإسلامية والغربية... فكان جوابي أنه فضلاً عن حصار السلطة في العراق؛ فإن معظم أعمالي نشرت خارج بلدي، ولم يدخل منها إلى العراق إلا القليل، وأنا أتذكر المثل المعروف أن **(لا كرامة لنبي في وطنه)**... ومع ذلك فقد شكلت في العراق جمهوراً عريضاً من متابعي محاضراتي ومُلاحقي أعمالي ومؤلفاتي، كما كتب عنها في الجامعات العراقية العديد من رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه.

عملت على مدى خمسين عاماً محاضراً في العديد من الجامعات والكليات العراقية والعربية والإسلامية والأوربية، من مثل: جامعة الموصل، جامعة صلاح الدين، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، جامعة العين، جامعة قطر، جامعة صنعاء، جامعة العلوم والتكنولوجيا في صنعاء، جامعة الزرقاء الأهلية، كلية دبي للدراسات الإسلامية والعربية، جامعة عجمان، جامعة زايد، جامعة جرش، جامعة اليرموك، الجامعة الأردنية، مركز الدراسات الإسلامية في أكسفورد، الجامعات المغربية، جامعة الزقازيق، جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية في السودان، جامعة الجزيرة الوسطى في السودان، جامعة أم درمان في السودان، كلية الإلهيات في إسطنبول، الجامعة الإسلامية العالمية في كوالا لامبور، كلية الدراسات الإسلامية في فرنسا، جامعة البحرين العالمية... الخ... فضلاً عن عدد كبير من مراكز البحوث والمؤسسات الفكرية والثقافية.

شاركت في إنجاز عدد من الأعمال العلمية لبعض المؤسسات ومنها: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في تونس، مركز الدراسات الإسلامية في أكسفورد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي في فيرجينيا، الندوة العالمية للشباب الإسلامي في الرياض، مكتب الأردن للمعهد العالمي للفكر الإسلامي. كما ساهمت في صياغة مناهج التاريخ لعدد من الجامعات منها: جامعة الموصل، جامعة صلاح الدين، جامعة العلوم والتكنولوجيا في صنعاء، الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا، المعهد الأوربي للدراسات الإسلامية في فرنسا.

أنجزت العديد من المواد العلمية والثقافية في التاريخ والحضارة والفكر

والأدب للموسوعات العربية والإسلامية ومنها: موسوعة دار الشروق في القاهرة، الموسوعة العلمية المتطورة في مدريد، موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية في القاهرة، موسوعة مؤسسة الوقف القرآنية في إسطنبول، والموسوعة الدينية في بيروت.

شاركت في عضوية اللجان الاستشارية لهيئات تحرير عدد من المجلات العلمية والفكرية المحكمة ومنها: مجلة المسلم المعاصر (مصر)، مجلة الإنسان المعاصر (لبنان)، مجلة المنعطف (المغرب)، مجلة إسلامية المعرفة (ماليزيا)، مجلة الدراسات الإسلامية (الباكستان)، مجلة التاريخ الإسلامي (الهند)، مجلة كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية (الإمارات العربية المتحدة)، مجلة النور (تركيا)، مجلة العلوم الإسلامية لجامعة الموصل (العراق)، مجلة كلية التربية الأساسية لجامعة الموصل (العراق).

أشرفت وناقشت العديد من طلبة الماجستير والدكتوراه في التاريخ الإسلامي، والاقتصاد، والأدب.

كتب عن أعمالي عدد من رسائل الدبلوم والماجستير وأطروحات الدكتوراه في العديد من الجامعات العراقية والعربية والإسلامية.

تُرجمت بعض مؤلفاتي إلى عدد من اللغات وبخاصة الإنكليزية والفرنسية والتركية والفارسية والكردية والإندونيسية.

نشرت عشرات البحوث في العديد من المجلات العلمية والأكاديمية والمحكمة ومنها: سومر (بغداد)، المؤرخ العربي (بغداد)، المورد (بغداد)، مجلة المجمع العلمي العراقي (بغداد)، آداب الرافدين (الموصل)، المسلم المعاصر (القاهرة)، إسلامية المعرفة (ماليزيا)، التجديد (ماليزيا)، العلم والإيمان (الخرطوم)، مجلة جامعة أم القرى (مكة المكرمة)، المنعطف (المغرب)، الإنسان (باريس)، الدراسات الإسلامية (باكستان)، مجلة التاريخ الإسلامي (الهند)، آفاق الثقافة والتراث (الإمارات العربية المتحدة)، حولية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية (الدوحة)، عالم الفكر (الكويت)،

مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية (الدوحة)، الآفاق (عمان)، مجلة الأدب الإسلامي (الرياض)، مجلة المشكاة (المغرب)، مجلة حراء (إسطنبول).

نشرت مئات المقالات والبحوث الثقافية والأعمال الأدبية (دراسة وتنظيراً ونقداً وإبداعاً) في سبعين مجلة وصحيفة عربية وإسلامية وأوربية، فضلاً عن عشرات المقابلات الصحفية.

حصلت على العديد من التقييمات من دوائر وجامعات ومؤسسات شتى، كان من بينها: حصولي على جائزة الدولة التقديرية لرئاسة دولة السودان عام (٢٠٠٥م)، وجائزة جامعة الزرقاء الأهلية لأفضل كتاب عن عام (٢٠٠٣م)، واعتبرت الأستاذ الأول في جامعة صلاح الدين في أربيل عن عام (١٩٨٩م)، كما قيّم كتابي **(مدخل إلى الحضارة الإسلامية)** من قبل مؤسسة أراميكس في عمان واحداً من أفضل عشرة كتب في العالم لعام (٢٠٠٥م).

هذا إلى أنني تلقيت عبر حياتي العديد من قصائد التقييم والتكريم من حشد من الشعراء لا يتسع المجال لإيراد نماذج منها:

- مؤسس وعضو في رابطة الأدب الإسلامي العالمية.
- عضو في الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.
- متزوج منذ عام (١٩٧٢م) ولي ولد (محمد) وابنتان (مها) و(علا).

ثم ها إنني أدعو قرّائي الأعزاء لكي يبدؤوا قراءة سيرتي الذاتية بأبيضها ورماديّها وأسودها على السواء، فلعل في خبرات الآخرين ما يعين المرء على تجاوز الأخطاء والعثرات ما وسعه الجهد، وتبيّن معالم الطريق...

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

القسم الأول

رحلتي مع الحياة

الفصل الأوّل

١٩٤١ ـ ١٩٥٣م

أحاول أن أمسك بخبراتي المبكرة الأولى فلا أستطيع... أُعمل ذاكرتي لالتقاط مرئياتي ومشاهداتي فلا أكاد أصل إلى شيء... كيف يقدر الإنسان، مهما أوتي من قدرة على استعادة ماضيه البعيد، أن يسترجع شيئاً ولو محدوداً من زمن بعيد... بعيد... من سنيّ ولادته الأولى، الثلاث أو الأربع، إلا أن يملك عقلاً استثنائياً يخترق حجب الزمن وضبابه الكثيف، من أجل استعادة تخيّل ما كان عليه؟

ومع ذلك ثمة خبرات مبعثرة لا يربطها رابط، ولا يمسك بها خيط، تخترق الذاكرة مؤكدة حضورها الملحوظ، بعضها يتشكل من رؤى مباشرة علقت ـ لا أدري لماذا ـ من بين عشرات الرؤى ومئاتها، في الذاكرة، وبعضها الآخر ترسّب في العقل، فيما بعد، من خلال الأحاديث المكرورة التي كانت العائلة تستعيدها بين الحين والحين... فلا بأس.

أنا من مواليد عام (١٩٤١م)، وليس (١٩٣٩م) كما هو مدوّن في شهادة ميلادي... لا أدري لماذا؟ ففي ذلك الزمن كان بمقدور الآباء أن يحدّدوا تواريخ ميلاد أبنائهم دون اعتراض من لدن الدوائر الرسمية... ودون تدقيق... وقد يكون هذا الاختزال الذي يبلغ السنتين على طولهما، رغبةً من الآباء في تكبير أعمار أبنائهم لإدخالهم المدرسة وقد بلغوا السادسة من العمر... وطالما سمعت من أبي أنه أراد توظيف علاقاته الوثيقة بمدير المدرسة الابتدائية ومعلميها، لكي يقنعهم بقبولي في المدرسة ولما أتجاوز الخامسة من العمر، وأن مدير المدرسة وافق ـ على مضض ـ ولكنه حذّر والدي من أن رسوبي في

الصف الأوّل أمرٌ محتوم، وأنه لن يقبل بهذا الخصوص أية وساطة، ليس فقط لأن قبولي وأنا في الخامسة من العمر أمر يخالف التعليمات، بل لأن بديهيات التربية تتطلب مرحلة معينة من العمر لتلقي المعلومات بشكل صحيح، ولقد قُبلت في ضوء تلك التحذيرات، ثم ما لبثت أن فوجئت في نهاية السنة الدراسية الأولى ـ والحديث لأبي ـ بالمدير يدخل عليه الدكان ويخيّره بين إنجاحي أو ترسيبي، وأنه يفضل الثانية من أجل ـ كما كان يقال يومها ـ تقوية (سوادي) أي لغتي في الكتابة، فما كان من أبي الا أن يعلن موافقته...

وكانت تلك السنة هي السنة الأولى والأخيرة التي ذقت بها مرارة الرسوب في حياتي كلها، ولكنها ـ والحق يقال ـ كانت واحدة من أمتع سنوات دراستي على الإطلاق، حيث لا زلت أذكر معلمنا الأستاذ رؤوف زين العابدين، الذي كان يتولى تعليمنا المواد كلّها، أسوةً بتقاليد التعليم يومذاك، وهو يدخل إلى الصف ـ في مدرسة الوطن الابتدائية ـ لكي يقسم الدرس اليومي إلى قسمين: قسم يمارس فيه التعليم، وقسم آخر يمارس فيه الترفيه، إما بإسماعنا واحدة من روايات جورجي زيدان التاريخية، حيث كان يعرف كيف يقطعها، فيلقي علينا جانباً منها، يقف عند نقطة متوترة منها، لكي يجعلنا مشغوفين بانتظار اليوم التالي لكي يواصل الحديث. وإما بإجراء مسابقات (المحيبس) بأن يقسمنا إلى قسمين لممارسة اللعبة... وإما أن يخرج بنا من الصف إلى ساحة النبي شيت المجاورة للمدرسة، لكي نمارس هناك بمعيته لعبة كرة القدم، حيث كان ـ رحمه الله ـ من ممارسيها الذين يشار إليهم بالبنان!! ولا زلت أذكر إعجابنا ودهشتنا وهو يضرب الكرة بعنف فما تلبث أن تحلّق في الهواء بعيداً، فيما كانت أقدامنا الصغيرة غير قديرة على فعل ذلك.

ولا زلت أذكر ـ كذلك ـ كيف كان لدى دخوله الصف ينادي على المراقب (إسماعيل) الذي كان يلقبه بـ (مسمّوعي البنا) قياساً على بائع خمر في شارع الدوّاسة القريبة من المدرسة، فيسلمه فلسين، ويطلب منه أن يهرع إلى البقال (زيدان) المجاور للمدرسة لشراء قطعة من (قمر الدين) وكيف

كان يمتصها بشغف ونحن ننظر إليه، يكاد لعابنا يسيل تشهياً لهذه اللقمة الطيبة.

بعدها ــ وقبل أن يبدأ الدرس ــ يطلب من التلميذ (جلمان) وهو ابن عامل في ملهى ليلي في باب السراي، أن يغني أنشودته التي تعلمها ــ كما يبدو ــ من حضوره ليالي الملهى الذي تختلط في أدائه اللغات كافة: عربية وفارسية وكردية وتركية... (جك بم زلاطة: جك بم زلاطة... عيني ما تأخذ نوم... جك بم زلاطة)... ثم يجلس... وكأن ما أنشده ــ وهو يتمايل ذات اليمين وذات الشمال مقلداً حركات الراقصات ــ هو السلام الملكي أو الجمهوري الذي تفتتح به المناسبات.

ولا زلت أتساءل لحدّ الآن... كيف يبيح معلمنا لنفسه أن يسحق نصف وقت الدرس في هذه الألاعيب، وأين هو مدير المدرسة، الأستاذ بشير الدليمي، بقوة شخصيته، وإدارته الحازمة؟ كيف يسكت على تصرفات معلمه هذه؟ ولعلّ الجواب الوحيد يكمن في قدرة (رؤوف زين العابدين) على توظيف إمكانياته الرائعة في التعليم، وذلك بالاكتفاء بنصف الدرس، فيما تذهب إليه أحدث النظريات التربوية، وفيما يسمى بالاقتران الشرطي، حيث يلتحم الجدّ باللعب، فيجد الأطفال سعادتهم بهذا الالتحام، وترسخ المعلومات التي يتلقونها عن معلمهم ذاك... ربّما!!

ها أنا ذا أمارس نوعاً من التزييف وأنا أتحدث، وأسترجع خبراتي المبكرة، إذ ما ألبث أن أجد نفسي تنزاح قليلاً في مجرى الزمن لكي تذهب للحديث عن خبرات السنة الخامسة من العمر... إذن أين ذهبت الخبرات الأخرى الأكثر إيغالاً في الزمن؟!

ليس ثمة سوى الشتات، فيما يبدو أنه قدر كل إنسان في هذا العالم... جدّي لأمي محمد بن الملا حسن أفندي البزاز... الشاعر المعروف الذي كانت قصائده تغنى على أحواض المنائر في أمسيات رمضان، والذي توفي شاباً بعشقه لرسول الله ﷺ وكتابته القصائد المؤثرة في مديحه... يدخل جدي

الدار عصراً، عائداً من عمله في سوق البزازين، وهو يتلفع بعباءة سمراء تغطي ثوبه الداخلي المقلّم، ويشد على رأسه عمامتين من القماش الأبيض... يمدّ يده إلى المنديل الذي كان يحمله، فيستخرج منه قطعة من السكاكر ويسلمني إياها وأتلقاها بشغف بالغ، ثم فجأة، ولا أدري في أية مرحلة من الزمن، أتذكر بيت جدّي، والحزن يخيّم عليه، والغادون والرائحون يجتازون فناءه لتأدية واجب العزاء بوفاة جدي ـ رحمه الله ـ لمسة مبكرة من الأحزان التي كتبت علينا في هذه الدنيا، منذ لحظات ميلادنا المبكرة وحتى مغادرة الحياة... لكنها في تلك المرحلة لم تكن سكينها الحادة لتوغل في جملتنا العصبية التي لم تعتد على تلقي الأحزان، وهضمها، وتخزينها، واستعادتها بين الحين والحين.

أتذكر أيضاً تلك اللحظات الكئيبة، عندما أيقظوني وأخي الأكبر (مظفر)، حيث كنا ننام عبر ليالي الصيف في سطح المنزل... وجرّوني جرّاً إلى الطابق الأرضي، حيث فوجئت بوالدتي تجلس على حافة درج السرداب، وقد خطف لون وجهها وأصبح شاحباً بأكثر مما يجب، والدموع تنساب من عينيها بهدوء... وحركة غير معتادة من الغادين والرائحين في فناء الدار... لم أدرك لحظتها ماذا جرى... ولكني ـ بالعكس ـ قبضت يوميتي من أمي التي دفعتني وأخي خارج البيت قائلةً بصوت مختنق: اذهبا إلى بيت جدكما لكي تمارسا اللعب هناك...

ولسذاجتي يومها ـ ورغم أنني شاهدت أمي رأي العين تجلس على عتبة السرداب ـ إلا أنني قلت لأخي الذي كان يمسك بيدي في طريقنا إلى أوّل بقال في محلة باب لكش، والذي قال لي أن أمي هي التي منحتنا هذه اليومية... أليست أمي هي التي ماتت؟! فما كان منه إلّا أن يلتفت إلي وقد أحمرت عيناه من البكاء: إنها أختك سناء!!

لا زلت أذكر سناء... آية من آيات الله في جمالها، وفي حركاتها التي كانت تحببها للأقرباء والبعيدين. كانت في السنة الثالثة من العمر: بشعرها

الذهبي الأصفر... وبياض بشرتها... وبعينيها اللتين اختلطت فيهما بنسبة مدهشة الألوان الخضراء والبنية والزرقاء!!

لقد سحرت سناء كل من عرفها... وكان عمي (إسماعيل) أشد المعجبين بها... يمرّ يومياً، وهو في طريقه إلى المحل الذي يبيع فيه التحافيات في شارع غازي، فيأخذها معه إلى هناك، ويعود بها ظهراً إلى البيت... ولا زلت أذكر كيف دخل البيت لدى سماعه نبأ وفاتها، وهو يضرب وجهه بكلتا يديه... ويترنّح... حتى ليكاد يسقط مغشياً عليه... لم أكن يومها أدرك ما الذي جعله يفعل هذا... وكان يصرخ: سناء... سناء!!

ولا زلت أذكر كذلك خالي (يحيى البزاز) الذي كان مسافراً إلى لبنان... ثم ما لبث أن عاد... كان هو الآخر يحب سناء حباً يصعب وصفه... قلّب بصره في فناء الدار، وكان الوقت ضحى: وسأل جدتي وأمي: أين سناء؟ قالتا له: إنها لا تزال نائمة في السطح... فلم يقتنع بكلامهما، حيث كان وقت البقاء في السطح قد فات، فرفع صوته: أين سناء؟ لقد جلبت لها معي لعبة رائعة... فأين هي؟ وحينذاك لم تتمالك جدتي وأمي نفسيهما من الانفجار والبكاء... وأدرك خالي حينئذ أن فاجعة قد اختطفت حبيبته سناء، فراح يضرب وجهه وهو يدور في الفناء، ويذرف الدموع، صائحاً بصوت مختنق: كيف سمحتم لها أن تموت في غيابي... أما كان الأولى أن تنتظرني حتى أعود فأمسكها اللعبة بيدي هاتين، وأطبع على خدها قبلة؟ فكيف سمحتم لها؟!

كانت (سناء) ملاكاً يمشي على الأرض... كانت بدراً يمطر حياتنا بأجمل الأضواء... وكان غيابها السكين الأولى التي افترست الكثير من سعادتي... فواحزناه...

حاولت مراراً البحث عنها لعلّي أجدها... وكنت أخرج يومياً مع ابن خالتي (رضوان البزاز) إلى المقبرة القريبة من باب لكش، لكي نلاحق الفراشات الطائرة بين القبور علنا نعثر في إحداها على سناء... حيث كنا قد سمعنا بأن

أرواح الموتى الصغار تتربع في حناجر الطيور... ولكن دون أن نصل إلى شيء، فنرجع إلى الدار محزونين كسيري الجناح!!

أذكر أيضاً أمي، التي كان يحاصرها، بين الحين والحين، مرض كانوا يسموّنه (المخبّث)، كيف أنها كانت تضطجع الأيام الطويلة، وهي تعاني آلام المرض، وملامح الكآبة تغطي وجهها.. وتمتد... تمتد... حتى تظلل أجواء البيت كلّه... وكيف كان أخي الأكبر (مظفر) يجلس عند رأسها مواسياً وهو يبكي بصمت... وكيف كان أبي يستأجر عربة مما تجره الخيول، فيسحبها سحباً لكي يتجها إلى دار (السيد توحي)، كبير معزّمي الموصل، الذي كان يقرأ جملة من التعازيم وينفخ بها عليها، فتعود وقد زال المرض، الذي يظل يعاودها لعدة سنين... لمسة أخرى من لمسات الحزن، لكنها ـ والحق يقال ـ لا تقارن بالحزن على وفاة سناء...

ثم ما لبث أبي أن حوصر باثنتين: مرض جلدي يدعى (الخغيون أو الشغي) استمر يفتك به الأشهر الطوال... وداء الحصر النفسي الذي اعتصره لمدة سنتين... ولكم أن تتصوروا ملامح الكآبة الحادة عندما تحكم قبضتها عليه، فتضعه في دوّامة القهر والحصر التي تنسحب على أجواء البيت كلّه، وليس ثمة أمل في انفراجها عنه...

ولكنها رحمة اللّه... (غمة وانفرجت) كما كانوا يقولون، ويعود أبي بعدها إلى بشاشته ومرحه المعهود... فيغسل أجواء البيت مما علق بها عبر سنتي الحصار، من هم وغمّ واكتئاب...

أسمح لنفسي بالانزياح مرةً أخرى... ما دمت بصدد ضربات الحزن التي تلقيتها في طفولتي... وأنا عائد من الدوام الصباحي للمدرسة، وكنت يومئذ في الصف الخامس الابتدائي، إذا بي أفاجأ بأمي وقد خطف لون وجهها، وأخي الأصغر (نبيل) منطرح على الفراش دونما أية حركة على الإطلاق... تبين لي أنه وهو يمارس اللعب في زقاق المحلة ضربته دراجة هوائية بعنف على رأسه، فخّر صريعاً وفقد الوعي، وساد الاعتقاد بأن رجة دماغية قد حدثت له...

ولا أدري كيف تلقيت النبأ وأنا أجابه بأعز إنسان على قلبي... شقيقي (نبيل) تطحنه ضربة هوجاء كهذه... عدت إلى المدرسة في دوامها المسائي، ولا أدري كيف مضت ساعتا الدرسين الأوّل والثاني... إذ ما أن انقضيا حتى هرعت إلى البيت لا ألوي على شيء، والهواجس السوداء القاتمة تهيمن على مشاعري وأفكاري... ولكني ما أن وصلت البيت حتى وجدت أخي في غير الحال التي كان عليها... عادت إليه بشاشته وقدرته على الحركة... وتبين أن دماغه سلم من تلك الضربة القاسية، فكانت فرحة كبرى لم أذق لها طعماً في حياتي إلاّ نادراً...

والآن... عودة لتجميع شتات الوقائع والخبرات في المراحل المبكرة من حياتي...

ولدت ــ إذن ــ عام (١٩٤١م) في دار متواضعة في أحد أزقة محلة الشيخ أبو العلا... بعدها بعام أو عامين، استأجر أبي داراً قريبة بعض الشيء في محلة (السوق الصغير)، قريباً من جامع (التوكندي) لا زلت أذكرها جيداً، بفنائها الصغير، وغرفتها الواسعة التي تتصدره، وعلى يسارها سلّم ينزل بنا إلى سرداب عميق كنت أخشى الاقتراب منه خوفاً من الجن... وممن هو ألعن من الجن: الأفاعي المعمرة التي كانوا يسمونها (الألفية)، لأنها تعيش في اعتقادهم ألف عام... وقبالة تلك الغرفة مطبخ وحمام، وثمة درج يصعد إلى الدور الثاني الذي يتضمن غرفة أخرى، ثم يمضي صاعداً إلى السطح، حيث كان يعجبني أن اتسلق جداره المعدني الحادّ لكي أطل على المارة أسفل الطريق... وكانت المسألة فيها قدر كبير من المجازفة... ولهذا وجدت أبي يصعد ــ يوماً ــ مسرعاً ويصرخ بي أن أنزل... فلم أردّ عليه... فما كان منه إلّا أن سحبني بعنف، وإذا بحافة السياج الحادة تسحب معي جلد يدي اليسرى، حيث راح الدم يتدفق بغزارة ووالدتي تصرخ بأبي: ماذا فعلت؟! ولا تزال آثار تلك السحبة القاسية مطبوعة على باطن يدي، بعد مرور ما يقرب من السبعين عاماً... شهادة دائمة على عبث الصبيان.

مرةً أخرى، عبر أمسية شتائية رائعة، كنا في غرفة الجلوس الأرضية نتحلق حول النار، ونتناول الحلويات التي كان أبي يسخو علينا بها يومياً، وكان أخي الأكبر (مظفر) من أجل إغاظتي لا يستعجل في تناول حصته منها إلا بعد أن أنهي أنا حصتي... فما كان مني إلا أن أجلس بهدوء خلف ظهره، وأبدأ، بعد أن التهمت وجبتي، بسحب وجبته قطعة قطعة، وأتناولها، حتى لم أكد أبقي في جيبه شيئاً منها... فلما اطمأن إلى أنني قد أجهزت على حصتي، مدّ يده على جيبه لكي يبدأ هو التهام ما فيه، وإذا به يصرخ صرخة اجتازت لعنفها الدار إلى الخارج... لقد اكتشف أن محتويات جيبه قد أجهز عليها...

ما لبث أبي بعد ثلاث سنوات من سكننا في محلة (السوق الصغير) أن اشترى داراً في محلة (جامع خزام) المتفرعة عن محلة (باب لكش)... داراً ــ على صغرها ــ إلا أنها كانت آية من آيات الفن المعماري الجميل، وحسن توظيف المكان... الفناء مبلط بالكاشي الملون، وعلى يساره درج يصعد إلى غرفة الجلوس المطلة على الزقاق، وآخر ينزل إلى (الرهرة) المفروش بالمرمر الأزرق... ثم إلى السرداب... وعلى يمينه درج آخر يصعد إلى الطابق الأعلى حيث تقوم غرفتا النوم، ومن ثم إلى السطح الذي كنا ننام فيه عبر أشهر الصيف كلها... أما في الجهة اليمنى من الفناء الأرضي فيمتد ممر طويل فيه المطبخ والمرافق والحمام...

لم تكن مساحة البيت تتجاوز الخمسين أو الستين متراً، لكن صاحبها المهندس عرف كيف يوظف كل شبر فيها، والحق أن أجمل سنوات حياتنا العائلية هي تلك التي قضيناها في هذا البيت بين سنتي ١٩٤٥ ــ ١٩٥٨ م، فيما عدا سنة واحدة غادرناه لكي نقطن، حسب توجيهات الأطباء لوالدي الذي كان يلازمه الحصر، في محلة الشفاء قريباً جداً من سور المستشفى الملكي الذي تحوّلت أراضيه فيما بعد إلى الكلية الطبية.

قضينا هناك عاماً بكامله، ثم ما لبثنا أن عدنا إلى بيتنا الجميل، الأنيق في (جامع خزام) بعد أن زالت الغمة عن أبي والحمد لله...

ثمة مساحات واسعة من جدران البيت كانت تزينها لوحات منقوشة بالألوان الرائعة للمناظر الطبيعية... والباب الخشبي الخارجي للدار كان مزيناً برأس تمثال محفور على الخشب، فيما لم يرتح له والدي بسبب حسّه الديني... ولا زلت أذكر يوم خرج صباحاً وفي يده فأس حادة، راح يهشم بها رأس التمثال!!

أما (الرهرة) التي ينزل إليها بالدرج، فكانت أشبه بغرفة أنيقة، كنا نقضي فيها أمسيات الشتاء متحلقين حول النار... وفي الصيف كنا لشدة برودتها نتناول فيها وجبتي طعام الظهر والعشاء، ونأخذ فيها قيلولتنا دون أن يزعجنا أي صوت طارئ على الإطلاق، كالذي يحدث زمن المبردات والسبالت والأجهزة الكهربائية.

ولدت لأب ينتمي إلى قبيلة طيء العربية... كان قبل زواجه، ربما في عام (١٩٣٧م)، يلبس الثوب المقلّم ذا اللمعان، والقبعة العثمانية الحمراء التي كنا نسميها (الفيس) مما كان دارجاً لدى أهل الموصل، تقليداً للزي العثماني، لكنه ما لبث أن تحوّل بعد الزواج إلى الزي الفرنجي: البدلة والحذاء، لكنه لم يشأ أن يترك رأسه مكشوفاً فاستبدل القبعة العثمانية بالسدارة العراقية التي كان الملك فيصل الأوّل قد أدخلها إلى العراق، وأصبح (الأفندية) يلبسونها باعتزاز تعبيراً عن ارتباطهم بوطنهم: العراق...

كان ــ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ــ متأنقاً في ملابسه، وكان زيادةً في التأنق يضع في جيب سترته العلوي منديلاً يحمل اللون نفسه للرباط الذي يحلّي به عنقه... وكان ينثر الروائح العطرية غالية الثمن على وجهه وذقنه، فكنت أعشق الاقتراب منه لشمّ عطره الفوّاح.

وكان على المستوى الديني ملتزماً أشد الالتزام بالمطالب التعبدية لهذا الدين، فكانت لا تفوته صلاة الفجر ولا بقية الصلوات في الجوامع... وكان يحتفي بشهر رمضان أشد الاحتفاء، ويتولى بنفسه الاحتفالات السنوية في سوق باب السراي الذي كان يعمل في أحد محلاته تاجراً للتحافيات، حيث علق على مدخله اسم المحل: (محل الصباح لصاحبه خليل الحاج عمر)، في كل مناسبة

من مناسبات المولد النبوي الشريف، حيث كان السوق يقطع من كافة مداخله بالبسط والبطانيات، وحيث يتم الاتفاق مع أحد الشيوخ الأعلام لإلقاء محاضرة في جامع عبدال الذي يقبع داخل السوق... وكان يتولى بنفسه شراء السكاكر والشيكولاته التي توزع على المشاركين في الاحتفال.

ومنذ طفولتي المبكرة كنت ألحظ على جدار (الرهرة) صورة كبيرة لرجل معمّم ذي لحية طويلة، مكتوب تحتها (الشيخ عبد الحق حامد النقشبندي المصطوني الموصلي)، فلما كبرت عرفت من هو، إنه شيخ أبي وأعمامي، حيث كانوا يتلقون منه التوجيهات الدينية ذات الطابع الصوفي المعتدل، والذي يؤكد على الالتزام الكامل بمطالب الشريعة الغرّاء...

كان أبي يملك إحساساً مرهفاً تجاه كل ما هو جميل، ويملك معه صوتاً عذباً، كان يتحفنا بسماعه وهو يرتل صباح كل يوم شيئاً مما يتيسّر من كتاب الله، أو يتغنى بالأناشيد الدينية والمقامات العراقية الأصيلة... وكان فضلاً عن هذا وذاك، يملك روح النكتة والدعابة والقدرة المدهشة على كسب الأصدقاء، الذين كانوا يتدفقون على محله للتناوش معه بالنكات وبالأحاديث الجادة على السواء، حتى أن والدتي كانت تعترض عليه في ذلك قائلة إن هذا مما يجعل المشترين ينفضّون عن دخول المحل خجلاً من هذه التجمعات الملتمة حولك في المحل، وكان من بينهم ساسة كبار، وزعماء من ذوي التوجه الإسلامي والوطني، ومدراء مدارس ومدرّسون وقضاة ومحامون، وضباط جيش وشرطة وموظفون... بحيث أنه أصبح بمرور الوقت وسيطاً للعديد من أصحاب المظالم والشكاوى الذين يتصلون به لحلّ مشاكلهم، فكان يتبناها بنفسه، ولا يكف عن ملاحقة مطالبها حتى يعيد الحقوق إلى أصحابها...

وكان من بين الذين يترددون على محله بشكل شبه يومي... الدكتور عبد الجبار الجومرد، الذي أصبح أوّل وزير لخارجية العراق بعد انقلاب عام (١٩٥٨م)، ومحمد علي الخشاب الذي كان يقود التظاهرات الجماهيرية في شوارع الموصل ضد سياسات نوري السعيد، والعقيد سالم الجومرد وابن عمه

المقدم عبد الجواد الجومرد، وبشير الدليمي مدير مدرسة الوطن الابتدائية، وفخري الخيرو المحامي المعروف، وخط طويل من مدرّسي ومعلمي الموصل المعروفين، وأساتذتها الجامعيين، وموظفيها وتجارها ومحامييها... وحشد من أبناء الأسر الموصلية المعروفة كآل الجليلي وآل حمو القدو وآل الأرحيم وآل حديد وآل العناز، وغيرهم كثيرون... ولا زلت أذكر أنني عندما كنت أقدّم إليه أحد زملائي من أساتذة جامعة الموصل كيف أنه سرعان ما يكسبه كصديق، ببشاشة وجهه، وقدرته على فتح أبواب الحوار المتنوع معه، بحيث أنهم طالما حدثوني كيف أصبحوا منذ لقائهم الأول به بمثابة أصدقاء دائميين، للوالد، يحرصون على حضور مجلسه في السوق.

وكان يمارس في تربيته معنا الأسلوب الأكثر حداثة، ذلك الذي تؤكد عليه أحدث النظريات التربوية: بأن يفتح أمامنا المجال لحرية الحركة، واللعب، والذهاب والإياب... دونما أي قدر من القسر أو الكبت، ولكنه ـ بالمقابل ـ يخضعنا من بعيد وبشكل غير مباشر، لرقابته الدقيقة الصارمة... فما لبثنا أن اجتزنا مرحلة الطفولة وكبرنا، ونحن لا نعاني من أية عقدة أو التواء، مما تسببه التربية العتيقة التي يهيمن فيها الآباء على تصرفات أبنائهم، وذلك من فضل الله ﷻ.

لقد تحقق أبي بالمفهوم الإسلامي الأصيل في التعامل مع الحياة الدنيا، ذلك الذي يدفع الإنسان إلى أن يحيا حياته كاملة، بأفراحها، ومتعها المباحة، وزينتها، وكأنه سيعيش أبداً، والذي يضع في منظوره دائماً الآخرة وكأنه سيموت غداً... لقد تعلمنا منه، وتربينا على يديه... ومن هذه المعادلة التي ترفض الجنوح باتجاه التشدد، أو الانحراف باتجاه التسيّب، وأن نظل في النقطة الوسط، قدر الإمكان، وكما أراد لنا هذا الدين.

أمي ـ رحمها الله ـ ما كانت تقل عنه عشقاً للجمال، ورهافة في الإحساس، وأسلوباً مرناً في التعامل معنا، ولعلّ مكونات الأب والأم هذه، وانتقالها إلينا وراثياً، هي التي جعلتنا أنا وأخي الأصغر نبيل ـ رحمه الله ـ

نعشق الجمال، ونوظف الكلمة في أقصى حدود قدراتها الجمالية، للتعبير عما كان يجيش في نفوسنا من مشاعر واهتمامات.

تنتمي أمي، ابنة محمد حسن البزاز إلى عشيرة الخزرج، التي انحدر قسم منها إلى الموصل واستقر في حافاتها الغربية، حيث لا تزال المحلة التي سكنوها تحمل الاسم نفسه... وجدّها الملا حسن البزاز هذا كان شاعراً قديراً نشر ديوانه بمعية بعض أشعار الحاج محمود شيت الجومرد، متضمناً أروع القصائد التي قالها في مدح رسول الله ﷺ، مما كان يرتل على أحواض المنائر في الموصل في ليالي رمضان. لقد كان مندفعاً في محبته إلى درجة العشق، التي أتت على صحته وعافيته وساقته إلى الوفاة مبكراً، ولم يتجاوز من العمر الأربعين عاماً إلا قليلاً. وهو ينتمي كما كان يقال لنا إلى خادم رسول الله (ﷺ): أنس بن مالك (رضي الله عنه).

وكان أبي يصطحبنا أنا وأخي الأكبر (مظفر) وخالي (برهان البزاز) ـ وكنا بعد صغاراً ـ إلى مسجد الشيخ نذير الروّاس رحمه الله القابع في زقاق داخلي في محلة (حوش الخان) فيما وراء شارع نينوى، حيث كان ورفاقه الحاج عبد الفتاح الجومرد ورجلين من آل العناز، وآخرون، يقيمون صلاة التراويح في كل رمضان هناك... وكنا نحن مع الأطفال الآخرين، ننتهز فرصة انشغالهم بالصلاة لكي نمارس اللعب الساعات الطوال، وكلما دهمنا العطش لجأنا إلى (الحب) وهو إناء فخاري كبير مليء بسائل عرق السوس المثلج، لكي نبل ريقنا بذلك المشروب الرائع الذي عرف عن الشيخ (نذير الرواس) إتقان صناعته.

وكان الرجل أعزباً، يعيش وحيداً في ذلك المسجد، ويتفنن عبر أوقات فراغه، بعمل بعض الأكلات الموصلية كالباميا والطرشي، التي كان يعبئها بأوانٍ خاصة ويقوم بنفسه بتوزيعها على دور أصدقائه عند حلول شهر رمضان... رحمه الله...

وفضلاً عن ذلك، فقد هيّأ لنا أبي للعبنا، وملء أوقات العطل الصيفية الطوال، البستان الملحق بالمحل، والذي كانت تتوسطه شجرة تين مثمرة، كنا في كل موسم نأتي بالصناديق الكارتونية لكي نجني الثمر، ونقوم بتوزيعه على

الأهل والأقرباء... وكنا على مدى أشهر العطلة الصيفية الطويلة، زمن الدراسة الابتدائية، نجتمع صبيحة كل يوم في تلك البستان: أنا وأخي وخالي وأبناء عمومتي، لكي نمارس فنوناً من اللعب الساعات الطوال، وكان ابن عمي هشام الطالب أحد المداومين بشكل يومي على مهرجان اللعب هذا، والذي كنا نمارس فيه ألعاباً شتى بعضها مما يستدعي السخرية والضحك، وبعضها الآخر يكشف عن طموح عجيب لابتكار أصناف من الألاعيب التي لم يعرفها أحد من قبل.

وكان عنف اللعب يتحوّل أحياناً إلى شجار حاد وتقاتل بيننا بالأيدي والأرجل، لكننا ما نلبث بعد دقائق معدودات أن نتصالح ونرجع إلى لعبنا بمحبة وانسجام.

وكان كل واحد منا يكنى بلقب قريب من اسمه، فكان اسمي (أسطه حمودي)، واسم هشام (أسطه هاشم)، وأخيه إنعام (أسطه نعمان)، وخالي برهان (أسطه إبراهيم)، وأخي مظفر (أسطه أحمد)... وهكذا، والأسطه تعني رئيس المهنة!!

ويوماً تفتق خيالنا عن ابتكار طريقة لصناعة السيكاير المحلية لا تكاد تكلف شيئاً، سوى ورق اللف، وماكنة اللف الصغيرة التي كنا نشتريها بثمانية فلوس، أما التبغ فهو مما نجففه من ورق شجرة التين ثم نسحقه بأيدينا ونضعه في الماكينة الصغيرة لكي يخرج لنا السيكاير المطلوبة، التي كنا نرتشفها بشغف رغم طعمها الحرّيف، ورغم أنها كانت تساقط على ثيابنا شراراً من نار فتملؤها بالثقوب، وعندما اكتشفت والدتي يوماً هذه الثقوب، وأرادت أن تعاقبني اعتذرت لها بأن هذا سببه وقوفي أمام دكان بائعي الكباب للإتيان بطبق للبيت في منتصف كل أسبوع حسب توجيهات أبي... وبذلك أفلت من العقاب.

ويوماً آخر تفتق ذهننا عن فكرة بناء مسبح، وما لبثنا أن شمرنا عن ساعد الجدّ وبدأنا بناء سور سميك بارتفاع نصف المتر، ثم سلطنا على المكان ماسورة الماء عبر الليل كله، لكي نجيء في اليوم التالي فنجد المسبح

جاهزاً، لا يعوزه إلا واسطة الركوب وهي (الجربة) أو الإطار المطاطي الذي ينفخ ثم نجلس عليه مجدّفين عبر مسبحنا الجميل هذا... لكننا للأسف لم نعثر بعد تجوال طويل في أزقة المدينة، على الاثنين معاً فاكتفينا بالسباحة بالماء الموحل، ولكم أن تتصوروا كيف خرجنا من المسبح، وبأية صوة محزنة!!

وكان هناك إلى شمال البستان درج يصعد إلى جدار الفندق الذي يطل عليه، فتفتق ذهني عن لعبة رائعة: أن أجعل أخي الأصغر (نبيل) يصعد إلى أعلى الدرج، وأنا من ورائه أمسك ببرميل حديدي فارغ، ثم أطلب منه أن ينزل بأقصى ما يستطيع من سرعة، بعد أن أكون قد أفلت البرميل من يدي، فإذا وصل الأرض سالماً يكون قد ربح الجولة، وإذا ضربه البرميل قبل الوصول أكون أنا الرابح، وفي إحدى المرات لم يتح لأخي أن يصل فإذا بالبرميل يضربه على رأسه ضربة موجعة، خشيت من آثارها بعد أن رفع عقيرته بالصراخ ولكن الله سلّم.

ويوماً، ونحن نمارس لعبنا في البستان إذا بنا نسمع من يأتي إلى الوالد ويلقي إليه بخبر لم نكد نتبينه حتى شمرنا عن سيقاننا، ورحنا أنا وأخي وخالي نركض وراء أبي وهو يجتاز مسرعاً الزقاق الذي يفصل محلة البريد عن جامع خزام... لقد كان النبأ بمثابة صاعقة نزلت على رؤوسنا: أن بيتنا يحترق وألسنة النيران تتصاعد من جنباته... وأنا أركض لاهثاً، متقطع الأنفاس، ما كان يهمني البيت ومحتوياته ولكن كانت تهمني أمي التي خيّل إليّ أن النار أتت عليها... ولكننا ما أن وصلنا حتى وجدناها واقفة في أسفل فناء الدار توجه شبان المحلة إلى السطح حيث اشتعلت فيه النار، كي يتولوا إطفاءه قبل أن تقع الكارثة، لقد أتت النار على مناماتنا في السطح، ربما بسبب شرارة من نار رمى بها أحد الجيران عن غير قصد... وحينذاك فقط عاد إليَّ وعيي والتقطت وأخي وخالي أنفاسنا، بينما كان الوالد يساعد شباب المحلة على إطفاء ما تبقى من جمر في سطح الدار!!

بعد ذلك بعدة سنوات، حيث انتهينا من دراستنا الابتدائية، وشببنا عن

الطوق، انفض السامر كما يقولون، ولم يعد أحد يأتي إلى البستان سواي وأخي الأصغر نبيل وابن عمي شمس الدين... وكنا نجمع النقود المرسومة على الورق مما كان يوضع في علب السيكاير، فنمارس اللعب بها بيعاً وشراء... وكان ابن عمي هذا يأتي يومياً ومعه شيء من الخبز الجاف والبصل والكاري والسماق، ويفرش بضاعته أمامي لكي يغريني بالشراء، فكان لعابي يسيل وأنا أراه يخرج البصل بالكاري والسماق، فأطلب منه أن يبيعني بدرهم أو درهمين، لكنه ما لبث أن اكتشف شهيتي المبالغ فيها لوجبته الرائعة هذه وعدم قدرتي على مدافعتها، فأخذ يقسط في كمية ما أشتريه منه، بحيث أنني أخيراً طلبت منه وجبة بعشرة دنانير، مما كاد أن يأتي على مدخراتي، فما كان مني في اليوم التالي إلا أن آتي إلى البستان مبكراً وأضع يدي على نقوده التي ادخرها تحت قطعة من الحجارة، وأخزنها في مكان أمين لكي أشتري بها وجبات أخرى، حيث كنت أرجع إلى البيت شبعاناً فلا أشتهي أن أشارك العائلة في تناول أدسم الأكلات وأروعها!!

لقد كنت أنا وأخي الأكبر وخالي زمن طفولتنا تلك أشقياء بمعنى الكلمة، وطالما تشاجرنا مع هذا الولد أو ذاك وخرجنا منتصرين، أو تلقينا ما لا يسرّ أحداً...

وأذكر أني في إحدى الليالي كنت أتجول وحدي قريباً من البحيرة الاصطناعية المجاورة لحديقة الشهداء، وإذا بمجموعة كبيرة من الصبيان تحاول أن تتصدى لي، فدفعوا بأحدهم لكي يستفزني ثم ينقضوا علي... فما كان مني إلّا أن أنزع نعلي وأمسك الولد من خناقه ثم أسلّط على رأسه سيلاً من ضربات النعل القاسية، فما كان منه إلا أن تراجع مستنجداً بزملائه، لكن بعد أن كنت قد شمّرت عن ساقي وانطلقت عبر شوارع المدينة باتجاه البيت، وهم يركضون ورائي في محاولة منهم للردّ، لكن محاولتهم تلك باءت بالفشل لأني قدرت على تضييعهم عبر الطرقات... ولا زلت أذكر مشاجرتي مع أحد طلبة الابتدائية، حيث توعّد أحدنا الآخر، فما كان منّي بعد أن عدت إلى البيت

إلا أن أهيئ عصا غليظة لكي أحملها في حقيبتي ليوم غد، حيث سيكون اللقاء، وكتبت عليها **(لا إله إلا الله محمد رسول الله... إن ينصركم الله فلا غالب لكم)** فكنت ـ فيما بعد ـ أضحك دائماً مع نفسي وأقول هذه هي المحاولة المبكرة الأولى في (التأصيل الإسلامي) للصراع، أو (أسلمته) بعبارة أخرى... ولقد سلطت على رأس خصمي سيلاً من ضربات العصا، رغم أنه كان يقف إلى جوار عدد من أقربائه وأصدقائه، ثم ما ألبث أن أطلق ساقي للريح قبل أن يقع المحذور!!

وفي مرة ثالثة حيث كنت أنا وأخي وخالي نحاول اجتياز شارع غازي، إذا بأخي يتعثر ويسقط أرضاً، في اللحظة التي كانت تمر بها عربة من تلك التي تجرّها الخيول فإذا بالعجلة الأمامية تصعد على رأس أخي ثم تنزل، ونحن واقفان نتفرج على هذا المنظر الرائع بانتظار أن تأتي العجلة الخلفية فتمارس الدور نفسه، لكن أخي ما لبث أن نهض قائماً والدم ينزف من أذنه اليسرى... ومرة أخرى ونحن نلعب في بستان محل الوالد، إذا بابن عم لي يسقط مغشياً عليه بسبب الشجار الذي نشب بيننا، فما كان مني لكي أوقظه من إغماءته تلك إلا أن أتيت بقطعة خيش مترعة بالأقذار ووضعتها في الماء ثم غطيت بها وجهه، فإذا به يستفيق وينهض قائماً، وكأن شيئاً لم يكن...

ولا زلت أذكر كذلك أننا نحن الأشقياء الثلاثة خرجنا يوماً من دار جدتي في منطقة العكيدات، لكي نتصدى لمجموعة من الأشقياء الآثوريين، ولكننا بعد أن بدأنا التحرّش بهم، ما لبثنا أن فوجئنا بعددهم الكبير، فشمرنا عن سيقاننا، حيث راحوا هم يلاحقوننا ونحن نركض للوصول إلى بستان بيت جدي المسوّر واجتياز بوابته، للاحتماء به... وكان خالي لسوء الحظ يركب حماراً ويحثه على الإسراع، حتى إذا ما وصل الحمار البوابة تلك انحصر خالي بجلال الحمار بين طرفي البوابة، وأفلت الحمار من تحته داخلاً إلى البستان، وراح خالي يصرخ طالباً النجدة، والآثوريون يقتربون منه لكي يذيقوه جملة من الركلات القاسية قبل أن يتركوه وشأنه!!

فيما بعد، في مرحلة المتوسطة، بقيت أنا وحدي في بستان أبي، وكنت قد شببت عن الطوق، فما كان مني من أجل ملء الفراغ سوى أن أحوّل جانباً من البستان إلى مكتب صيفي أمارس فيه إرسال الرسائل إلى المجلات العالمية التي ترسل أعمالها مجاناً للطالبين، حتى أنني قرأت في إحدى المجلات وصفاً لصنارة سمك أغرتني بمراسلة هيئة التحرير لإرسال واحدة مجانية إلي... وإذا بهم بعد أسابيع قليلة يجيبونني على طلبي هذا بإرسال صورة الصنارة أما الصنارة نفسها فعليّ أن أدفع حسابها مقدماً... يا أولاد الأبالسة!!

وكنت أتابع ـ كذلك ـ بيع ملاعيبي التي تجمعت لدي زمن الطفولة، فكان مساعد أبي في المحل: الحاج أحمد السلّو ﷺ يدخل عليّ في البستان بين الحين والحين لكي يزف إلي بشرى بيع إحدى ملاعيبي تلك، التي كنت أتعامل معها السنوات الطوال بأفضل درجات العناية واللطف، بحيث أنها تظل محتفظة بجمالها فيما يغري المشترين بها.

كانت أمسياتنا البيتية، وبخاصة في فصل الشتاء، من الروعة بمكان... كنا نلتمّ في غرفة النوم العلوية الصغيرة حول منقل الفحم المشتعل طلباً للدفء، وكانت أمي ـ رحمها الله ـ تمسك بيدها واحدة من قصص الأطفال التي كنت أستعيرها من مكتبة المدرسة بأربعة فلوس، وتبدأ في قراءتها لنا، على مكث، كان أبي يكاد يذوب عشقاً في سماعه لوقائع القصة، وتتغير ملامح وجهه مع تغيّر وقائعها وأحداثها، وكنا أنا وأخي الأكبر نكاد نغيب عن الدنيا وما فيها ونحن نتابع أحداث القصة، نضحك حيناً ونبكي حيناً آخر، ونتنفس الصعداء حيناً ثالثاً حتى تأتي الوالدة على نهاية القصة، حيث يبدأ فصل تالٍ لا يقل متعة: تناول الطيبات التي لم يدّخر والدي وسعاً في شرائها من شارع النجفي ومنطقة البريد، وعودته بها مساء كل يوم: الشاه بلوط المحمص على الفحم المشتعل... اللوزينة... الجوزينة... حلاوة جوز الهند... قشور النارنج المسكرة، الجرز... الحلاوة... بطيخ التعليق... الرمان... الخ... الخ...

والمطر في الخارج يتساقط بعنف على السطوح المعدنية المنتشرة في

مساحات البيت، فيسمع لصوته لحن رائع يزيدنا نشوةً وإحساساً بالطمأنينة والأمان...

فيما بعد تحوّلت هذه الجلسات العذبة إلى الرهرة أو السرداب العلوي الأنيق الذي يتميز بدفئه في أيام الشتاء، حيث كنا نتناول عشاءنا، ثم نبدأ الأمسية بالأحاديث وتناول الطيبات، ثم ما لبثنا أن انتقلنا إلى غرفة الضيوف على يسار البيت، حيث وضع في شباكها جهاز الراديو، وحيث أخذ يتردد علينا يومياً عدد من الأقرباء من الأخوال وأبناء العم والعمة لكي يقضوا مع الوالد أجمل الساعات... وكنت أنا أحس بسعادة بالغة، وأنا أنزوي في الغرفة بعيداً عنهم لمتابعة دروسي، أو هواياتي، أو مطالعاتي الخارجية التي كانت تزداد متعة في ليالي الشتاء البارد الممطرة والمترعة بالأحاديث العذبة.

عندما جاء أخي نبيل رَحِمَهُ اللَّه إلى الدنيا عام (١٩٤٨م)، كان بمثابة فرحة كبرى بالنسبة لي، أنا الذي كنت أتشوق لأخ أصغر مني، أمارس معه اللعب عندما يشب عن الطوق... وكان أبي يريد أن يسميه (قيس) لا أدري لماذا؟ أما جدتي لأمي فأرادت أن تسميه (مطر طين)!! باعتباره أطل على الدنيا في يوم طيني ماطر، لكن الوالدة أصرت على تسميته (نبيل)، فكان لها ما أرادت.

وكان أبي لشدة تعلّقه بالمولود الجديد وعشقه له، لا يكاد يتركه لحظة واحدة، الأمر الذي أطمع فيه ابنه، فأصبح لا ينام إلا بجوار أبي، الذي كان من أجل طمأنته يشد على أصبعه خيطاً يربطه بذراعه من الطرف الآخر... وكانت والدتي تلومه على هذا التدليل الزائد، وتسمي نبيل (معشوق أمريكا) بسبب من محبة أبي الزائدة له!!

عندما كبر، وشب عن الطوق، عثرت فيه على ذلك الصديق الذي انتظرته طويلاً، فكنت أمارس معه فنوناً من اللعب، وأحسّ بسعادة غامرة عندما أغادر البيت عصراً للذهاب إلى مدخل محلة باب لكش لاستقبال أخي العائد من المدرسة.

أما قصته مع المدرسة فأمرها عجيب... فلشدة ما أغريناه بها، أصبح قبل أيام من التحاقه بها يجرّ الحسرات ويقول مع نفسه مخاطباً جدار الغرفة:

يا ليتك تنفتح اللحظة على الطريق الذي يوصلني إلى المدرسة... الله كم أنا مشتاق للذهاب إليها!!

ولكن حينما جدّ الجدّ أصر نبيل، ورفض وهو يجأر بالبكاء، أن يذهب إليها... ومضت على ذلك أيام حتى ابتكر والدي صيغة لإقناعه بها، بأن يذهب بمعيته صباح كل يوم، ويجلس معه على الرحلة ذاتها، طيلة الدرس، ثم ما يلبثا أن يغادرا المدرسة سويةً عائدين إلى البيت... وحينذاك قبل نبيل الذهاب إلى المدرسة... والطريف أن المعلمين عندما كانوا يوجهون الأسئلة إلى الطلبة كان أبي أوّل من يرفع يديه ويطالب بالإجابة على السؤال، وسط ترحيب وابتسام أصدقائه من المعلمين... رحمك الله يا أبي ويا أخي... لقد كنتما نموذجين نادرين في التعامل مع الحياة!!

في أيام رمضان الصيفية في أربعينيات القرن الماضي، كنت وأخي الأكبر نصعد قبيل الغروب إلى سطح الدار لمتابعة صوت المؤذن محمد وهو يرفع صوته العذب بالأذان... كانت تلك من أمتع الساعات في طفولتنا... لا زلت أذكر كيف كنا نتعلق على سياج السطح وعيوننا مركزة على مئذنتين، حيث كان الأذان يرفع من أحواضها العليا، قبل اكتشاف أجهزة التوصيل الصوتي... منارة جامع خزام القريب من دارنا، ومنارة جامع النبي جرجيس الذي يبعد كثيراً عن الدار، والذي تم الاتفاق على أن تكون إشارة البدء بالفطور، من خلال راية كبيرة تطوف على حوض المنارة معلنةً حلول موعد الأذان... وكان كل مؤذني البلد يشيحون بوجوههم صوب منارة جامع النبي جرجيس تلك بانتظار الإشارة المحببة... وما أن تتحرك الراية ذات اليمين وذات الشمال، حتى كنا نرى مؤذننا (محمد) يرفع إناء الماء الفخاري المعلق على حافة الحوض، ويسفحه في فمه، ثم يبدأ الآذان، وما نلبث نحن أن نغادر مكاننا مسرعين إلى حافة السطح المقابلة والمطلة على فناء الدار، لكي نصيح معاً: أفطروا... أفطروا... ثم ننزل بسرعة مجتازين الدرج اثنتين اثنتين وثلاثاً ثلاثاً، قبل أن تفوتنا لقمة شهية من طعام الإفطار الذي كانت الوالدة تجيد طهيه.

يا لتلك الساعات السعيدة التي لا يزال طعمها العذب يلامس أفواهنا ومشاعرنا ويعيدنا إلى ذلك الزمن الجميل!... وكان خالي (برهان البزاز) سرعان ما يلتحق بنا بعد الإفطار، لكي نبدأ في مساء كل يوم من أيام رمضان مغامراتنا المحببة: التنقل مجاناً من محلة إلى أخرى، ومن شارع إلى آخر، ونحن نتسلق ظهور المركبات التي كانت تجرها الخيول، دون أن ينتبه سواق العربات لركوبنا... ولكنهم ما أن يقطعوا أشواطاً من الطريق حتى ينبههم أحد المارة إلى أن صبياناً قد تعلقوا على ظهر المركبة، فما يكون من السائق إلّا أن يضرب بسوطه الحاد خلفية العربة التي نكون نحن قد قفزنا منها في اللحظة المناسبة، وإلا أصابنا السوط بآلام يصعب وصفها... ثم ما نلبث أن نتحول إلى عربة أخرى لكي لا ندع شبراً من مدينة الموصل إلا وقد اجتزناه!!

أما ليلة العيد فكانت مهرجاناً من السهر والفرح والغبطة حتى مطلع الفجر... في لعبنا المتواصل عبر شوارع الموصل... في استعراضنا لبسطات العيد التي تُهيأ منذ الليل بما تحمله من شيكولاتة وجرزات وأنواع مختلفة من الحلويات الموصلية... في عودتنا إلى البيت لكي نلتقي الوالد الذي يعود من محله قبيل الفجر، وهو يحمل أكياس الجرز والملبس والحلويات... وفي نومنا المتقطع المتوفز بانتظار حلول الصباح الذي ما يلبث أن يطل علينا، حيث تغمرنا فرحة يصعب وصفها، إذ ما نلبث أن نلبس الملابس الجديدة، ونتناول لقيمات من الفطور بانتظار مجيء خالنا، والانطلاق لقضاء أجمل الساعات في شوارع الموصل وما تمتلئ به من أنواع الأطعمة والأشربة والمثلجات والألعاب...

وكنا نفتح شهيتنا بنصف صمونة سمراء مترعة بالعنبة الهندية اللذيذة، ثم نثني بقطعة من الدوندرمة المسماة بالكريمستك، ونثلث بقطعتين أو ثلاث من راحة الحلقوم، أو أم الثوب، ثم نتجه بعد ذلك لركوب المراجيح ودواليب الهواء مع بقية الصبية، أو نؤجر عربة مما تجرها الخيول لكي نتجول في أطراف المدينة ثم نغادرها متقافزين هنا وهناك، باحثين عن مكان لنا في هذه السينما أو تلك مما تعرضه من أفلام (طرزان) و(جابك والي) و(هونك

كونك) و(فلاش جوردون) و(الجمجمة) و(توم ميكس) و(عنتر بن شداد) و(علاء الدين) و(علي بابا)، من تلك الأفلام المليئة بالمآزق والمفاجآت والبطولات، التي كانت تسحرنا وتدفعنا إلى إعادة مشاهدة الفلم الواحد أكثر من مرة.

ولا زلت أذكر حادثتين كادتا تودي بنا أنا وابن خالتي (ساطع البزاز) أيام العيد، وكنا بعد صغاراً لم نتجاوز السابعة من العمر... في أولاهما وكنا قد أوغلنا بعيداً عن مركز المدينة، حيث مباهج العيد في باب الطوب، باتجاه الدوّاسة، وما لبثنا أن وجدنا أقدامنا تغوص في بحر من الطين اللزج الذي راح يسحبنا بسرعة أكثر فأكثر، إلى الأعماق، لولا أن قيّض الله ﷻ لنا أحد الشباب الذي هرع إلينا ونحن نصرخ ونستغيث، وسحبنا بقوة لكي يضعنا على حافة الرصيف وينصحنا بألا نعود لمثلها مرةً أخرى... وفي الثانية، أشيع في سينما الملك غازي بأن السينما قد تعرضت للحريق، حيث كنا نشاهد فيلماً لطرزان، وبدأ المشاهدون يتقافزون هاربين من الصالة باتجاه درج السينما لكي ينجو بأنفسهم، ورحنا أنا وابن خالتي نركض مع الراكضين، وخلال نزولنا الدرج تناوشتنا أجساد الهاربين وأسقطتنا أرضاً، وكادت أن تقضي علينا، لولا أن يقيّض الله ﷻ أحد طلبة مدرسة (الوطن) التي كنا ندرس فيها، لكي يرفعنا معاً على كتفيه وينزل بنا إلى أسفل السينما سالمين بحمد الله ﷻ.

ولكن، وكما هو معروف، فإن لكل شيء نهاية، فها هي متع رمضان والعيد، سرعان ما تتبخر، وإذا بنا نرجع إلى دورنا مساء اليوم الأخير من العيد، ونحن مثقلون بالحزن والاكتئاب... ولكن لا بأس، فها هي ذي العطلة الصيفية تقرع الأبواب، ولسوف يكون لنا معها أكثر من شأن، فلا بأس.

أما الحياة المدرسية زمن الدراسة الابتدائية، فكانت هي الأخرى واحدة من الصفحات البيضاء المشعة في حياتي، بخلاف العديد من الأطفال الذين كان شبح الدراسة يصيبهم بالاكتئاب... فمع حلول شهر أيلول في مدينتي العزيزة، المسماة أم الربيعين، بسبب من جمال خريفها الشبيه بالربيع،

واعتداله، ونسماته الرقيقة الرائعة... يعلن عن افتتاح الموسم الدراسي... وكنت أتجه إلى المدرسة تغمرني فرحة يصعب وصفها، لأننا في اليوم الأوّل من الدوام سنتسلم الدفاتر والأقلام والمماحي والكتب المدرسية... وكان كتاب (المطالعة) بالذات يملؤني فرحاً وغبطة بما ينطوي عليه من قصص ومفارقات وحكايات... وكنت أرجع إلى البيت محملاً بهذا الكنز الثمين، لكي ما ألبث أن أبدأ رحلتي مع الحياة المدرسية... وما أجملها وأمتعها من حياة، بمعلميها، بمفارقاتها، بأناشيدها وعروضها المسرحية، بما كان يقصه علينا المعلمون من قصص وروايات، بألعابها التي تخفق في جنباتها، وعبر أحيائها المجاورة على مدى الأسبوع، بما يبتكره الطلبة من وسائل وألعاب كنا ننغمر فيها حتى شحمة أذنينا، ونشعر خلالها بسعادة بالغة، بالتفوّق الدراسي لحظة إعلان النتائج الامتحانية، بقصصها التي كان المعلمون يعلنون في ختام كل أسبوع عمن يرغب في استعارة إحداها، لكي ما نلبث أن نلتهمها أيام الخميس والجمعة التهاماً، وبما تنطوي عليه الحياة الدراسية من طرائف وغرائب، وبحملات التبرعات التي كانت إدارة المدرسة تعلن عنها لهذا السبب أو ذاك، وكنت أشعر بفخر واعتزاز وأنا أرفع يدي لكي أعلن عن المبلغ الذي كلفني أبي بتقديمه، والكبير نسبياً في ذلك الزمن!!

ولا زلت أذكر، من بين تلك الطرائف والمفارقات، معلمنا في الصف الأول (رؤوف زين العابدين) رَحِمَهُ اللهُ وهو يعلمنا رسم الحروف الأبجدية، فعندما بلغ حرف الصاد بتكوينه المعقد وكسرته الحادة، وأخذ يطالب التلاميذ واحداً واحداً أن يتقدم إلى السبورة لكي يخط الحرف، حتى إذا جاء الدور علي، اضطربت، والتصقت بالسبورة دون حراك... وعبثاً حاولت رسم حرف الصاد، فما كان منه إلا أن يوبخني بعنف ويدفع بي لكي أعود إلى حيث كنت أجلس... وثقل الأمر علي، وأدخلني دوّامة من الهمّ والاكتئاب، إذ كيف سأجتاز محنتي مع حرف الصاد، وما لبثت أن غادرت المدرسة، وأنا أبكي بصمت حتى وصلت البيت وقد تغيّرت ملامحي... ولحدّ الآن وبعد مرور حوالي السبعين عاماً على

الحادثة لا زلت لا أعرف كيف أرسم حرف الصاد... لا بل، وأقولها لكم بصراحة، إن خطي كان ولا يزال، لا يحمل أية لمسة جمالية من تلك التي يتيحها الحرف العربي للمبدعين، رغم أنني كتبت آلاف الصفحات... ولا يزال حرف الصاد يمثل عقدتي الأساسية... ولكن، ولحسن الحظ، فإن خطي ــ على بشاعته ــ مما يقرأ بوضوح وذلك من أفضال الله علي.

كان (إسماعيل) رَحِمَهُ اللهُ مراقب الصف ذو الجسم الفاره، قد ابتكر لعبة سهلة لابتزاز زملائه... مجموعة من الصور المقتطعة من المجلات يضعها على غير اتساق بين صفحات إحدى الكتب المدرسية، ثم يبدأ بالنداء على بضاعته فكنا نحن ننهال عليه ونعطيه لقاء كل سحبة فلساً، أو قلماً، أو ممحاة، أو صورة، لكي نضع أصبعينا على جانب من الكتاب ونفتحه فإذا به فارغ من أية صورة... إلا فيما ندر... وهكذا وبمرور الوقت تبين أن إسماعيل سيجردنا من كل موجوداتنا المدرسية وغير المدرسية، ويبدو أن أحد الطلبة المتضررين رفع شكوى ضده إلى إدارة المدرسة فأوقفت اللعبة.

في الصف الثالث الابتدائي، حدث وأن أحاق بالموصل جو شتوي شديد البرودة، انخفضت فيه درجات الحرارة إلى ما دون الصفر بكثير، ولم تعد أجهزة التدفئة المتواضعة في كل صف تجدي نفعاً... فما كان من مدير المدرسة إلا أن ابتكر طريقة طريفة لتدفئة الصف... أن يشترك كل طالبين متجاورين بمنقل يأتيان به من بيوتهما ويضعانه بين أقدامهما لكي يمنحهما الدفء المطلوب، أما الفحم فكنا نتسلمه وقد احترق تماماً من الكومة الكبيرة التي تشعل فيها النار وسط فناء المدرسة في ساعة مبكرة من صباح كل يوم... ولقد وجدنا في تلك التجربة متعة بالغة، ذلك أن أي تغير يضاف إلى نمط التدريس وتقاليده يمنحنا فرحاً ودهشة وإحساساً عميقاً بالغبطة، وتلك هي حالة الإنسان الذي يتعامل مع الخبرات والأشياء لأول مرة، فيما يكسر به تسلسل الحياة الاعتيادي الذي قد يصل إلى درجة الملل.

ومن أجل كسر الملل هذا، انتهزت يوماً فرصة إدارة ظهر معلم الرياضة

(بهنام) أفندي، وهو يمارس تخطيه اليومي داخل غرفة الدرس، فما كان مني إلّا أن أرفع عجوة من الأرض ثم أضعها بين أصبعيّ وأدفع بها إلى رأسه... يبدو أن الضربة قد أوجعته قليلاً، إذ ما لبث أن التفت بسرعة فائقة واكتشف الفاعل... ويومذاك تلقيت (بسطة) ما تلقيت مثلها في حياتي!!

ومع بدء الربيع، كانت تنقل إلى فناء المدرسة أكداس البعر الحيواني الذي يتخذ سماداً لحدائق المدرسة وأصصها وزهورها... وكان المدير يطلب منا أن نسحق بأقدامنا هذه الأكداس... ولكم أن تتصوروا فرحتنا الغامرة بهذه المناسبة التي نكسر بها الملل هي الأخرى، والتي ابتكرت لها فيما بعد اسماً مقتبساً من أسماء المناسبات التي شاعت عالمياً من مثل (يوم المرأة) و(يوم الطفل) و(يوم المعلم) و(يوم العمال) فأضفت إليها (يوم البعر).

وكنا نرجع من يوم البعر هذا إلى دورنا وقد غطانا غبار الروث من رأسنا حتى قدمينا، ولكم أن تتصوروا ما سنلقاه من أمهاتنا من عقاب!!

يوماً، انتشرت في المدرسة شائعة تقول أن ثمة لقاء في الملاكمة سيجري بين معلم الرياضة (توفيق) أفندي ﵀ وبين ملاكم محترف جيء به زائراً لمدينة الموصل، فتملكنا فرح غامر، ووقفنا قبالة شرفة المدرسة بانتظار بدء اللقاء ونحن نتمنى من أعماقنا انتصار معلمنا العتيد، الذي قيل لنا بأن خبرته في الملاكمة لا يشق لها غبار، وأنها قد تجاوزت كل حدّ، وما لبث أن خرج (توفيق) أفندي بشورت الملاكمة وكفيها الكبيرين، وراح يحرك قدميه، ويتقافز، ويضرب الهواء بكلتا يديه، ونحن نصفق له ونهتف لقدراته الفريدة، ثم ما أن تصدى له الملاكم الزائر ووجه إليه أولى لكماته القاسية، حتى خارت قوى (توفيق) وأخذ يضرب على غير هدى، وهو يتلقى ضربات أشد قسوة من سابقاتها، حتى لقد أطمع ذلك خصمه فيه فراح يركله بقدميه فضلاً عن يديه، حتى ورم وجهه، وأخذ يترنح، ثم ما لبث أن سقط مغشياً عليه... ونحن لا زلنا نصفق ونهتف ونصيح (بصّ شوف توفيق بيعمل ايه)!!

كان لدينا فريق رائع لكرة السلة يتضمن (خالد فصوله) و(إسماعيل

إبراهيم) و(سالم نوري)، و(محسن نايف) و(سالم...) وكنا نستمتع بفنهم المتميز في اللعب وباكتساحهم للفرق المدرسية واحدة إثر أخرى، ولكن وكما هو معروف فإن (فوق كل ذي علم عليم)، إذ ما لبث أن دعي للمدرسة فريق متوسطة المثنى لإجراء لعبة ودية مع فريقنا، وكان من بين لاعبي الفريق الزائر (مسعود شريف) الذي لا يشق له غبار، فما أن بدأت اللعبة حتى راحت الأهداف تنهال على فريقنا بحيث أنهم لشدة إحساسهم بالإحباط توقفوا عن التهديف إلى سلة الخصم، وراحوا يتفرجون على فن (مسعود شريف) الذي سيقدّر له فيما بعد أن يكون أحد أبطال العراق في لعبة كرة السلة هذه، والذين يشار إليهم بالبنان.

يوماً كان (مسعود) أفندي مدرّس الجغرافيا، يشرح لنا على الخارطة جانباً من تكوين قارة آسيا، ويبدو أنه لحظني وأنا منهمك بالحديث مع جاري في الصف، فما كان منه إلّا أن استدعاني وسلمني العصا التي كان يؤشر فيها على الخارطة وطلب مني أن أؤشر على سيبيريا... وكانت سيبيريا هذه على جلالة قدرها، مفروشة بمساحاتها الواسعة أمام عيني، ولكني لشدة ارتباكي لم أتبين موقعها، فما كان من (مسعود) إلا أن يوجه إلي صفعة قاسية، لا زلت أتذكر طعمها حتى الآن... لقد كان بعض المعلمين دون مستوى مهمتهم التربوية بكثير وكانوا يعتمدون أسلوب العنف، والبسط، والتخويف، لإرغام الصغار على الإجابة عن الأسئلة... ولكن دون جدوى...

معلمنا الآخر في الصف السادس الابتدائي (عبد الله أفندي عبيد أغا) رَحِمَهُ الله أراد أن يجري تجربة فيزيائية عن قوة البخار أمام أعيننا، وأعلمنا بالأمر في اليوم السابق، فتملكتنا فرحة غامرة، ورحنا نعدّ الساعات والدقائق بانتظار حلول اليوم التالي لمشاهدة إجراء التجربة... وحان موعد الاختبار، فإذا بمعلمنا يأتي (بالبريمس) وهو جهاز صغير مما يحمى عليه الماء، وأشعله، ووضع فوقه إناءً معدنياً مملوءاً بالماء ثم جاء بمحمل حديدي وضع فوقه حلقة ذات رياش معدنية ملتوية، وقبل أن يبدأ التجربة نادى متباهياً على (محمد

علي) الفراش أن يذهب ويستدعي مدير المدرسة (بشير الدليمي)، وجاء الرجل يتمخطر بجسمه الفارع، وسيدارته المرتفعة، وهو سعيد لمشاهدة أحد معلميه يمارس تجربة عملية قبالة أعين التلاميذ، والدعاية ستصب في نهاية الأمر في جيب إدارة المدرسة... وبدأت المهمة: حيث سلط المعلم (عبد الله أفندي) فم الإناء المعدني الذي كان يخرج البخار بغزارة، على الريش المعدنية، ووقف ينتظر تحركها بقوة البخار... ولكنها ـ لسوء الحظ ـ صمدت أمام الاختبار وأصرّت على ألّا تتحرك!!

مرةً ومرتين وثلاثاً وعشراً، وعبد الله أفندي يسعى لجعل البخار يحرك الريش، فلا يستجيب له، فما كان من المدير إلا أن نظر إليه نظرة ذات دلالة بالغة وغادر الصف... ونحن لا زلنا غارقين في غبطتنا البالغة والخبيثة، بفشل معلمنا عبد الله أفندي في تجربته هذه!!

وبشير الدليمي هذا نفسه، هو الذي أصدر يوماً أوامره الصارمة بأن يحلق الطلبة جميعاً شعر رؤوسهم، ولا يتركونها تتهدل على الأطراف... يبدو أنه كان يريد أن يعطي درساً تربوياً بضرورة الالتزام بقيم الرجولة، وحدّد أحد أيام الأسبوع كآخر موعد لتنفيذ المطلوب، وإلا فإن التلاميذ الذين لم يلتزموا سيلقون عقاباً من نوع فريد... أن يقوم المدير بنفسه، وبيده مقص الحلّاقين، بتمرير المقص على وسط الشعر، وترك الطالب عرضة لتندّر المتندرين!! إلا أنني لم أدر لماذا، لم أكترث للأمر، ولم أسارع بالذهاب إلى الحلاق، لعل ذلك يقيناً مني بالصداقة العميقة التي تربط المدير بوالدي... ولعله الكسل... ولعله... والمهم أن المدير دخل علينا في اليوم المحدّد، وأخذ يجزّ شعور الطلبة الذين لم ينفذوا أوامره، وكنت أنا أحد ضحاياه، ولا تدرون كم كانت وضعيتي حرجة، وأنا أجتاز الدروب والأزقة عائداً إلى البيت، ويدي فوق رأسي لتغطية الخندق العميق الذي أحدثه مقص المدير... الصديق الحميم للوالد!!

و(فيصل الأرحيم) ﵀ أعطانا في الخامس الابتدائي درساً لن ننساه... كان قد التحق عام (١٩٥٢م) ضمن وجبة جديدة من المعلمين المتميزين،

للتدريس في مدرستنا (الوطن)، وكلّف بتدريس مادة التاريخ، وكان من عادتنا أننا قبل انتهاء الدرس الرابع والأخير بخمس دقائق أو عشر، نخرج حقائبنا من مجراتها، ونضعها على سطح الرحلة، قبالتنا، استعداداً للانصراف... لم يرتح الرجل لهذا التقليد الذي قد يعكس حالة كراهية ونفور من التدريس، فما كان منه في اليوم الأول لتدريسنا إلّا أن يتقدم إلى ابن أخته (أسامة الأرحيم) من بين سائر التلاميذ، ثم يمسك حقيبته بيده ويرفعها بأعلى ما يستطيع ويرمي بها بعيداً باتجاه اللوحة...

أُخذ (أسامة) بالموقف الغريب، أما نحن فسارعنا في إعادة حقائبنا إلى أماكنها من المجرات قبل أن يصيبها ما أصاب حقيبة (أسامة)، التي أخذ يضرب بها المثل على صرامة معلمنا الجديد... ونزاهته... رحمه اللّه...

و(فيصل الأرحيم)، هو نفسه الذي تولى إخراج مسرحية (وامعتصماه) لكي تعرض في ساحة المدرسة في أحد فعاليات (الخميس)، وكلفني أن أكون أحد الأشراف العشرة الذين يستشيرهم الخليفة المعتصم فيما يجب اتخاذه تجاه غزو الروم... ولقد بذلت جهداً استثنائياً في البحث عن ثوب ملائم وعمامة لائقة، كما كلفت أحد زملائي برسم شواربي بالقلم الأسود... أو الفحم.

كانت المدارس الابتدائية يومذاك تشهد صبيحة كل خميس، جملة من الفعاليات منها: تحية العلم، والأناشيد الوطنية، وتقديم المسرحيات الهادفة... ثم جاء الدور علينا... ولكن... المفاجأة التي لم تكن في حسباني، أن الكراسي التي يجلس عليها الشرفاء لم تكن على عددهم، الأمر الذي جعلني أمارس دوري واقفاً وأنا أكاد أتصبب عرقاً من شدة الخجل...

كان بمعيتنا في الصفوف المتقدمة، الخامس والسادس الابتدائي، شباب كبار، ممن كان منظرهم يدهشنا وهم يأتون إلى المدرسة بالبدلة والرباط والحذاء الأنيق، وصفة الشعر الممشط بعناية وربما كان بعضهم متزوجاً... حيث لم يكن الطرد من المدرسة لمن يرسب أكثر من سنتين قد نفذ بعد... ولهذا كان بعض الطلبة يرسبون السنوات الطوال... ويكبرون... ويتزوجون... وهم بعد

طلبة في المدرسة الابتدائية... وقد يزوجون أولادهم وهم بعد طلبة في المدرسة الابتدائية... فتأمل!!

لا زلت أذكر يوم خرجنا إلى ساحة الطيران لمشاهدة السباق النهائي في كرة القدم، بين فريقَي المعارف ونادي الجزيرة ذي الشهرة الواسعة، وحارس مرماه العملاق (صامو) الذي كان يصعب اختراق هدفه... كان معظم لاعبي فريق المعارف من طلبة مدرسة الوطن الابتدائية: غانم أبو لغد، سالم الأعور، عبد الكريم القطان، عبد الجبار خضير... وغيرهم، وكنا واثقين من هزيمتهم على يد وبأقدام أبطال نادي الجزيرة المعروفين، ولكن ـ ويا للعجب ـ ما أن بدأت اللعبة ونحن نتقلب على أحرّ من الجمر، ودخل أوّل هدف ضد نادي الجزيرة حتى ارتخت مفاصل (صامو) وتملكه الارتباك فإذا به يتلقى هدفاً ثانياً... وثالثاً... ورابعاً... فما كان منه إلّا أن تحوّل إلى حالة من اللا أبالية أو اللا اكتراث، وأصبح يرد على القذائف الموجهة إليه من منتخب المعارف، بأن يقوم بعمل استعراضي، فيتعلق بالعارضة ثم يروح ويجيء عدة مرات في محاولة منه لصد الكرات، وهو في هذه الحالة الغرائبية التي انتهت باكتساح فريقه بستة أهداف مقابل لا شيء... لقد سقط (صامو) ولم يعد له ذكر طيلة ما تبقى له من عمر!!

وثمة جملة من الطلعات خارج المدرسة بمعية معلمينا... كان لها طعم خاص في أفواهنا ووجداننا، لا زلنا نستشعره حتى الآن... أذكر من بينها طلعة تلاميذ المدرسة يوم (عيد الشجرة) في الحادي والعشرين من آذار، حيث كلف كل واحد منا بزرع شتلة في أحد الأحواض المرصوصة على أرصفة المدينة... وكان الحوض الموازي لحديقة المتحف من نصيبي... زرعت الشتلة وأنا في غاية السعادة، وعدت إلى البيت على أجنحة الفرح والغبطة لإنجازي شيئاً ما خدمة لبلدتنا الغالية الموصل... ولكني وكل التلامذة الآخرين، لم ندر أن يد السوء أكثر فاعلية من يد الخير والعطاء، إذ ما لبثنا بعد يوم واحد أو يومين، أن وجدنا كل ما زرعناه قد اقتلعته أيادي الشر والإفساد.

ومن بين تلك الطلعات الجميلة، زيارتنا لعدد من مصانع النسيج والطابوق في الموصل... واصطفافنا على أرصفة شوارع الموصل لمشاهدة مهرجان الاحتفال بتتويج الملك فيصل الثاني، أو المشاركة في مشاهدتنا للمسيرات العسكرية في ذكرى تأسيس الجيش العراقي في السادس من كانون الثاني من كل سنة...

وثمة الرحلات الربيعية... وما أدراكم ما الرحلات الربيعية في الموصل أم الربيعين؟ سواء كانت تلك التي ترتبها العوائل أو تتولاها إدارة المدارس... حيث كان ربيع الموصل يغري الناس كافة بالخروج إلى البراري للتمتع بجمال الطبيعة، واستنشاق الهواء الطلق، واللعب، وتناول الطيبات، والتقاط الصور التذكارية... كانت هنالك تقاليد جماعية أشبه بالطقوس التي ترتبط بكل رحلة... ومن بينها: تناول المخللات، والبيض المسلوق، وأكلات الموصل الشهية، والجرز، والخس، والأغاني والأناشيد المصوغة خصيصاً لهذه الرحلات... وثمة أيام معينة من كل ربيع تحمل تسمياتها الثابتة من مثل: عيد مار كوركيس، وعيد مار ميخائيل، وعيد الطوافة... وغيرها مما كان يعكس الألفة والمحبة والانسجام بين طوائف الموصل كافة... ويجد المرء نفسه مضطراً للمقارنة بين ذلك العصر الذهبي من التعايش السلمي، وبين ما شهده العراق، والموصل، فيما بعد، من تمزق طائفي وحروب أهلية وقتل وتهجير...

أذكر رحلتنا إلى (الجيلة)... وكنا يومها في الصف الرابع الابتدائي... حيث تجمعت الباصات أمام المدرسة وأخذ كل واحد منا مكانه وهو يحمل معه (الزنبيل) المليء بالأطعمة والفواكه والخضار... كنا أنا وأخي وخالي وابن خالتي وابن عمي في مجموعة واحدة، وما أن استقرت بنا الباصات في روابي الجيلة، حتى انطلقنا نركض ونلعب ونتسابق ونلتقط الصور ونحن في غاية الحيوية والنشاط... حتى إذا عضنا الجوع بنابه افترشت كل مجموعة جانباً من العراء وراحت تتناول وجبتها بشهية بالغة، ولكن الذي عكرنا أن ابن خالتنا الذي تناول طعامه مما أتينا به، لم يكلف نفسه، حرصاً وربما بخلاً، في أن

يخرج الدجاجة المحشية التي عملتها لنا أمه، وأن يعود بها سالمة إلى البيت!! ولا زلنا حتى اللحظات الراهنة نتذكر هذا الموقف غير المقبول، والذي يدل على قدر كبير من الأنانية... وزادنا امتعاضاً أن الغيوم الربيعية الكثيفة السوداء ما لبثت أن تجمعت في كبد السماء وأنذرت بمطر غزير، مما دفع معلمينا بأن ينادوا علينا بالتهيؤ للعودة ولم يمض على العصر سوى دقائق معدودات.

وكنا أنا وخالي برهان نعرف كيف نوظف الزمن للمزيد من المتع والمسرّات، فكنا في ليالي الصيف نغادر دار خالي الكبير (يحيى البزاز) رحمه الله في منطقة العكيدات، ونصعّد في الشوارع التي تفصل بين الدار وبين محطة القطار الصاعد إلى بغداد، حيث الهواء الرقيق والأرض المكشوفة التي لم تكن قد ازدحمت بالبنيان، وحيث كان خالي يردّد بعض الأغاني وأنا أنصت إليه بتأثر بالغ... حتى إذا وصلنا المحطة، ذلك البناء الإنكليزي الأنيق، والرصيف الرائع والموازي للسكة التي يقف عليها القطار بانتظار موعد الانطلاق إلى بغداد، في التاسعة من مساء كل يوم، ونحن نمتع أنظارنا بالمسافرين الذين يلوّحون بأيديهم وهم في أقصى حالات السعادة والانسجام.

وكان القطار يومذاك، غاية في النظافة والخدمات التي كان يتولاها مجموعة من الآثوريين، يرأسهم رجل معروف، كنا نسميه (التيتي) لا أدري لماذا، وهو يتجول بين الدرجات الأولى والثانية لتقديم أكواب الشاي بالحليب للطالبين... وكم كنا نتمنى يومها أن نستقل القطار نحن الآخرين لكي نتذوق طعم الرحلة الممتعة إلى بغداد، حيث أتيح لنا ذلك فيما بعد عشرات المرات وربما مئاتها!!

في الخريف يتحول اتجاه الرحلات جنوباً صوب (حمام العليل) حيث كان الموصليون، فقراء وأغنياء، يتجهون إلى هناك لقضاء الأسابيع الطويلة مستأجرين دورهم وعرازيلهم قريباً من الحمام ذات المياه المعدنية الحارة، لكي يمارسوا الاستحمام اليومي الذي يقال أنه يشفي من الكثير من الأمراض، وليقضوا بقية اليوم ما بين الجلوس في دورهم، أو في المقاهي العديدة المنبثة

في شرايين حمام العليل، أو الذهاب إلى البراري الرائعة المليئة بالخضار واللوبيا، والمطلة على نهر دجلة لتناول عشائهم هناك.

كان ذلك من التقاليد الأصيلة للموصليين، ولا زلت أذكر رحلتي الأولى إلى حمام العليل، وكنت يومها في الصف الأوّل الابتدائي، حيث دعي والدي وأعمامي لحضور حفل ختان ابن لأحد معارفهم هناك... تملكتني لحظة اختيار أبي للذهاب معهم فرحة غامرة... وعندما انطلقت السيارات عصراً عبر الطريق الملتوي جنوب الموصل، فيما كانوا يطلقون عليه اسم (الحيّة) بسبب من شبهه بالتواء الأفاعي، تصوّرت أن السيارات تتحرك بالفعل على ظهر أفعى كبير، وتملكني خوف شديد لم أتخلص منه إلا بعد أن استقام لدينا الطريق... وهناك نزلنا في أحد الفنادق المتواضعة لكي نقضي ليلتنا في سطحه... كان الهواء منعشاً والقمر يشع ضوءه على المكان، ورحنا نحن الصغار نتحدث ونمزح حتى أخذتنا سنة من نوم عميق... وفي اليوم التالي حضرنا حفل الختان الذي بدأ بتناول وجبة شهية من الفطور بما يتضمنه من كيك وقيمر وبقلاوة وحاجي بادة ومعكرونة وجرزات، ثم ينتهي بختان الطفل بعد أن يقف على رأسه مجموعة من الشبان وهم يهرجون بصوت عال لكي يغطوا على صرخات الطفل... أما النساء فيرفعن أصواتهن بالهلاهل المتواصلة... ولم يكن لنا نحن الصغار شأن بهذا كله، فكنا نلعب ونتقافز هنا وهناك حتى أذن الوقت بالعودة إلى الموصل، بالقطار العائد من بغداد... حيث يمثل ركوبه بالنسبة لنا معشر الأطفال متعةً بالغة...

بعدها كثرت الرحلات إلى حمام العليل في كل خريف... ننزل حيناً في بيوت أحد أعمامنا المستأجرة هناك، وحيناً آخر في البيت الذي أستأجره أبي... وكان يعجبني أن أغادر البيت فجر كل يوم لمتابعة ما تشهده ساحة المزاد، حيث تتدفق الفاكهة والخضار من المزارع القريبة لكي يتم بيعها بالمزاد، بعد أن يأخذ المنادي حصته الدسمة من كل وجبة منها... ثم يجيء دور النزول مع أبي وأخي وبقية الأقرباء المدعوّين إلى الحمام، حيث قرصة

برد الخريف تمنحنا متعة بالغة ونحن نغمر أجسادنا في حوض الحمام المتدفق الساخن، لكي ما ألبث في كل مرة أن ينتابني الغثيان من شدة الحرّ ورائحة المياه المعدنية وكثافة البخار، فأنتقل إلى مكان الاستراحة، ولا أسترجع وضعي إلا بعد شرب كوب الحامض (المصنوع من نوم البصرة)، ونعود بعدها إلى البيت وقد اعتصرنا الجوع فنتناول وجبة شهية من المعلاق المشوي.

لا زلت أذكر، وكنت يومها في السادس الابتدائي، كيف أغرتني نفسي بالصعود إلى سطح خزان الماء الكبير العالي والذي يغطي حاجة المدينة كلها، وذلك من خلال السلّم الحديدي الضيق الذي أمسكت... به جيداً، حتى إذا ما وصلت إلى حافة السطح تشبثت به، وأفلت قدمي من الدرجة الأخيرة من السلّم، فإذا بي أفاجأ باثنتين: أن سطح الخزان الحديدي ليس مستوياً وإنما هو منحنٍ بشكل مخيف، وأن الريح القوية كانت تهب هناك بعنف ويمكن لها أن تقتلعني وترميني حطاماً... لحظات قاسية من الرعب، وأنا أجد نفسي وحيداً قبالة الموت... ورحت أقرأ ما تيسّر من آيات القرآن الكريم، وأدعو الله ﷻ أن ينقذني من هذه الورطة، ثم أغمضت عيني، وبدأت أتحسس الدرج الأول النازل إلى الأرض، حتى إذا ما لمسته ثبّتُّ عليه قدمي اليمنى وصحت: يا الله... وأخذت أنزل وأنا متشبث بقوة بطرفَي الدرج، حتى إذا ما بلغت الأرض غمرني فرح يصعب وصفه، فرح الذي تنقذه مشيئة الله ﷻ من كماشة الموت...

ومنذ ذلك اليوم، وحتى الآن، وأنا أتقدم باتجاه الخامسة والسبعين من عمري، أصبحت أخشى الأماكن المرتفعة ولا أجرؤ على الصعود إليها خشية أن ينتابني هاجس السقوط... حتى أنني بعد أن أصبحت أقود سيارتي، كنت لا أجرؤ على الصعود بها عبر المنحنيات الجبلية العالية في طريق مصيف صلاح الدين في شمال العراق، فكنت أطلب من أحد أقربائي أن يصعد بالسيارة بدلاً عني...

هناك الرحلات الأبعد في المكان عبر (الألوية: المحافظات)، ولا زلت أذكر الطعم العذب لرحلتنا العائلية الأولى إلى دهوك بدعوة من أحد أصدقاء

أبي الذي يعمل موظفاً هناك... استأجرنا سيارة حشرنا فيها أنفسنا: عائلتنا وعائلة خالي، وانطلقنا صباحاً والفرح الذي يصعب وصفه يغمرنا بفيضه... كان ذلك ــ ربما ــ عام (١٩٤٩م) حيث ما لبثنا أن نزلنا في بيت صديق الوالد المدعو (أبو منيب) رَحِمَهُ اللهُ، ومن هناك كنا ننطلق يومياً إلى إحدى بساتين دهوك الخصبة المحملة بالأثمار: الروبال، أو صندور التي كانت تتميز بكثافة ثمرها، وكنا نحن الصبيان نلعب ونمرح ونتقافز هنا وهناك، ونقطف ما يلذ لنا من الفاكهة لكي نحشرها في بطوننا... ونعود لكي نواصل اللعب العنيف في سطح البيت حيث كنا ننام، فيكون التضارب بالوسائد لعبتنا المفضلة... وفي اليوم الثالث شعرت أمي بأن العائلة التي استضافتنا قد بدأت تمل من وجودنا، وأنها أخذت تحتاط من تصرفاتنا العنيفة قبل أن نهدم البيت على رؤوس أصحابه، فما لبث والدي أن قرر العودة بنا من حيث أتينا.

وثمة رحلة طويلة، أخرى في العام التالي (١٩٥٠م) إلى بغداد العاصمة هذه المرة، حيث كان أبي يسافر بين الحين والحين للتبضع من هناك بما يحتاجه محله الكبير في باب السراي. وقد اختارني لكي اصطحبه وزميله التاجر الآخر (يحيى عبدال) رَحِمَهُ اللهُ، وتنفيذاً للوعد الذي قطعه على نفسه بشراء دراجة لي مكافأة على نجاحي.

وانطلق بنا القطار في التاسعة مساءً، وراح أبي ــ كعادته ــ يوزع النكات، ويكسب الأصدقاء، ويقوم بمقالبه الصغيرة المحببة التي كانت تضحك الجميع وتنسيهم متاعب السفر والسهر القاسي الذي يمتد لأكثر من عشر ساعات. ولدى وصوله بغداد توجهنا بباص مصلحة نقل الركاب ذي اللون الأحمر المعروف إلى أحد فنادق ساحة الأمين المحاذية لشارع الرشيد في جانب الرصافة.

والآن، فإني عندما أقوم بمقارنة بغداد يومذاك، بما هي عليه في بدايات القرن الجديد، أجد الفرق شاسعاً... شاسعاً... في مساحتها... في عدد سكانها... في سهولة خدماتها... في كثرة بساتين النخيل بين دورها... وفي

هوائها النقي المغسول... كانت بغداد يومذاك، مدينة رائعة، تتجول في شوارعها فلا يزحمك أحد... تركب وسائط نقلها فتجدها ميسرة أمامك... مدينة هادئة يسودها الوئام والانسجام والمحبة والتعايش بين الطوائف والأديان... أسوة يومها بمدن العراق كله... حيث كان أبي ـ على سبيل المثال ـ يتبضّع من كبار تجار الشيعة في الشورجة في بغداد فيتلقونه بالأحضان... وحيث كان يجاوره في محله بالموصل تاجر مسيحي يدعى (يوسف حنا بحّو)، وكانت تربط بين الجارين علاقة مودة وانسجام، ووجبات طعام، ورحلات ربيعية مشتركة، وقبالة محله تماماً كان يقبع محل رجل يهودي يدعى (أبو يونها)، كان كثيراً ما يتردد على محل والدي لتبادل الأحاديث...

وكان طبيب عائلتنا وصديق الوالد الدكتور المسيحي (يوسف سرسم)... أما التجار الكرد والآشوريون الذين يتدفقون على محل أبي باستمرار، قادمين من دهوك وأربيل، فكانوا هم الأكثر عدداً من بين كل المتبضعين من سوق والدي، وكانت تربطه بهم علاقات حميمة من المودة والمحبة والانسجام، وبعضهم كان يزورنا في البيت ويقضي معنا الساعات الطوال، وهم يحملون معهم دائماً الهدية المفضلة (لبن أربيل) الموضوع في قدر كبير مغطى بالخام والحشيش.

وعندما أقارن بين الوضع في بغداد يومذاك، وما هو عليه اليوم من تمزق طائفي... وعندما ألقي نظرة على ما شهدته الموصل يومذاك وما ذاقت ويلاته بعد الاحتلال... أقول في نفسي: إنها تعاليم هذا الدين الذي جعلنا نتعايش بعفوية وانسجام مع كل الطوائف، قبل أن يدس الاستعمار أنفه، ويفرّق بين أبناء الشعب الواحد... ولقد كانت الموصل بالذات أشبه بخارطة فسيفسائية تنطوي على كل الألوان العرقية والطائفية، التي كنا نمرّ بها صباح مساء ونحن ذاهبون إلى المدرسة أو السوق أو عائدون منهما: المسلم والمسيحي... العربي والكردي والتركماني والشبكي والإيزيدي... السني والشيعي... اليهودي والصابئي (وكنا نرى هؤلاء وهم يعملون في دكاكينهم بمهنة صياغة المواد الفضية)، والمسيحيون

أنفسهم كانوا يتواجدون بطوائفهم كافة: الكاثوليك والأرثذوكس والبروتستانت والأرمن والسريان والآراميين والآشوريين... وطالما برز من الأرمن والآشوريين رياضيون كبار غزوا الساحات ببطولاتهم في كرة السلة والقدم وألعاب الساحة والميدان.

بغداد عام (١٩٥٠م) كانت مدينة رائعة... تجولنا في شوارعها ومتنزهاتها ومطاعمها الأنيقة واجتزنا أسواقها، التي لا زلت أذكر كيف أننا كلما دخلنا سوقاً نادى أصحابه على قناني البيبسي والكوكا كولا، وكانت حديثة عهد في دخول العراق، ذات غاز مكثف يتكسر في الحلق ويمنح المشروب لذة بالغة، ولا أدري لحدّ الآن مدى صحة ما قاله لنا مدير مدرستنا الابتدائية (بشير الدليمي) عبر اجتماع حاشد في المدرسة، بأن في هذين المشروبين شيء من معدة الخنزير وأن علينا أن نتجاوز شربهما، ولكن المؤشرات تدل على مصدر الخطر باتجاه آخر: إن مالكي هاتين الشركتين هم من يهود أمريكا ورأسمالييها الكبار، وأن علينا إذا أردنا اتخاذ الموقف السليم، مقاطعتهما...

بعد بضعة أيام من البقاء في بغداد، عدنا بعد أن حصلت على جملة من اللعب وعلى الدراجة الهوائية التي وعدني بها أبي، لكي ما نلبث بعد سنتين (١٩٥٢م) أن نقوم برحلة طويلة أخرى بمعية الوالد والجدة، اجتزنا فيها أربيل، حيث قضينا هناك بضع ساعات، ثم ركبنا القطار الذي اخترق كركوك في طريقنا إلى جلولاء، حيث كان زوج خالتي المقدم (حسين الزرقي) في استقبالنا لكي يأخذنا إلى داره هناك.

قضينا في جلولاء، أياماً طيبة، وكنا نقضي أمسياتنا في النادي العسكري حتى ساعة متأخرة من الليل... ثم ما لبثنا أن ركبنا القطار، بعد أن تركنا جدتي عند ابنتها، واتجهنا إلى بغداد لكي نحلّ ضيوفاً على بيت عمي (الحاج أحمد)، القريب من جسر الصرافية لعدة أيام...

وفي العالم التالي (١٩٥٣م) أعدنا الكرة، هذه المرة، نحن مجموعة كبيرة

من آل الحاج عمر الطالب في زيارة أخرى إلى بغداد ضمت والدي وأخي الأكبر واثنين من أبناء عمي (الحاج محمد)، حيث قضينا في دار العم الحاج أحمد، الذي كان قد تحوّل قليلاً إلى شمال جسر الصرافية، بضعة أيام...

كان يوم ختاننا في خريف (١٩٤٩م) يوماً مشهوداً، حيث أعلن في إحدى الصحف الموصلية عن أن ولدي خليل الحاج عمر: مظفر وعماد وخالهما برهان البزاز سيختنون في اليوم المحدد، وفي دار الخال يحيى البزاز في منطقة العكيدات على الطريق الصاعد إلى محطة القطار.. وبدأ المدعوون صباح ذلك اليوم يتدفقون على الدار لتناول الفطور الدسم من القيمر والكيك والبقلاوة والحاج بادة ومنّ السماء والجرزات والشاي، قبل عملية بدء الختان وتنفيذاً للتقليد السائد في الموصل لدى كل ختان... كنا نحن الصبيان نركض في الشوارع والأزقة المحيطة بالدار، ولا ندري ماذا يراد بنا، دون أن نكترث لطعام أو شراب...

لكننا عندما أزفت ساعة الحسم، رأينا بأم أعيننا (المطهرجي) وهو الرجل المكلف بعملية الختان، يحمل حقيبته السوداء المقوسة، ويصعد الدرج إلى الرواق العلوي حيث فرشت الأرض، وأمسك والدي بطرف قطعة من القماش التي ستغطى علينا، بينما أمسك خالي الأكبر بالطرف الآخر، ووضع خالي (برهان) وهو يصرخ من الخوف، ويحاول أن يتخلص دون جدوى، وراء الستارة، وبدأ رجل الختان عمله، واختلطت أصوات الصراخ والبكاء التي أطلقها خالي (برهان) بأصوات المدعوين وهم يرددون بصوت عالٍ عبارة (وردة حاق ساق ناصي... هي)، ويبدو أنها عبارة ذات أصل تركي تتضمن معنى ما لم ندركه حتى الآن... وأنا وأخي مظفر نرتجف خوفاً ورعباً. ثم ما لبث (برهان) أن أخرج من وراء الستارة محمولاً على الأكتاف، لكي يوضع على سريره في الغرفة المجاورة، وجاء الدور على أخي، وتكرر المشهد... وأنا الذي يفترض أن تبدأ العملية بي تجاوزاً لتعذيبي، باعتباري الأصغر عمراً، كنت آخر المعذبين،

ورحت أبكي وأصرخ وأرفس بيدي وقدمي كي لا أوضع تحت سكين (المطهرجي)، ولكن عبثاً... وأخيراً وضعنا نحن الثلاثة كلٌّ في سريره الخاص، وبدأنا نتلقى هدايا المعارف والأقرباء من التفاح الشامي والفستق الأخضر، وعلب السكاكر الإنكليزية الرائعة التي كادت تنسينا متاعبنا تلك التي استمرت ثلاثة أيام، كان رجل الختان يأتينا خلالها لاستبدال الضمادات، ثم ما لبثنا أن تماثلنا للشفاء.

ثمة واحدة من أجمل سنوات الطفولة لا بدّ من الوقوف عندها قليلاً... تلك السنة التي غادرنا فيها دارنا في جامع خزام وأستأجرنا داراً مجاورة لدار (زهدي النقيب)، قريباً من دورة الشفاء، حيث كانت هي الدار الأخيرة في شمال الموصل، وبعدها مباشرة تمتد الأراضي الشاسعة ومبنى المستشفى الملكي ذو اللون الأحمر، بحدائقه الرائعة، وخدماته المتميزة، ونظافته وهدوئه... وإلى الجنوب قليلاً تقوم (باشطابيا)، القلعة الموصلية العريقة التي تصدّت للصليبيين والمغول معاً، وإلى جوارها يقوم مرقد أبي القاسم ذي النقوش المدهشة على المرمر، فيما يعد واحداً من أغنى الأبنية التراثية في العالم.

وكان فصل الربيع يحيل المنطقة إلى جنة خضراء، تتفجر في جنباتها أزهار النفل ذات الألوان البهيجة والروائح العطرة، وعلى أطرافها تطل شقائق النعمان بلونها الأحمر الفاقع، والصفوّ صفير الذي طالما نافس سيقان الحنطة، وأطل برأسه على الفضاء الكبير.

انتقلنا إلى هذه الدار، المبنية حديثاً، والتي يملكها أحد أنسباء والدتي (زهدي النقيب) رَحِمَهُ اللهُ في خريف عام (١٩٥٠م)... كانت ذات حديقة واسعة تحيط بها من جهاتها الأربع، مترعة بأنواع الزهور الخريفية ذات الألوان الهادئة والعطر الخفيف، وكنا نمارس فيها اللعب، والجلوس، وقراءة القصص والروايات... وعندما حلّ الشتاء، وبدأ المطر يتساقط بغزارة أوينا إلى غرفة

الجلوس، حيث كانت الوالدة تقص علينا من ذاكرتها أجمل القصص وأشدها تشويقاً، فضلاً عما كانت تقرأه لنا مما كنت أستعيره من مكتبة المدرسة.

وعندما يطل موسم الربيع تتحول حديقة البيت، وكل البراري المحيطة به، إلى ساحة لعروض الخضرة الفاقعة والأزهار الملونة: الشبّو والقرنفل والعطر والبانسي وعرف الديك وأشجار الورد... أما في الصيف فقد اخترت لي زاوية من الحديقة الشمالية، محاطة بورود النازناز الرائعة ذات الألوان، وفي وسطها دائرة يكسوها الثيل ويحيط بها الحصى الملون، حيث كنت أقضي الساعات الطوال هناك، قارئاً، متأملاً، مسترخياً... ومتناولاً بعض وجبات الطعام الخفيف... وكنت أدعو للعب معي هناك اثنين من أبناء جيلي هما (عبد الإله الحاج يعقوب الخياط) رَحِمَهُ الله وأخوه (عبد المنعم) اللذان كانت دارهما قبالة دارنا، وحيث كنا نقضي الساعات الطوال في هذه الجنينة الجميلة، أو في التجوال عبر البراري المحيطة بالدار، وصولاً إلى نهر دجلة المتدفق بغزارة في موسم الربيع... وكنا أحياناً نقترب من مسجد أبي القاسم حيث كنا نسمع من داخله، وبأصوات لا نكاد نتبينها، فيما كان يقوله لي (عبد الإله): أن عالم الموصل الجليل حبيب أفندي العبيدي رَحِمَهُ الله، الذي كان والده (الحاج يعقوب الخياط) يحرص على حضور مجلسه عصر كل يوم، يتحدث فيه... وكنا في كثير من الأحيان وحيثما تجمع بمعيتنا عدد من الأصدقاء، نمارس لعب كرة القدم في العراء المجاور للدار.

إنها والحق يقال واحدة من اللوحات الجميلة التي انطبعت في ذاكرتي ووجداني من أيام الطفولة... حيث ما لبثنا، بعد انقضاء العام، أن قفلنا عائدين إلى دارنا الصغيرة الأنيقة في محلة جامع خزام.

وثمة لوحة أخرى لا تقل روعة... تلك هي حياتنا أنا وأخي وخالي مع نهر دجلة الذي يتدفق رخاء عند حافات الموصل، حيث كانت تقام هناك الجرادغ وأسواق بيع الرقي والبطيخ والخيار فيما يسمى (بالكب)... كنا نعبر الجسر الحديدي، الوحيد

الذي يربط بين ضفتي المدينة، عصر كل يوم، لكي نذهب إلى الجانب الآخر، فنغطس في مياه النهر الباردة الساعات الطوال، حتى إذا عضنا الجوع بنابه غادرنا النهر إلى (الكب) فاشترينا شيئاً من الرقي والبطيخ، ورحنا نتناوله بشهية بالغة، لكي ما نلبث أن نغطس في الماء مرةً أخرى... وقد يستمر بنا المقام هناك إلى ساعة متأخرة من الليل، حيث يرى الناس وهم يعبرون الجسر، زرافات ووحداناً، عائدين إلى دورهم... لقد كان تقليداً يومياً رائعاً لا يمكن أن ينسى...

وكنا، أنا وأخي وخالي، نجتاز شوارع الموصل الجنوبية المحاذية (للسيب) (وهو قسطل كبير لسحب المياه يمتد لمسافات طويلة لتخليص المنطقة من مياه الفيضانات الربيعية الغزيرة)، حيث تتحول الشوارع إلى أنهار، ونقطع المسافات الطوال ونحن نخوض في الماء... وكنا في أخريات الربيع ننحدر إلى أقصى جنوب المدينة فيما وراء معمل الدباغة، حيث تصطف أشجار التوت، وتتساقط منها على الأرض كميات كبيرة، كنا نلتهمها التهاماً حتى نكاد نحس بالغثيان فنتوقف عن الأكل ونقفل عائدين مما كنا نطلق عليه (أرض التوت).

وفي إحدى المرات توجهت أنا وابن عمي (إنعام الطالب) باتجاه أراضي الخس الواسعة على الطريق إلى أرض التوت، وحدثتنا أنفسنا بأن نغافل حارس البستان ونقتلع رأسي خس لغرض التهامهما، فما كان منه إلا أن يلحظنا ونحن ننحني لاقتلاع الخس، فيهرع إلينا صائحاً متوعداً، ويلقي القبض علي، بينما يهرب ابن عمي الذي طلبت منه أن يصل بأسرع ما يستطيع إلى أقرب شارع ويطلب نجدة المارة من هناك... أما أنا فقد ساقني الحارس إلى جذع شجرة قريب وراح يتوعدني بربطي به عقاباً على محاولتي، ولكن ما لبث ابن عمي بعد دقائق معدودات أن جاء بالنجدة، التي راح أصحابها يقنعون الحارس بأنها كانت مجرد غلطة ولن يعودوا لمثلها، فما لبث أن أطلق سراحي... وكان هذا درساً قاسياً لي ألّا نعود للسرقة مرةً أخرى!!

في هذا السياق أذكر أنني عبر رحلة عائلية رائعة إلى حديقة الجانب

الأيسر للمدينة، أغراني (قرنطراش) (وهو الموس الصغير ذو الغلاف الخشبي الملوّن مما يوضع في الجيب ويقشّر به الخضار) إحدى العوائل التي شاركتنا تلك الرحلة، فدسسته في جيبي، وعدت به فرحاً سعيداً إلى البيت، وأنا بين لحظة وأخرى، أمدّ يدي إلى جيبي لكي أتحسّس وجوده... ولكني ما أن وصلت الدار حتى تملكني ندم عميق وإحساس هائل بالتأثم، وأنني قد اقترفت خطأ كبيراً بسرقة أحد موجودات الأقرباء... فما كان مني في رحلة الأسبوع التالي بمعية العائلة نفسها إلّا أن أتسلل إلى موجوداتهم وأدسّ على حين غفلة (الموس) فيها ثم أنسحب بهدوء وأنا أحس بسعادة غامرة... سعادة من يتخفف من عبء ثقيل كان يجثم على كتفيه.

كنا بسبب الحرية التي أتاحها لنا الوالد ﵀ نحشر أنفسنا في كل ما نصادفه، حتى لأذكر أنني وأخي وخالي فوجئنا يوماً بجنازة عامل دوندرمة، ذهب ضحية سقوط سقف المحل عليه، وهو بعد شاب لم يتزوج، وكان تقليد الموصليين، أن حالات كهذه يمارس تشييعها وسط نقر الدفوف وإطلاق الأهازيج، فما كان منا، مشاركة في الحزن على شاب طالما تناولنا عنده أكلتنا المفضلة، إلا أن نندمج في التشييع ونذهب إلى المقبرة القريبة في باب الطوب حيث دفن الشاب هناك، ثم ما لبثنا أن قفلنا عائدين وقد انتفخت عيوننا من كثرة البكاء.

وكان اللعب، بمختلف صنوفه، يمثل حلقة أخرى رائعة في زمن طفولتنا... وسواء كنا نشاهد الآخرين وهم يمارسون اللعب، أو أن نلعب نحن بأنفسنا، فالأمر سواء... متعة بالغة لا تضاهيها أية متعة أخرى... كنا أيام السباقات المدرسية النهائية لكرة السلة أو الطائرة، أو القدم نهرع إلى الساحات العامة لمشاهدة اللعبة وتشجيع مدرستنا بحماس منقطع النظير... وكنا نرجع في باص واحد مع فريقنا الفائز ونحن نتهلل طرباً وهتافاً...

أما في شهر نيسان من كل سنة، حيث يقام في ساحة الطيران

الاستعراض النهائي في ألعاب الساحة والميدان، للمدارس أو للجيش، فكنا نتدفق إلى الساحة لكي نحجز لنا موقعاً يتيح لنا الاطلاع على ما يجري في الساحة عن كثب... وكان (شفيق الجليلي) رحمه الله الذي كنا نسميه (ملاك الموت) يركض بعصاه بجوار الخطوط المعلمة بالجص ويضرب بعنف كل من تحدثه نفسه بتجاوزها... فكنا عندما نراه يقترب يتملكنا الذعر ونضطر للانسحاب ريثما يبتعد قليلاً... كانت تلك المناسبات مهرجاناً رائعاً يقضي معه الموصليون أجمل الأوقات من كل سنة، حيث كان ينتشر في الأماكن المجاورة للساحة باعة المخللات والعرقسوس والخس والجرز... وغيرها مما اشتهر تناوله في الموصل.

ولكننا لم نكتف بالمشاهدة، بل كنا نحن أيضاً نمارس فنوناً من اللعب والتي نحس ونحن نمارسها بسعادة بالغة: لعبة الهوكي، كرة القدم، الكرة الطائرة، كرة السلة، كرة المنضدة، الريشة، العاب الساحة والميدان... ثم الألعاب الشعبية الموصلية السائدة في الأزقة والمحلات والدور، من مثل (الحاح والكطا، وهبابة الهبابة، والحرامية والبوليس، وجط ونام، والمصاريع، والكعاب، وفتح السيفون، ولعبة التبيل) (وهي الكرات الزجاجية الملونة، بمختلف تسمياتها). وكانت أجمل لعبنا هي إطلاق الطائرات الورقية في الفضاء البعيد، ثم نتبعها بتعليق الفوانيس الملونة على الخيط نفسه الذي ربطت به الطائرة، لكي ما تلبث أن تصعد هي الأخرى إلى الأعلى وتشكل منظر جميلاً رائعاً يملؤنا سعادة وغبطة، ونحن نرى طائرتنا الورقية بفوانيسها الملونة تحلق في أعماق السماء!!

وكان يرتبط بذلك كله عشقنا للمقتنيات وما يسمى أحياناً بالهوايات، (من مثل تجميع أغلفة الشيكولاتة والسكاكر، وعلب السيكاير، والكرات الزجاجية، والدمالج المكسرة ذات الألوان الرائعة، وعلب الشخاط، وصور النقود التي كانت توضع داخل علب السيكاير، وصور الأشخاص، والإعلانات السينمائية... الخ)،

حيث كنا نبذل من أجل تجميعها جهوداً صعبة، وأحياناً كنا نشتريها بالمال... وعندما نجلس قبالتها لتقليبها أو اللعب بها، كنا نحس بسعادة لا تعدلها سعادة... وللأسف الشديد، فإنني في لحظة نزق، عقب إنهاء دراستي الإعدادية، قمت بالتخلص منها جميعاً... ولا زلت أحس بندم عميق تجاه فعلتي تلك!!

الفصل الثاني

١٩٥٣ ـ ١٩٥٨م

في خريف عام (١٩٥٣م)، حيث كنت قد اجتزت امتحان البكالوريا بنجاح، تحوّلت إلى متوسطة المثنى التي تقيم في زقاق عريض متفرع عن شارع العدالة، وتطل على نهر دجلة الذي يبعد عنها خطوات... لكي أقضي هناك سنوات ثلاث هي من أعذب سنوات العمر وأشدها سعادة وانسجاماً... كان طلاب الصف الذي انتميت إليه متآلفين إلى حدّ كبير، رغم أنهم جاؤوا من بيئات وطبقات مختلفة، بعضها يملك الكثير وبعضها الآخر لا يكاد يجد شروى نقير... وكان فيها المسلم والمسيحي المحلي والآشوري والأرمني، المدني والقروي... ولكن هذه الفوارق لم تؤثر البتة على صفاء العلاقة بين التلاميذ، وقيامهم بالاشتراك بجملة من المفارقات والاستفزازات للمدرّسين الذين كانوا يعجزون عن إدارة الصف، قبالة مجموعة متميزة من المدرسين الذين كان كل منهم يملك شخصية آسرة وثقافة واسعة، كعبد الرحمن صالح ﵀ الذي بدأ حياته الوظيفية ضابطاً في الجيش العثماني، فيما جعله يحتفظ بولائه للدولة العثمانية، وبذاكرة مترعة بالوقائع والأحداث من تاريخها المعاصر... كان يدرّسنا مادة (التاريخ القديم) وكان يشد اهتمامنا بطريقة عرضه، وأسلوبه في التدريس... وكان هناك إلى جانبه مدرّس الجغرافيا محيي الدين العشائري، وهو أحد أقرباء والدي ﵀... وغانم مطلوب مدرّس العلوم... ومهدي السامرائي مدرّس العربية، وإدريس التلعفري مدرس الإنكليزية، ونجيب لازار ذو الشخصية المتفردة في قدراتها العلمية، والفنية، وفي غرائب أطوارها التي انتهت به إلى مستشفى المجانين في بغداد وحيث توفي هناك... وأحمد

الصوفي مدرّس الدين ذو التكوين العصبي والعصا الغليظة... وعوني سليم مدرّس الرياضة، وهو ابن عم والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعبد العظيم المصري المنتدب من بلده للتدريس في العراق، والذي كان من ذوي الاعتناء بكمال الأجسام، حيث كان يملك جسداً مؤهلاً لذلك، ولم يكن ممن يملكون القدرة على ضبط الصف، وخصوصاً في أوقات الامتحانات حيث يسود الغش... بل إنه في إحدى المرات طلب من التلاميذ صراحة أن يخرج كل واحد منهم الكتاب المقرر ويأخذ منه الجواب المطلوب!! لكنه ما لبث أن توفي فجأة بالسكتة القلبية، وخرجنا عصر يوم حزين لتشييعه إلى مطار الموصل حيث نقل جثمانه بالطائرة إلى بغداد ومنها إلى بلده مصر.

هذا هو الكادر التدريسي الذي تولى تعليمنا في الصف الأوّل المتوسط، حيث تعاملنا معهم وفق قدرتهم على ضبط الصف، والمادة العلمية التي كانوا يقدمونها لنا... ولا زلت أذكر ما كان الطلاب يفعلونه مع (نجيب لازار) مستغلين شروده، من مثل الإتيان بالضفادع ورميها في ممرات الصف وهم يضحكون ويتصايحون، وتعليق النبات الشوكي المتسلّق في خلفية الأستاذ، فيما يشبه الذيل، والأستاذ غافل عن هذا الذي علّق في ظهره... ومن مثل رسم صورته على اللوحة فيما يجعله ينظر إليها بطرف خفي ويحس بالإحراج الشديد... ومن مثل وضع قطعة من القماش المبلل بالماء في خزان المدفأة الخشبية، التي سرعان ما تروح تنفث كميات هائلة من الدخان الذي يملأ الصف ولا يسمح باستمرار التدريس... الخ فيما أخطر إدارة المتوسطة إلى طلب نقله إلى زاخو في أقصى الشمال، حيث تدهور وضعه النفسي فانتهى به الأمر إلى مستشفى المجانين في بغداد.

أنا شخصياً لم أعتد الغش في حياتي الدراسية على امتدادها، بل إنني كنت أستهجن أولئك التلاميذ الذين اعتادوا الغش، ولكن الضرورات تبيح المحظورات كما يقول المثل، ولشدة ضغط مادة الهندسة، على جملتي العصبية، قررت يوماً أن أنتهز فرصة غفلة نجيب لازار، عن مراقبتي فأخرجت الكتاب

المقرر ورحت أنقل منه بطريقة مباشرة ومكشوفة لا تدلّ على أي قدر من الخبرة بالغش، وإذا بي أجدني وأنا بين يدي (نجيب لازار)، الذي كان يقف على رأسي وهو يحدّق في الكتاب الذي أنقل منه... فما كان مني بردّ فعل خائف إلّا أن أبتسم في وجهه وإذا به يبتسم في وجهي هو الآخر، ثم ما لبث أن تركني ومضى لمراقبة بقية التلاميذ... فقلت في نفسي: أبشر يا عماد، فقد اجتزت المشكلة، ولكني ما لبثت أن فوجئت بعد أيام، و(نجيب لازار) يعلن من دفتر جيبه الخاص نتائج الامتحان بحصولي على درجة (١٨) من مائة... إذن لقد أسرّها (لازار) في نفسه، ولم يبدها إلا لحظة التصحيح، فيما أستحقه بحق وحقيق... وتلك كانت المحاولة الأولى والأخيرة في حياتي الدراسية التي مارست فيها الغش!!

أذكر أيضاً تجربة (غانم مطلوب) مدرّس العلوم في (كرة كوتنبرغ)، حيث دعانا يوماً لمغادرة الصف، والذهاب إلى مختبر العلوم المجاور للاطلاع على تجربة في ضغط الهواء... ذهبنا إلى هناك تحملنا أجنحة الفرح والغبطة لأننا سنكسر بذلك الروتين اليومي لدرس العلوم... وما أن أخذ كل واحد منا مكانه في المختبر، حتى تعلّقت عيوننا باتجاه المنضدة التي وضع عليها المدرّس كرة معدنية، وراح يشرح كيف أنها وهي مليئة بالهواء يسهل فكها بسبب الضغط المتوازن للهواء في الداخل والخارج... ولكننا إذا أفرغناها من الهواء أصبح أمر فكها في غاية الصعوبة بسبب الضغط الخارجي عليها... تلك هي نظرية (كوتنبرغ)، ثم ما لبث أن نادى على أحد التلاميذ وسلّمه الكرة التي أفرغها من الهواء، وطلب منه محاولة فكها ليرينا صعوبة ذلك... لكن الطالب ما أن تناول الكرة، وأعمل يده في فكها حتى استجابت له بسهولة بالغة، فما كان منا إلا أن نغرق في ضحك متواصل، والمدرّس يجيل أبصاره فينا دون أن ينبس بكلمة واحدة... لقد ثأرنا منه... هكذا قال كل واحد منا مع نفسه، وغادرنا المختبر بمنتهى الحيوية والنشاط، فيما ذكرني بتجربة (عبد الله أفندي عبيد آغا) الفاشلة هي الأخرى مع اختبار قوة البخار!!

وأذكر أن (العشائري) الذي كان على صلة قربى مع والدي رحمه الله ويتردد على محله بين الحين والحين، كان يعمل عكس المطلوب كلما توسط والدي لديه... ونادراً ما كنا نلجأ إلى الوساطات، ولعل تلك المحاولات مع العشائري هي الوحيدة في حياتي الدراسية على امتدادها... فلم تكن معدلاتي في مادة الجغرافيا تتجاوز الخمسينيات حتى لو كان جوابي كاملاً... فسبحان الله...

كان يجلس إلى جواري في الصف ابن عمي شمس الدين... ويوماً دخل علينا مدرّس الدين، الذي يتميز بعصبيته وقسوته (أحمد الصوفي) رحمه الله، وبيده دفتر الدرجات لكي يطلب من كل تلميذ قراءة ما كلّف بحفظه من كتاب الله... وحدث أن تغيّب الطالب الذي يجلس أمام (شمس الدين)، فلما جاءه الدور كان عليه أن يقرأ ما تيسر من حفظ زميله الغائب، فارتبك، واصفرّ وجهه خوفاً من عقاب (الصوفي) الذي ما لبث أن صاح به، ما اسمك؟ أجاب مرتعشاً: (شمس الدين)... ومن هو أبوك؟ أجاب: (الحاج محمد)، فقال الصوفي بعصبية: اقرأ سورة الفاتحة... فتلعثم شمس الدين ولم يعد يعرف كيف يقرأها، فما كان من الصوفي إلا أن صبّ عليه جام غضبه وهو يقول: ابن الحاج محمد!. أي أنك من رجل مسلم ولا تعرف كيف تقرأ سورة الفاتحة؟ وما لبث أن وضع أمام اسمه صفراً وهو يقول بأعلى صوته: اجلس... يا...

وكنا نأتي إلى المدرسة وفي جيوبنا صنفان من العدسات: لامّة ومفرّقة، وفي الفرص كنا ندعو زميل لنا يدعى (موفق) أن يبسط ظهر كفيه قبالتنا، لكي يقف اثنان منا مسلطين العدسات اللامة على يديه... فإن استطاع أن يتحمل بؤرة الشمس ولم يصرخ كان هو الفائز، وإن لم يتحمل ويصرخ من الألم كنا نحن الفائزين... وكان هذا المشهد يتكرر في معظم الفرص!!

كان مهدي السامرائي مدرساً للغة العربية، وراجت بيننا شائعات عنه بأنه ينتمي للحزب الشيوعي، وأنه بدأ حياته العملية نائب ضابط في الجيش، فعندما اكتُشفت ميوله، طرد من الجيش وتحوّل للعمل التدريسي... كان فظاً قاسياً، وطالما تلقيت منه، بسبب مشاكساتي، أشد أنواع الضرب.

عندما انتقلنا إلى الصفين الثاني والثالث، تولى أمر تدريسنا مجموعة أخرى من المدرسين لا زلت أذكر منهم: عبد المسيح (المصري) مدرّس الإنكليزية، وإدريس عبد القادر خطاب مدرّس الكيمياء، وسالم الدباغ ومحمد سمير التكريتي مدرسا العربية، وفخري الحاج أحمد مدرّس التاريخ، وسالم الملقب بالأصفر مدرّس الرياضيات، وعطية (المصري) مدرّس العربية، وزكي الحاج داود مدرّس الإنكليزية، وعبد الرحمن صالح مدرس التاريخ، ومحيي الدين العشائري مدرس الجغرافيا، وعبد الرحمن مدرس الصحة، وشاكر محمود مدرس الرياضة، ومحسن الحبيطي مدرس الرسم، ورمّو أفندي مدرس الفيزياء، وتوفيق الدباغ مدرس الواجبات الوطنية...

ولا زلت أذكر يوم زارنا مفتش العربية العام (محمد بهجت الأثري)، وكان (سالم الدباغ) يلقي علينا درساً في العربية، فتوقف عن الكلام مرحباً بالمفتش الذي ما لبث بعد أن أعطى توجيهاته بخصوص طرائق تدريس العربية؛ أن سلط جام غضبه على عميد الأدب العربي (طه حسين) الذي كان سالم الدباغ يحبه حباً جماً، ولكنه لم يستطع أن ينبس ببنت شفة خوفاً من العقاب، فما أن غادر (الأثري) الصف حتى راح (سالم الدباغ) يشن حملة قاسية عليه، ويدافع باستماتة عن (طه حسين) ودوره الكبير في حركة الأدب العربي المعاصر.

كان (سالم الدباغ) أديباً ذا إحساس فائق باتجاه التعامل مع اللغة، وكان مدرساً ناجحاً بمعنى الكلمة، ولكنه ما لبث أن ضيّع نفسه باندفاعه وراء الشيوعيين، يوم تمت لهم السيطرة على مقدرات الموصل في ربيع عام (١٩٥٩م) وفي أعقاب ثورة الشواف، وحصل على إدارة إحدى المدارس، ثم انقطعت أخباره بعد ذلك لكي نفاجأ ــ بعد سنوات ــ بنبأ وفاته.

ومن عجب أنني كنت أجتاز معظم المواد الدراسية بنجاح، وربما بدرجات عالية، ولكن هاجسي هو الخوف من الرسوب في درس ثانوي هو الرسم، لولا أن الله سلّم... رغم أنني بدأت حياتي بالتعامل مع اللون للتعبير عما يجول في

نفسي، ولكني لم أصل إلى نتيجة، وكان هذا مما دفعني إلى التعبير بالكلمة عما كنت أعانيه أو أريد قوله...

كنا في كل سنة من سنوات دراستنا المتوسطة الثلاث نخرج في الربيع في رحلة مدرسية إلى أطراف الموصل: بعشيقة، أو منذان، وكانت تلك تمثل أقصى درجات الفرح والسعادة، حيث كنا نتفق كمجموعات متآلفة، ويحمل كل منا زنبيلاً من المواد الغذائية والمشروبات الغازية، ونختار موقعاً ملائماً للجلوس فيه، ثم نبدأ باللعب والمسابقات والتقاط التصاوير، حتى إذا ما شعرنا بالجوع، انقضضنا على الطعام بشهية بالغة... ولا زلت لحدّ الآن أحتفظ بمجموعة التصاوير التذكارية التي التقطناها عبر رحلاتنا تلك.

وكان عشقنا الآخر للرياضة قد جمعنا بفريق متوسطتنا لكرة السلة، والذي كان يتميز بتفوقه الملحوظ، وعروضه المدهشة، وبما يضمه من لاعبين كبار كمسعود شريف وغانم ايرم وزهير كساب وعبد الكريم القطان وحازم... بحيث أننا عندما ذهبنا إلى ساحة الثانوية الشرقية لمشاهدة اللعبة النهائية على الكأس بين فريق متوسطتنا وفريق المتوسطة الغربية؛ كنا واثقين من فوز فريقنا... لكن النهاية جاءت على غير ما نتوقع فعدنا إلى دورنا ينتابنا حزن عميق...

كان عشقنا اليومي هو التجوال على السدة المطلة على نهر دجلة من جانبه الغربي، والتي تبدأ قريباً من الثكنة الحجرية جنوبي الموصل، وتمتد لمسافات طويلة بموازاة النهر، ثم ما تلبث أن تنحرف يميناً باتجاه المدينة لحمايتها من الفيضان، تاركة لدى انعطافها فسحة رائعة من الأرض الملأى بالأشجار والخضار، حيث يكون التعب قد أنهكنا فما نلبث أن نجلس تحت ظلال إحدى الأشجار نتبادل اللعب والأحاديث. ولا زلت أذكر كيف أن بداية الطريق إلى السدة كانت أرضاً مكشوفة حفر في وسطها بئر عميق، كنا نسميه (الديلي) والذي يدور في أطرافه ناعور يجره الحصان، فيتدفق الماء من الأواني المتحلقة على دائرة الناعور لكي ما يلبث أن يغطي البستان بالماء. ثم ما لبث هذا البئر أن ردم للأسف الشديد، أسوة بما تم من ضياع العديد من

معطيات الموصل التراثية، عبر الصراع الأبدي الدائم بين القديم والجديد... بين التراث والمعاصرة... أما السدة فاستمرت على وضعها ولا تزال، اللهم إلا الجانب الغربي منها، حيث قسمت الأرض وتحولت من مزارع وبساتين مترعة بالخضرة والجمال إلى دور ودكاكين... وظللنا نحن نمارس التخطي اليومي على هذه السدة السنوات الطوال.

في عام (١٩٥٤م) ولدت أختي الثانية: (ندى)... عدت من المتوسطة، بعد سماعي نبأ ولادتها، على أجنحة الشوق، وأسرعت بالتوجه إلى حيث وضعت على السرير الصغير بجوار والدتي، فإذا بي أجدني قبالة ملاك أبيض جميل ذي عينين خضراوين، فوقفت قبالتها مبهوتاً بذلك الجمال، حيث لم يكن قد مضى على ولادتها سوى ساعات قلائل... ولقد جاءت ولادتها تعويضاً إلهياً لأمي التي فقدت مولودتها الأولى (سناء)، وكانت على مدى سنوات عديدة دائمة الشكوى، داعية الله ﷻ، أن يرزقها بابنة، وها هي ذي هدية السماء قد جاءت، فحمداً لله...

كانت مغادرة صديقي الحميم (طارق صالح العباوي)، وأسرته إلى بغداد (الدكتور طارق) فيما بعد وأستاذ علوم الجيولوجيا المتميز في (جامعة الموصل)، ضربة موجعة بالنسبة لي، حيث ربطت بيننا أواصر عميقة من المحبة والصداقة والانسجام، حتى أني كنت تعبيراً عن آلامي لفراقه أبعث إليه وأتلقى منه الرسائل المتواصلة، من بغداد ومن ألمانيا فيما بعد، والتي لم تكن لتطفئ الحنين الذي يعتلج في الجوارح والصدور.

ما لبث أن حلّ موعد الامتحان النهائي في السنة الثالثة الأخيرة، من دراستنا المتوسطة، حيث أعلمنا بإلغاء الامتحان الوزاري، واستبداله بعد النجاح الشامل بامتحان آخر موجز في سياقين، العلمي والأدبي، وفق اختيار الطلبة أنفسهم.

اجتزت الامتحان الشامل بنجاح وحصلت في المواد الرياضية على الدرجات الكاملة (١٠٠/١٠٠) أو قريباً من (٩٥٪)، أما المواد الإنسانية كاللغة العربية والتاريخ، فقد حصلت فيها على درجات متواضعة رغم عشقي لها، حتى

أن المسجل سألني لدى التقديم للامتحان الوزاري: أين تريد التوجّه؟ فقلت له دون أي تردد: القسم الأدبي، فدهش الرجل وقال وهو يؤشر على معدلاتي في الدروس العلمية: وهذه؟ أجبته بأن الرغبة هي صاحبة القرار.

التحقت بالثانوية الشرقية، ذلك البناء العثماني الأصيل، المطل بساعته الحمراء الكبيرة على شارع العدالة، والذي يتميز باتساعه، وكثرة ساحاته، وحدائقه، بعد ثلاثة أيام قضيتها في الثانوية المركزية، إلّا أن أبي سعى من خلال علاقته الوثيقة بمدير الشرقية الحاج محمود الجومرد رَحِمَهُ اللَّهُ إلى التحول إلى الشرقية رغم اكتظاظ مقاعدها.

كان الدوام في الثانوية يومذاك، سنتين فحسب، قبل أن تضاف إليهما في أواخر الخمسينيات سنة ثالثة، واستقبلتنا هناك عبر هذين العامين مجموعة متميزة من المدرسين أذكر منهم: عباس بلال في التاريخ، ونجيب الخفاف في الجغرافيا والأحوال، وذا النون الشهاب ومحمد نوري في اللغة العربية، وإبراهيم غزالة في الرياضيات، وسعيد الملاح في العلوم، وبشير حسن ويونس عزيز ويوئيل عزيز، ومستر ادوارد (وهو جندي إنكليزي عمل في الحرب العالمية الثانية) في اللغة الإنكليزية، وعمر الطالب في الاقتصاد، وأحمد الكبيسي في الدين، ويوسف أبو جنان في الرسم، ومحمود أبو ليلى في الرياضة.

أما مجموعتنا الطلابية فكانت متجانسة إلى حدّ كبير، تسود العلاقات فيما بينها أجواء المحبة والانسجام... وقد تخرج العديد من طلابها وتفوّقوا، وأصبح بعضهم محامين يشار إليهم بالبنان، أو أساتذة جامعيين، أو عسكريين، أو شرطة، أو مدرّسي ثانويات، والعديد منهم اكتفى بدراسة سنة واحدة، بعد إنهاء الثانوية، لكي يصبح معلماً.

ولا زالت ذاكرتي تحمل أسماء بعض أولئك الطلاب: عبد الجبار حسن رَحِمَهُ اللَّهُ، عامر الجومرد (الدكتور فيما بعد)، محمد قاسم (الدكتور فيما بعد)، عبد الجبار النوح رَحِمَهُ اللَّهُ، هاشم الجماس رَحِمَهُ اللَّهُ، مؤيد عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ، عبد السلام الدباغ، ابن أخ صديق شنشل، أكرم ناجي، عماد قاصد الحرباوي، جودت

الدباغ، عدنان دحام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، سالم داود رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وآخرين... وقد ربطت بيني وبين بعضهم علاقة صداقة وثيقة استمرت بعد ذلك السنوات الطوال، وبخاصة عبد الجبار حسن، وعامر الجومرد، وهاشم الجماس، ومؤيد عبد الله، وعبد السلام ياسين، وعماد قاصد الحرباوي.

ما أن مضى على الدوام في الشرقية بضعة أيام، حتى دعينا نحن مجموعة من الطلبة للاجتماع في قاعة الثانوية، حيث وزعت علينا مجموعة من الاستمارات، وشرح لنا القائمون على الاجتماع مهمة كل واحد منا في كيفية ملء هذه الاستمارات وتحديد المناطق التي كلفنا بجردها... استعداداً ليوم تسجيل النفوس العام لسنة (١٩٥٧م)... كان بمعيتي ضمن القاطع نفسه زميلي عبد الجبار حسن، حيث قمنا معاً بعدة زيارات لدور القاطع من أجل السيطرة على عملنا... وما لبث يوم التسجيل أن جاء، فرحنا ننتقل من دار إلى دار مسجلين المعلومات المطلوبة عن كل عائلة في الاستمارات الخاصة، وكانت مفارقة محزنة ومضحكة معاً أن يكون ضمن منطقتنا زقاق للمومسات، فكنا ندق الأبواب على وجل، ثم ما نلبث أن ندخل لأخذ المعلومات... وعندما كنت أسأل عن رب العائلة الغائب كان الجواب المعلق على ألسنة النساء: إنه صعد إلى الجبل!!

في اليوم التالي للتسجيل العام هذا ذهبنا إلى المركز العام في متوسطة المثنى لتسليم الاستمارات، ولتسلّم المكافأة المالية التي وعدنا بها، ولقد كانت دينارين فقط لكل طالب، حيث سارعت بصرف جزء منها في شراء أحد الكتب المعنية بالقضية الجزائرية وبطولات جميلة بوحيرد بعنوان (دفاع عن جميلة).

ربطتني بعبد الجبار حسن علاقة وثيقة بسبب اهتماماتنا الثقافية وقراءاتنا الأدبية النهمة... وأذكر أننا كنا بعد نهاية الدوام المسائي في بعض الأيام نجتاز الجسر الجديد القريب من الثانوية في جولة تخطي قد تصل بنا إلى دورة النبي يونس في أقصى الجانب الأيسر للموصل يومذاك، وكنا نتبادل الآراء بخصوص ما كنا نطالعه من كتب الأدب، وطالما ثار جدال حاد بيننا

حول العنصر الأساسي الذي يشكل المبدع ويدفعه إلى التعبير بالكلمة عما يعتمل في وجدانه، فكنت أنا أصرّ على الخبرة الشخصية... على المعاناة الذاتية المتفجرة من الداخل، وكان هو يصر على القراءة الخارجية والمعرفة المتشكلة بقوة المطالعة... والحق أن كلينا كان محقاً وكان مخطئاً في الوقت نفسه، ذلك أن القدرة الإبداعية تتشكل من الاثنتين معاً.

ولا زلت أذكر أنني تلقيت منه يوماً ـ على سبيل الإعارة ـ ديوان الشاعرة الفلسطينية (فدوى طوقان): (وحدي مع الأيام) وكيف أنني قضيت مع الديوان واحدة من أجمل الساعات في حياتي بسبب من رومانسيته الرائعة التي تمنح الإنسان جناحين يطير بهما في الفضاء الكبير.

ثمة جملة من المفارقات شهدتها حياتنا الدراسية في الثانوية... ولن يتسع المجال لسردها جميعاً ولذا سأكتفي بالتأشير على بعضها فحسب...

في إحدى محاضرات المستر إدوارد راح يطلب منا ضرب الأمثلة باللغة الإنكليزية على واو المعية، وراح الطلبة يرفعون أيديهم ويقدمون أمثلتهم... حتى إذا جاء الدور على أحدهم إذا به يقول: (أخرج إلى السينما أنا وصديقتي)!! فإذا بالمستر يبشّ لهذا المثل ويثني عليه... فما كان مني، وقد ثارت ثائرتي لهذا المثل المرفوض في مدينة محافظة ملتزمة كالموصل، فرفعت يدي وقمت لكي أبدي اعتراضي... ولا تسلوا عن صيغة الاعتراض ومفرداته الإنكليزية، وعن حركتي المتشنجة وأنا أكافح لالتقاط المفردات المناسبة، فأضرب بيدي وقدمي، محاولاً تركيب المعنى الذي أريد إيصاله للمدرس... والمهم أنه فهم ما كنت أقصد إليه فاعتذر... وحينذاك فقط استرددت أنفاسي، وشعرت بأنني أدّيت دوراً إيجابياً في مجابهة هذا الإنكليزي الماكر، والردّ على الطالب الذي لا يفرّق بين التقاليد النبيلة والتقاليد الدخيلة...

في الخامس الإعدادي، وقبيل حلول امتحانات البكالوريا، جمعنا مدرّس الرياضيات إبراهيم غزالة لكي يوجهنا إلى الصيغة السليمة في مراجعة المادة للحصول على الدرجات وتبييض وجه الإعدادية الشرقية بالنتائج المتميزة... ثم

راح يقرأ علينا حصيلة سعينا السنوي في الرياضيات... حتى إذا بلغ اسمي توقف قليلاً ثم رفع وجهه إليّ وحدّق بي لدقيقة أو أكثر، وقال باستهجان: (١٨ من ١٠٠)، ولما أحسست أنه بدأ بتوجيه كلماته القاسية إليّ، رفعت يدي وقمت لكي أقول له: أستاذ! ألست أنت الذي قلت لنا أنك تقدّر الطلبة الذين يبذلون جهداً متواصلاً لتحسين أدائهم، ورفع درجات سعيهم السنوي؟ أجاب بامتعاض: نعم. فقلت له: إذن أنا أوّل من يستحق التقدير، بدلاً من انزعاجك غير المبرّر هذا... قال: كيف؟ قلت: بدليل أن معدلي السابق كان (١٦٪) والآن أصبح (١٨٪)، فشعرت أنه أسقط في يديه، إذ ما لبث أن غيّر لهجته معي وقال: هذا جيّد يا بني... وعسى أن تزداد جدية ونشاطاً وأن تحصل في امتحان البكالوريا على عشرين بالمائة!!

والحق أن موقفي من مادة الرياضيات والجبر والهندسة والمثلثات... الخ كان يدعو إلى العجب، فأنا عندما لا أكترث لهذه المواد وأعدّ لها العدة من الدراسة والمتابعة؛ أحصل فيها على أدنى المستويات... ولكن عندما أقرّر أن أخوض غمارها بجدّ أحصل على الدرجات الكاملة أو قريباً منها... والمسألة مسألة رغبة في المادة أولاً وأخيراً.

يوماً تسلمنا درجاتنا في مادة الإنشاء، فإذا بي أحصل على أعلى الدرجات عن موضوع طلب منا مدرّس العربية أن نكتبه حول قضية المرأة... وإذا بزميلي (... الذي يجلس إلى جواري) تتغير ألوانه، وينفعل وهو يعاين الموضوع الذي كتبته، ثم ما يلبث أن يقف عند كلمة (إيجابي) التي وردت عرضاً، وقال ويده ترتجف: أتحداك أن تكون هذه الكلمة من عندك... فما هي إلا ترديد لما سبق وأن سمعته من مدرس العربية... لم أحاول أن أرد عليه لأني أدركت منذ اللحظة الأولى أن موقفه هذا ينبثق عن حسد جارف، ومن ثم فإن الرد قد لا يأتي بنتيجة على الإطلاق!!

ولا زلت أذكر يوم دخلنا مختبر الرسم، وطلب منا المدرّس (أبو جنان) أن يرسم كل منا اللوحة التي يراها تنسجم وقدرته وتطلعاته... ولما كانت

قدرتي في الرسم محدودة... ومحدودة جداً... أردت أن أعوض عنها بطرح فكرة ما حتى ولو جاء رسمها بسيطاً لا يدل على أية مقدرة فنية... فما كان مني إلّا أن رسمت طريقين يتجه أحدهما يميناً والآخر يساراً، ثم وضعت علامة × في نهاية الطريق الثاني، وتركت الطريق الأوّل مفتوحاً، وقد علقت عليه لافتة كتبت عليها: (إلى أين؟) فما كان من مدرس الرسم إلا أن أعجب به ومنحه درجة مناسبة!!

تفوقت في مادة اللغة العربية لدى مدرسها المعروف (ذو النون الشهاب) فما كان منه إلا أن يهديني مكافأة منه، كتاباً يتحدث فيه (سعيد الديوه جي) رَحِمَهُ اللهُ عن جسور الموصل... وكم كنت وقتها أتمنى أن أتلقى من أستاذي رواية من الروايات الرائعة التي كانت تصل الأسواق بين الحين والحين... ولم أكن أدري يومها أن هذا الكتاب كان إشارة من نوع ما على ما سيجيء به المستقبل، حيث سأقضي عشر سنوات من حياتي الوظيفية في متحف الموصل، وأتولى مهمة الإشراف على أنشطته التراثية، بما فيها الجسور القديمة، وأن أكتب الكثير عنها... وأن تربطني (بالديوه جي)، المدير السابق للمتحف، علاقة صداقة يومية وثيقة حتى وفاته رَحِمَهُ اللهُ...

في صيف عام (١٩٥٨م) بدأ امتحان البكالوريا الذي كان سيتقرر في ضوئه مستقبل كل واحد منا... وقضينا شهرين متفرغين للمراجعة، والحق لقد كان هذان الشهران من أسوأ ما مرّ في حياتي بسبب ما بذلت فيهما من جهد، وما كنت أتلقاه يومياً من رشقات الاكتئاب لدى كل استيقاظ، حيث تنتظرني الساعات الطوال صباحاً وظهراً ومساء من المراجعة القاسية التي كنت أحتال على حصارها المرّ، بأن أتنقل من مكان إلى مكان وأنا أحمل كتبي وكراريسي، فحيناً أمارس المراجعة في غرفتي العليا، وحيناً أنزل إلى غرفة الضيوف، أو إلى السرداب أو أصعد مع اقتراب المغرب إلى السطح... وحيناً آخر كنت أهرب لكي أمارس المراجعة في حديقة الشهداء العامة المجاورة للإعدادية الشرقية، أو في البحيرة الجميلة التي افتتحت قبل سنوات وأحيطت بصف من

المقاعد الخشبية. وحيناً ثالثاً كنت أوغل بعيداً باتجاه كازينو (الخيام) في منطقة الدواسة جنوبي الموصل، تلك الكازينو الرائعة ذات الهواء العليل والإطلالة البديعة على الشارع، والتي اعتدت أنا وابن عمي وعدد من الأصدقاء الجلوس اليومي فيها عبر كل أمسيات الصيف منذ عام (١٩٥٦م) وحتى عام (١٩٦٦م) نلعب بها الداما والشطرنج، ونتبادل الأحاديث، والنكات الطيبة، ونؤدي فيها صلوات الجماعة، ونتابع الأخبار على شاشة التلفاز.

كنت أنا وابن عمي (شمس الدين الحاج محمد) نغادر دورنا بعد الثالثة عصراً من كل يوم، ونجتاز شارع الدواسة الهادئ الجميل وصولاً إلى الكازينو، حيث نتناول لدى جلوسنا قنينة الكوكا كولا المثلجة، ثم نبدأ اللعب أو الحوار، أو التأمل في المارة، وطالما كنا نغادر الكازينو لتناول عشاءنا من الباجة الموصلية، أو الكباب، أو السندويج، ثم ما نلبث أن نقفل عائدين لمواصلة الأمسية حتى ساعة متأخرة من الليل.

وأذكر يوماً، ونحن نوشك أن نغادر الكازينو لتناول العشاء، أو لممارسة التخطي عبر الشوارع النظيفة المحيطة بالمكان، أن تصدّى لنا صاحبها (أحمد باري) رَحِمَهُ اللهُ طالباً منا أن نعطيه اليومية وهي لا تتجاوز الخمسة والعشرين فلساً للشخص الواحد، فقلت له إننا سنعود ثانية كما كنا نفعل دائماً، وأننا من روّاد الكازينو الدائميين فأصر على الدفع، فما كان مني إلا أن أخرج من جيبي ربع دينار (وكان يمثل يومذاك مبلغاً كبيراً) وأرميه في الصينية أمامه، وأغادر المكان بصحبة ابن عمي، فلما عدنا نهض الرجل قائماً وأبدى اعتذاره عن تصرفه معنا، ولكنه برر فعلته بأننا في موسم عيد، وما أكثر الصبيان الذين يغادرون الكازينو متسللين دون أن يدفعوا فلساً واحداً!!

وكان مقهى (الأعرجي) في الدور العلوي من البناية المحاذية للجانب الأيمن من جسر الموصل الحديدي، مستقرنا الآخر، صباحاً ومساء، حيث كان رواقها المفتوح يطل على نهر دجلة والساحل الأيسر، ويتلقى بين الحين والحين دفقات من الهواء المنعش في أيام الصيف... وكان معظمنا وهم يدلفون إلى هذا

المقهى الرائع، يحملون معهم كتاباً لكي يواصلوا القراءة في صفحاته، ثم ما نلبث أن ندخل في حوار جاد مع هذا الأخ أو ذاك من روّاد المقهى... كانت جلساتنا فيه تحمل أقصى درجات الجدية في التعامل مع الزمن، وتوظيف دقائقه وساعاته للمزيد من القراءة والمعرفة والنقاش... وكان معظم الذين يرتادونه من الشباب المسلم الذي طبع على احترام الزمن... وحتى عندما كان يزور الموصل بعض إخواننا من بغداد، أو مدن العراق الأخرى، كان لا بدّ لهم من أن يجلسوا في هذا المقهى ويذوقوا طعم القراءة والحوار في رواقه الجميل...

وما لبثنا أن اجتزنا أيام الحصار الصعب لمراجعات البكالوريا، ثم دخلنا الامتحان الذي كان لحسن حظنا يجري يومياً، وينتهي على مدى أسبوع واحد، لكي نستقبل العطلة الصيفية، ونتهيأ لتحديد الكلية التي سننتمي إليها بعد ظهور نتائج الامتحان.

والحق أنني في مرحلة الثالث المتوسط بدأت أتأرجح في اختيار الكلية التي تناسبني، فحيناً كنت أقنع نفسي بدخول كلية الزراعة، بسبب عشقي للثمار والخضار، وما ينطوي عليه هذا التخصص من خبرات جمالية، وحيناً آخر كنت أميل، متأثراً بمنظر الضباط الذين شهدتهم في نادي الضباط في جلولاء بمعية زوج خالتي المقدم (حسين الزرقي) لدخول الكلية العسكرية، ثم ما لبثت بعد سنتين أن تحدّد ميلي بإحدى كليتين: إما الحقوق وإما التربية، وأخيراً استقر رأيي على دخول التربية بما تتضمنه من ميزات حيث توفير القسم الداخلي، بوجباته الثلاث ومبيته، وحيث التخرج للعمل في التدريس الذي كنت أعشقه... هذا فضلاً عما يتيحه لي من عطل متطاولة في الربيع والصيف... وإلى جانب هذا كله التزوّد بمزيد من الزاد الفكري والثقافي الذي بدأت أتعامل معه بشغف من خلال مطالعاتي النهمة في الكتب المختلفة.

وما لبثت النتائج أن أعلنت... وإذا بي من الناجحين بفضل الله سبحانه ورحمته، وإذا بدرجاتي الجيدة تؤهلني للدخول في كلية التربية، حيث سارعت

بملء استمارات التقديم ورحت أنتظر النتيجة للبدء في مرحلة جديدة من الحياة...

كانت الموصل في مرحلة الأربعينيات وحتى أواخر الخمسينيات مدينة صغيرة نسبياً لا يتجاوز عدد أفرادها الربع مليون نسمة إلا قليلاً، وكانت لا تزال محصورةً في بيئتها التاريخية القادمة من أيام السلاجقة والأتابكة والعثمانيين، حيث تحدها من الشمال قلعة باشطابيا والمستشفى الملكي ومحلة الشفاء ومن الشرق نهر دجلة، ومن الغرب باب سنجار وباب البيض ومحلة الطوّافة القريبة من محطة القطار... أما جنوباً فمحلة باب الجديد وباب لكش والشيخ عمر وباب الطوب... ثم ما لبثت أن راحت تتمدد وتنشأ فيها بعض الأحياء الجديدة المتناثرة التي تخترقها الأراضي الجرداء والبساتين، من مثل محلة السجن ومحلة الدوّاسة التي قطنها اثنان من أعمامي: (الحاج أحمد وإسماعيل)، ولم نكن نصل إلى بيتيهما إلّا باستئجار عربة من تلك التي تجرّها الخيول... أما شرقاً فلم يكن يربط الموصل بذلك الجانب سوى جسر حديدي واحد، كان قد أنشأه الملك غازي ﵀ في ثلاثينيات القرن الماضي، حيث الممر الوسطي للعجلات، والممران الجانبيان للذاهبين والعائدين، حتى إذا انتقلنا إلى الضفة الأخرى لم نكد نجد فيها حياً واحداً إلا حي النبي يونس (عليه السلام) وحي الفيصلية، وما عداهما فهي الأرض العراء والبساتين والأشجار... وكان ثمة في جوار تل النبي يونس قصر مصمم على الطريقة الصينية ـ اليابانية هو قصر الطبيب الأرمني المعروف (ستارجيان).

هذه هي مدينة الموصل في مرحلة الطفولة والصبا، حيث راحت في أخريات ذلك الزمن تشهد نموّاً عمرانياً ملحوظاً، في جانبيها الشرقي والغربي على مستوى بناء الدور، والأحياء الجديدة، أو شق الشوارع والطرقات العامة والجسور، ولكنه على أية حال كان نمواً بطيئاً، قياساً على ما ستشهده مرحلة الستينيات والسبعينيات وما أعقبها بتأثير الانفجار السكاني، وتزايد الدخل القومي، والتوجه الحضري لكل الحكومات التي تعاقبت على قيادة العراق، قبل

أن يدهى بكارثة الاحتلال الأمريكي الخبيث الذي نفذ فيه واحدة من أبشع الأعمال القذرة في التاريخ المعاصر!!

كان يخترق الموصل من أقصاها إلى أقصاها شارعان رئيسيان، أحدهما يسمى شارع نينوى يبدأ من رأس الجادة غرباً وينتهي عند مدخل الجسر الحديدي شرقاً... والآخر يبدأ من الغزلاني في أقصى الجهة الجنوبية ويجتاز محلة السجن ثم يخترق الأحياء القديمة في باب الجديد وباب العراق، فيما سمي بشارع الفاروق الذي أضيف إليه في أواخر الأربعينيات شارع آخر هو الفاروق الجديد، بعد عمليات هدم واستملاك واسعة، من أجل إيصاله إلى المستشفى الملكي في أقصى الشمال.

وكانت ثمة شوارع رئيسية، وفرعية، تخترق نسيج المدينة ذهاباً وإياباً، من أمثال شوارع ذي النورين، والعدالة، وغازي (الكفاح فيما بعد)، والنجفي، والنبي جرجيس، وحلب... الخ... هذا إلى شبكة كبيرة من شرايين المرور الصغيرة المسماة بالأزقة، والمنتشرة في أحياء المدينة كافة.

ولن أنسى الشارع الفرعي الجميل الذي كنا نسلكه أيام دراستنا الابتدائية، والذي يبدأ من دورة باب لكش ويمتد جنوباً باتجاه الدوّاسة... إذ كنا نجتازه صبيحة وعصر كل يوم من أيام دراستنا الابتدائية التي استغرقت سبع سنوات... شارع هادئ، لا تجتازه السيارات إلا نادراً بسبب قلتها يومذاك، وتمتد على جانبيه أشجار السبحبح بأحواضها التي كان الماء يتجمد فيها في موسم الشتاء فيزيدها جمالاً على جمالها... وكانت بعض مقابر المدينة تنتشر على الروابي والمساحات الممتدة على جانبي الشارع، والتي تزهو بخضرتها أيام الربيع بحيث تجلب إليها العديد من العوائل في رحلاتهم اليومية إلى الجهات القريبة من دورهم حاملين طعامهم وألعابهم، لكي يقضوا هناك أجمل الأوقات. وكانت مقبرة جدي الحاج عمر تقوم على يسار الشارع، وقد أحكم تسييجها وانتشرت فيها الزهور ذات الألوان الفاقعة.

سبع سنوات ونحن نجتاز هذا الشارع أربع مرات في اليوم الواحد ذهاباً

وإياباً دون أن نملّه أو يملّنا... يا لتلك الأيام السعيدة التي تنطبع ذكرياتها العذبة في الوجدان فلا تغادره أبداً!... إنها جماليات المكان، كما سماها الناقد الفرنسي (غاستون باشلار)، والتي تمارس دورها في تكوين الذائقة البشرية والحس بالانتماء الأصيل لدى الإنسان.

وثمة شارع (حلب)... وما أدراك ما شارع حلب؟... إنه ذلك الذي يبدأ من دورة التقاطع الرئيسية وسط الموصل بين شارع ذي النورين وشارعي باب لكش والدوّاسة، وينعطف شرقاً بموازاة شارع المتحف، لكي ما يلبث أن يلتقي بشارع العدالة الموازي لنهر دجلة... إنه الشارع الذي اجتزناه يومياً، مراراً وتكراراً على مدى سنوات دراستنا الخمس في متوسطة المثنى والثانوية الشرقية... كان شارعاً مترعاً بالمتع والمسرات، فثمة المطاعم، وبائعو الجرز والسكريات، والمقاهي الصيفية والشتوية، وأفران المعجنات اللذيذة، والفنادق، والسينمات الصيفية والشتوية... هذا إلى عدد كبير من محلات بيع التحافيات وخياطي ملابس الجنود وشاراتهم... كانت نفوسنا تنشرح وتزداد بهجةً كلما اجتزنا هذا الشارع ذهاباً وإياباً، ومددنا أيدينا لكي نشتري (مائة غرام) من الجرز الحار أو ملبس فستق العبيد أو قشر البرتقال أو الفستق من هذا البائع أو ذاك، ونحن نتحدث عما شهدنا وفعلنا عبر دراستنا اليومية في المتوسطة أو الإعدادية... وزاد الشارع اعتزازاً في نفسي وجود بيت صديقي الحميم (حكمت سليمان) في أحد أفرعه، حيث كنت أزوره بين الحين والحين لاستعارة جملة من المجلات والكتب من مكتبته الخاصة.

أما الآن، وبعد الانفجارات السكانية والمصلحية والمتغيرات السياسية التي شهدها البلد، فضلاً عن تضاؤل الخدمات والنظافة اليومية، وربما غيابها، فلكم أن تجتازوا هذا الشارع، وأن تجدوا فيه موطئ قدم للعبور، أو ملمح أصيل مما كان يزينه ذات اليمين وذات الشمال...

وثمة الأسواق العديدة التي كانت تتمركز يوماً، فيما أطلقت عليه زمن عملي في رئاسة قسم التراث في ثمانينيات القرن الماضي: مثلث الخدمات،

الذي تحدّه شوارع نينوى وغازي والعدالة، ونهر دجلة، والذي يبدأ عند مدخل الجسر الحديدي، ويمتد جنوباً وغرباً حتى يصل إلى آخر نقطة له: جامع الخضر (الجامع المجاهدي نسبة إلى من تولى بناءه: مجاهد الدين قيماز زمن الحكم الأتابكي للموصل)، والذي يقبع عند الزاوية الجنوبية لهذا المثلث المترع بالأسواق والحرف والأبنية الخدمية كالقيصريات والخانات والحمامات والقناطر والمطاعم والمقاهي الشعبية والدكاك الممتدة ذات اليمين وذات الشمال.

وقد بيّنت في تقرير مفصل رفعته إلى المديرية العامة لآثار ومتاحف المنطقة الشمالية عام (١٩٨٠م) الأهمية التراثية البالغة لهذا المثلث، والعوامل المضادة التي راحت تفترسه كالمنشار، وقدمت جملة من الخطط العملية لحمايته من التآكل، ثم استعرضت قائمة تفصيلية بموجوداته التراثية التي تعرض معظمها للهدم والإزالة، وقد تضمنت تلك القائمة الموجودات التالية:

القيصريات: قيصرية سباهي بازار، قيصرية القزازين، قيصرية السبع أبواب، قيصرية اليوزبكية، قيصرية مدرسة حسن باشا، قيصرية باب السراي، قيصرية العطارين، قيصرية البزازين.

الخانات: خان الغنم، خان السواد، خان الكمرك، خان القلاوين، خان النفط، خان المفتي، خان الفحامين، خان حمو القدو.

الأسواق: سوق الهرج، سوق الصوافة، وسوق البقالين، سوق التنكجية، سوق الملاحين، سوق الفخارين الموازي لجامع الأغوات، سوق الصناعات والحرف اليدوية الحديدية والخشبية، سوق العطارين، سوق اليمنجية، سوق العتمي، سوق الكمرك، سوق التحافيين في باب السراي، سوق الفحامين، سوق الصفارين، سوق الفرش الموازي لخان المفتي، سوق القوندرجية الموازي لخان حمو القدو.

الحمامات: حمام العطارين، حمام الصالحية.

المقاهي: مقهى الخضراء، مقهى (أبو صبحي) في مداخل سوق العطارين، مقهى قيصرية علي أفندي.

المطاعم: مطعم كباب سيد بكر، مطاعم السمك (في مدخل سوق العطارين)، مطاعم القلية في باب السراي، مطاعم الباجة...

الجوامع: جامع العبدال، جامع الباشا، جامع الأغوات، جامع سوق الحنطة، جامع باب الطوب، الجامع المجاهدي.

كما أنني قمت في تقريري ذاك بانتقاء نماذج نمطية من هذه الموجودات، لغرض حمايتها وصيانتها مقابل تعويض أصحابها بمبالغ مجزية من المال، كي لا يغريهم البحث عن الربح السريع بهدمها وإزالتها.

وكان سوق باب السراي الذي كان يحتضن محل والدي، جزءاً أصيلاً من هذا التكوين المعماري الغني، الذي قضينا فيه أجمل الساعات من زمن طفولتنا السعيدة.

أما شارع النجفي، القريب نسبياً من هذا المثلث، والذي يمتد إلى الشمال الغربي منه، مصعداً باتجاه شارع نينوى، فله قصة أخرى...

تجتاز شارع النجفي من بدئه حتى منتهاه... يهيمن عليك كالكابوس، مزيج من الدهشة والمقت والاشمئزاز.. يضعك على حافات الرعب... وأنت تتلفّت ذات اليمين وذات الشمال فلا تجد إلا أكداس الأطعمة والحلويات التي تخترق المحلات والأرصفة، وتنزل إلى الشارع لكي لا تترك مجالاً لحرية الحركة...

ثمة صرخة محتبسة أرادت أن تنطلق مدوّية في الفضاء القريب: أين الكتب؟ أين المكتبات؟ أين العشّاق الذين يجتازون الشارع مؤملين أن يعثروا على إصدار جديد يجيء مسافراً من القاهرة أو بيروت، لكي يشتروه عائدين به على أجنحة البهجة والفرح إلى دورهم لكي يلتهمونه التهاماً؟

لكنَّ صوتك يختنق... يحتبس في الأعماق... تطغى عليه صرخات البائعين، وزُحام المارة الذي لا يكاد يدع لك مجالاً تتحرك فيه...

وتتساءل مرةً أخرى: أين المكتبة العصرية؟ أين المكتبة الوطنية؟ أين مكتبةُ الكركجي؟ وأين مكتبةُ الوفاء؟ وأين مكتبةُ عبد الرحمن نصّار؟ أين ذنون شهاب، مدرّس اللغة العربية في الثانوية الشرقية الذي لا يصلها يومياً إلا بعد

أن يجتاز شارعَ النجفي، وقد اشترى من إحدى مكتباته أحدث إصدار... لكي يرينا إياه قبل بدء الدرس، مقلباً صفحاتِه بشغف، وأنت وسائر الطلبة يكاد لعابُكم يسيل وأنتم تتفرسون فيما يعرضه عليكم الأستاذ... تتمنون لو يطير بكم طائر إلى شارع النجفي لكي تقلّدوا أستاذكم وتشتروا هذا الإصدارَ الجديد.

أين عبد الجبار حسن؟ الذي كان، بعد أن يشتري الكتاب، يجتازُ الشوارعَ والحارات لا يكاد يلتفت إلى المارة، أو حتى إلى السيارات التي تمرق عبر الشوارع، محدّقاً في صفحات الكتاب، منتشياً بقوة الكلمة التي ينطوي عليها.

أين الدكتور عبد الجبار الجومرد؟ الذي كنتَ تجلس إلى جواره في مكتبة الوفاء متحدثاً وإياه عن دنيا الكتابة والكتاب؟! وأين عبد الباسط يونس؟ الذي كان يلاحق الكتبَ وهي تصدر في مظانّها، فيلقي عليها القبض قبل رحيلها إلى الموصل، وكنتَ تتلقى منه آخر الأنباء عن صدور روايةٍ جديدة لنجيب محفوظ...

أين ذهب سعيد الديوه جي وصديق الجليلي؟ اللذان طالما التقيتهما وهما يقلّبان صفحاتِ الكتب في هذه المكتبة أو تلك.

وتتذكر، محاولاً الفكاك من أسر الكابوس الثقيل، كيف كانت السلاسلُ المصريةُ تأسرك، فتُقبل على مطالعتِها بنهم عجيب: الكتاب الذهبي، الكتاب الفضي، اقرأ، الهلال، مطبوعات كتابي، كنوز القصص الإنساني العالمي... شهراً بشهر تصل في موعدها المحدّد تماماً لكي تغذي عقولنا وأرواحنا بالشهد المصفى...

وتتذكر وأنت لا تزال تعاني من وطأة الكابوس، ولُزوجته، وروائحِ البقلاوة المكدّسة على الأرصِفة إلى درجة الإحساس القاسي بالغثيان... اعتصام الشرقية رفضاً لسياسة العراق إزاء العدوان الثلاثي على مصر... وشهريّ العطلة اللذين توقف فيهما الدوام... وكيف كان انكبابك على القراءة صباح مساء... وكيف كانت المكتبةُ العامة أشبه بخليةِ نحلٍ تعجّ بالمطالعين الذين لا يكفيهم ما يقرؤونه فيها، وإنما يخرجون وقد تأبطوا ما استعاروه منها لكي يواصلوا القراءة في بيوتهم...

يا لتلك الأيام السعيدة!... ويا للحظات التي تشفّ رومانسيةً وعذوبة وأنت تقرأ بشغف قصائدَ فدوى طوقان في ديوانها (وحدي مع الأيام) الذي أعارك إياه عبد الجبار حسن فقرأته مرتين!...

وماذا تقول عن ساعات المطالعة العذبة ــ عبر أمسيات الشتاء الماطرة ــ في أعمال جبران خليل جبران والرافعي والمازني والمنفلوطي وطه حسين والعقاد وسيد قطب ونجيب محفوظ وعلي الجارم وتوفيق الحكيم... وويلز وهيمنغواي وهوغو وتولستوي؟

وتتذكر محاولاتِك الأولى لشراء أوّل كتابين سيشكلان نواة مكتبتِك المتواضعة التي سيقدّر لها فيما بعد أن تتجاوز الستة آلاف كتاب... نظرات المنفلوطي وبؤساء فيكتور هوغو...

ويوم أن أتيح لك أن تعمل في كلية الآداب منذ سنة تأسيسها في خريف عام (١٩٦٦م)؛ كنتَ تلتقي عبر محاضراتك بثلة من الطلبةِ، الذين كان الكتابُ والمطالعةُ الخارجية خبزَهم اليومي... وكانوا يسهمون معك في بناء المحاضرة... فما من سؤال يوجه إليهم حولَ هذا الكتاب أو المفكر أو ذاك إلّا ووجدتَ نفسكَ قبالةَ عددٍ كبير من الأيدي المرتفعة تريد جواباً...

وقد أتيح للعديد من طلبة الستينيات والسبعينيات أن يواصلوا دراستهم للدكتوراه، وأن يعودوا لكي يعملوا في كليتي الآداب والتربية... أحصيتَ يوماً عدد طلبتِك الذين يعملون معك في كلية التربية مدرّسين وأساتذة، فإذا بهم يتجاوزون العشرين.

ثم ما لبثت اللعنةُ أن حلّت... وكفّ الطلبةُ الجامعيون عن القراءة... وأصبحت كليتا الآداب والتربية تخرّجان أفواجاً من الأميين... أو أنصافَ المتعلمين... يرتدون زيفاً شهاداتِ البكالوريوس والماجستير والدكتوراه وعقولهم خَواء...

ثلاثون سنة... كاد ريقُك يجف وأنت تحاول جاهداً أن تعيدهم إلى جادة

القراءة لكي يكونوا أكفاء ما حصلوا عليه من شهادات... فلا يلتفت إليك أحد...

كنتَ تقول لهم إن عشرين سنة من الدراسةِ الجامعية التي تعتمد المقرّر، وعشرين سنة أخرى من الجلوس وراء الشاشة التلفازية الصغيرة لن تخرّج كاتباً ولا مفكراً ولا مثقفاً ولا أديباً ولا مبدعاً، وإن الذي يخرّج هؤلاء هو الكتاب... فلم يلتفت إليك أحد... وتسأل اثني عشر طالبَ دكتوراه عما قرؤوه في عام (٢٠١١م) فإذا بتسعة منهم لم يقرؤوا عبر السنة كلها كتاباً واحداً...

يا حسرتا على القراءةِ المتواصلةِ التي تمزج الليل بالنهار!...

ها هي أمّتنا العربية كلّها تدخل النفق المظلم... وأنت قد مارستَ التدريس في العديد من جامعاتها، داخلَ العراق وخارجَه، فلم تكد تجد في طلبتها، بل حتى في بعض أساتذتها من يقرأ كتاباً واحداً في العام!!

وها هي ذي آخرُ الإحصائيات التي تملأ فمكَ بالمرارة، والتي صدرت عن منظمة اليونسكو قبل سنوات قلائل: إن متوسطَ القراءة الحرّة للطفل العربي لا يتجاوز الدقائق الست في السنة مقابل(١٢,٠٠٠) دقيقة للطفل في العالم الغربي. وفي دراسةٍ دوليةٍ أخيرة حول معدلات القراءة في العالم أوضحتْ أن معدّل قراءةِ المواطنِ العربي سنوياً رُبعُ صفحة، بينما معدل قراءةِ الأمريكي (١١) كتاباً. وتصدر الدول العربية سنوياً ما يعادل كتاباً واحداً لكل (٣٠٠) ألف شخص، بينما تصدر دول الغرب، وخاصةً أمريكا حوالي ٨٥ ألف كتاب سنوياً. وتنتج إسرائيل وحدها ٢٥ ـ ٣٠ ألف كتاب سنوياً، وهو ما يعادل إنتاج الدول العربية مجتمعة. وتكشف أحدث الإحصائيات أن الأوربي يقرأ بمعدل ٣٥ كتاباً في السنة، والإسرائيلي ٤٠ كتاباً في السنة، أما العرب فإن ٨٠ شخصاً يقرؤون كتاباً واحداً في السنة. ولكي تتم قراءة ٣٥ كتاباً باللغة العربية فإننا نحتاج ٢٨٠٠ عربياً... والحصيلة أن ثقافة أوربي واحد = ثقافة ٢٨٠٠ عربي، وثقافة إسرائيلي واحد = ٣٢٠٠ عربي.

أفتستغربُ ـ إذن ـ إذا فقد شارعُ النجفي وجهه الثقافيَّ الأصيل، الذي

كان يمدّ الروحَ والعقلَ والوجدانَ بالغذاء الشهي... وتحوّل إلى بسطةٍ كبيرة، ولكنها ضيّقة لبيع ما يملأ البطون؟

إن شارع النجفي يعكس بمأساتِه هذه وضع الأمة كلّها التي سحبها عن القراءة شيء يسمى الشاشةُ الصغيرة، ومعها رغبةٌ متأصلةٌ في الكسل الروحي والاسترخاء... والميل إلى قتل الوقت باللعب، والأحاديثِ المكرورة... وتُردّد مع نفسِك وأنت تلقي نظرة أخيرة على شارع النجفي، محاولاً أن تفكها من أسرِ الكابوس الذي لا يرحم: أهكذا تؤول الأمة التي نزلت أولى آياتها البيّنات مؤكدةً على القراءة... والعلم... والقلم: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ ــ ٥]... والتي ارتبطت لحظات خليقتها الأولى بالعلم كما يحدثنا كتاب الله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١ ــ ٣٣].

والحديث عن الجغرافيا يقود بالضرورة إلى صنوها: الحديث عن التاريخ... عن الهمّ العام بقدر انعكاسه على تكويني وخبراتي... بقدر رؤيتي الانطباعية لشرايينه وخلاياه...

وتقودني البداية ها هنا أيضاً إلى زمن الميلاد البعيد: عام (١٩٤١م)، حيث ولدت وأنا لا أكاد أعلم شيئاً عما يدور حولي من وقائع وأحداث، ولكن وبمرور الوقت، ومن خلال ضباب الزمن الكثيف، والذاكرة الهشة التي لم تكن قد استوت بعد على سوقها... تتراقص إزائي ظلال بعض الوقائع، بشكل متميع، غير واضح المعالم، لكن تأثيراتها في نفسي كانت بالغة، حتى إذا مضت الأيام، وزال الغبش والضباب واستفزت الذاكرة... ودخلت مرحلة الوعي بالأشياء، بدأت ملامحها تزداد اتضاحاً، وتأثيرها يزداد ضغطاً على جملتي العصبية لكي ما تلبث أن تحتفظ بشبكة من الذكريات عما شهده ذلك العصر

من وقائع وأحداث كنت أتعامل معها بجملتي العصبية... بحواسي كافة... بقلبي وروحي... بسمعي وبصري... ومن أجل ذلك تركت في نفسي كهوفاً وأغواراً لا زلت أحملها معي حتى اللحظات الراهنة.

كانت البداية فيما كان يتناقله الناس، ويدور في المجالس والبيوت والأسواق، من أحاديث هامسة حيناً، صاخبة أحياناً، حول وقائع ثلاث تشكل نسيجها في أواخر الثلاثينيات وبداية الأربعينيات، وكلها انتهت إلى ما يشبه الحزن العام الذي خيّم على نفوس أبناء بلدي: الموصل التي كان لها قصب السبق في العديد من وقائعها وأحداثها: مقتل الملك الشاب غازي بن فيصل الأول (رحمهما الله)، وإخفاق ثورة رشيد عالي الكيلاني، وبدء تراجع الانسياح الألماني في أوربا.

لا زلت أذكر الأحاديث اليومية المكرورة التي كانت ألسنة الآباء والأمهات والمعارف تلوكها بحزن وأسى حول واقعة مقتل الملك غازي، الذي كان يملك روحاً وطنية وعروبية طالما عبّر عنها في سياساته، وفي نظام الفتوة الذي جند فيه الشباب، وعبر إذاعته الخاصة... يبدو أيضاً أنه لم يكن يودّ الإنكليز الذين كانوا يومذاك يهيمنون على مقدرات العراق الاقتصادية والسياسية والثقافية والتعليمية... وأنه ـ ربما لهذا السبب ـ كان يميل إلى دول المحور ويتمنى لألمانيا النجاح الذي ـ لا أدري مدى مصداقيته ـ بخصوص مجابهة الاستعمار البريطاني، والتوسع الشيوعي السوفياتي، ومحاولات الصهيونية الدائبة لالتهام فلسطين!!

مهما يكن من أمر، فقد دخلت محبة هذا الملك الشاب ـ على ما كان فيه من طيش وربما إدمانه على شراب الكحول ـ قلوب الموصليين، وعرّشت هناك، ربما كرد فعل تجاه كراهيتهم للمثلث المذكور الذي أخذ برقبة الأمة الإسلامية أو كاد.

ولقد فوجئ الموصليون صبيحة أحد أيام الربيع من عام (١٩٣٩م) بمقتل ملكهم المحبوب في حادث اصطدام سيارته بعمود كهربائي في جوار قصر

الزهور الذي كان يقطن فيه، والذي أعلن يومها أنه وقع بسبب التهور المعروف عن الملك في السياقة السريعة، وربما لكونه كان مخموراً... لكن الموصليين، وربما العراقيين جميعاً، اقتنعوا حتى النخاع بأن الحادثة لم تكن إلا بتصميم من الإنكليز وبمعونة شقيق زوجة الملك: الأمير عبد الإله... فمنذ اللحظات الأولى لانتشار النبأ احتشد الموصليون في تظاهرة هادرة راحت تجتاز شوارع الموصل في طريقها إلى بناية القنصلية البريطانية القريبة من محطة القطار، وفرضوا عليها الحصار وهم يرفعون أصواتهم الغاضبة ضد الإنكليز، ممتزجة ببكائهم الجماعي المؤثر، ثم ما لبث شاب من آل الصبحة أن هاجم القنصل نفسه وذبحه بالسكين... الأمر الذي غرس في نفوس ساسة الإنكليز كراهية خاصة لمدينة الموصل، ربما هي التي دفعتهم بعد سنوات قلائل إلى شن عدة هجمات جوية على المدينة، أصابت إحداها مقهى يقع في رأس الجادة، وأسفرت عن استشهاد وجرح العديد من الموصليين... وكنت وأنا بعد طفل أسمع هذا كله يدور على الألسنة وتتحرك به الشفاه صباح مساء...

وحتى الآن، لم يستطع أي من المؤرخين الذين تناولوا واقعة مقتل الملك غازي، أن يثبت بشكل قاطع الدوافع الحقيقية لحدوثها، ولكن المهم هو ما أسقطته في نفوس الموصليين من الأحزان، ثم ما لبثت أن وجدت نفسها تعبر عن همومها، وكراهيتها للإنكليز، بميل معظم أبناء المدينة إلى ألمانيا ومحبتهم لزعيمها النازي هتلر، وفرحهم الطاغي بالانتصارات المدهشة التي حققها ضد خصومه من الإنكليز والفرنسيين في بدايات الحرب العالمية الثانية، بحيث أن أحد أبنائهم الصحفيين، وهو (يونس بحري) استقر به المطاف في برلين، والتقى بهتلر، وأقنعه بفتح إذاعة خاصة تحمل اسم (حي العرب) لرفع الخطاب الإعلامي العربي المؤيد للألمان، والتي كان لها مستمعوها الكثيرون من أبناء الموصل، لا بل أن الأمر تجاوز ذلك، من خلال حركة أو انقلاب عسكري شامل في بغداد أطاح بنظام الوصاية على الملك الصغير فيصل الثاني من خلال خاله عبد الإله، حيث قاده السياسي العراقي

المعروف (رشيد عالي الكيلاني)، والذي كان يؤيده ويدعمه فيه عدد من خيرة شباب الموصل وضباطها وعلى رأسهم العقيد صلاح الدين الصباغ، والمحامي الشاب يونس السبعاوي (رحمهما الله).

ولكن يبدو أن الموصليين كتب عليهم أن يتلقوا غيوم الأحزان وهي تطبق على سماوات الفرح، وأن يشربوا كأسها حتى الثمالة... إذا ما لبث الإنكليز أن قضوا بغير ما رحمة على محاولة الكيلاني، والتي أعقبت بعد سنوات قلائل إلقاء القبض على العديد من قادة الانقلاب، وإعدامهم قبالة بوابة وزارة الدفاع في باب المعظم على ملأ من الناس.

أما التقدم الألماني، فقد أُجهض هو الآخر، وتلقى الموصليون يوماً بعد يوم، وهم يلتصقون براديواتهم الكبيرة أنباء التراجع الألماني أمام الزحف الساحق للحلفاء، الذين أطبقوا على ألمانيا من الغرب والشرق وقادوا هتلر إلى الانتحار، بسبب من خطئه القاتل بفتح جبهة الصراع ضد الاتحاد السوفياتي، والقتال ـ بالتالي ـ على جبهتين...

هذا ما كان يطرق سمعي من أحاديث وشائعات وأقوال وتعليقات أيام طفولتي المبكرة، الأمر الذي شكل في نفسي كراهية متأصلة للإنكليز ولعملائهم في ديارنا... ودفعني بعد سنوات قلائل إلى المساهمة في أي حدث يعبر فيه العراقيون عن كراهيتهم هذه... وزادني في حقدي أننا عندما كنا، نحن مجموعة من الصبيان، نتجه إلى ساحة الطيران للعب كرة القدم هناك، أن أرى أروع مناطقها وروابيها الخضراء قد سيجت بالأسلاك الشائكة وخصصت للعب الإنكليز كرة الهوكي والقدم، وكان ممنوع علينا الاقتراب منها، وإلا تعرضنا لأشد أنواع العقاب.

في عام (١٩٤٨م) حيث لم أكن قد تجاوزت من العمر الثمان، كنت أنا وأخي وخالي نتجول كعادتنا في شوارع الموصل... وما لبثنا، وعلى حين غرّة، أن سمعنا أصواتاً كقصف الرعد، تنطلق من مكان قريب من مركز الشرطة العام في بداية شارع العدالة، ومع هزيم الأصوات زخات متعاقبة من الرصاص،

وركض وصراخ، اختلط بمحاولات عدد من الأشقياء اقتحام بعض المحلات لسرقتها، وكان على رأسها مخازن (حسّو أخوان) المترعة بالبضائع الأجنبية، والتي كانت تقع أسفل سينما الملك غازي بجوار مركز الشرطة.

انتابنا خوف شديدٌ ورحنا نركض مبتعدين قدر الإمكان عن مصدر الأصوات، وموغلين في شرايين سوق باب السراي بحثاً عن مأوى نلتجئ إليه... وما لبثت خطانا أن قادتنا إلى خان لأحد الفحامين، فاستقبلنا بحفاوة، وطمأننا، وأدخلنا إحدى غرف الخان، حيث بقينا هناك بعض الوقت، ثم ما لبثنا أن غادرنا المكان عائدين إلى دارنا في محلة جامع خزام، ونحن نتصبّب لهاثاً وعرقاً!!

كانت تلك امتداداً للتظاهرات الحاشدة في بغداد، والتي ذهب ضحيتها عدد من الشهداء والشباب، ضد معاهدة (بورتسموث) التي عقدها وزير الخارجية العراقي (صالح جبر) مع الحكومة البريطانية، والتي قيل يومها ـ ولم يدر أحد صحة ما قيل ـ أنها قدمت للإنكليز الكثير من التنازلات بخصوص هيمنتهم على مقدرات الحكم في العراق، وأن لها ذيولاً تتعلق بمطامح الصهيونية لإنشاء دولتهم المغتصبة في فلسطين.

في معطيات علم النفس أن الخبرات المؤثرة من الطفولة تنطبع في الجملة العصبية للإنسان، وتساهم في تشكيل تركيبه النفسي فيما بعد... وكان يجب بخبرتي هذه مع وقائع تظاهرات ١٩٤٨م) أن تجعلني في حالة توجس دائم من الاقتراب من أية تظاهرة أو حشد جماهيري... ولكن الذي حدث عبر السنوات التالية هو عكس ما يتنبأ به علماء النفس... رغبة جارفة في المشاركة في أية تظاهرة تشهدها مدينتي أو أي من مدن العراق... بل بحث عنها خشية أن تفوتني الفرصة!! وهكذا وجدتني أشارك في كل التظاهرات التي شهدها العصر الملكي، والعصر الجمهوري الذي أعقبه، وما أفرزه من تحديات الشيوعيين وفردانية عبد الكريم قاسم.

ما لبث عام (١٩٤٨م) نفسه أن جرّعنا المرارة الكبرى: اغتصاب فلسطين

وفق مؤامرة دولية شاركت في حبكها الصهيونية وبريطانيا وأمريكا والاتحاد السوفياتي... وحكامنا العرب... كنت يومها قد شببت عن الطوق وبدأت أدرك الأمور جيداً، وترسّبت في نفسي يومها حفنة من المرارات، ظلت تتزايد بمرور الأيام عبر مسلسل طويل من الهزائم والانكسارات، التي كانت في كل مرة تترك في فمي طعم العلقم...

ثم ما لبثت واقعة اغتيال الإمام الشهيد حسن البنا، الذي كنا نتسامع بجهده الهائل لبناء جيل من الشباب يعرف كيف يجتاز محنة الأمة، ويقودها إلى الخروج من المأزق الذي وضعها فيه ساستها وقادتها في كل مكان، وكيف أن هذا الجيل دخل متطوعاً حرب فلسطين، وألحق العديد من الخسائر في قوات الصهاينة، وحمى العديد من المواقع من السقوط في أيديها، وحقق من الانتصارات ما لم تحققه الجيوش الرسمية في الكثير من الوقائع... وها هو الآن يكافأ بتعرضه للاغتيال، ويتركه ملك مصر فاروق ينزف حتى الموت... ثم وبموازاة هذا يصدر الأمر بحلّ جماعة الإخوان المسلمين التي سهر على تكوينها، وتصفية مقراتها والاستيلاء على موجوداتها، واستقبال أبطالها العائدين من الجبهة لوضعهم في السجون والمعتقلات!!

كانت الأنباء تصلنا عن طريق الراديو، والصحف والمجلات، والعديد من المسافرين إلى مصر أو العائدين منها، فكانت تطبق على نفوسنا بالهمّ الثقيل والحزن العميق، وتزيدنا كراهية للاستعمار وكل عملائه من الحكام والملوك العرب...

ثم ما لبث انقلاب عام (١٩٥٢م) أن وقع في مصر، فاستبشرنا به خيراً لأنه أطاح بطاغية مصر وعاهرها وقاتل شهيدها الإمام حسن البنا، ولم نكن ندرك يومها ما الذي يعنيه الانقلاب العسكري... فبعد عشرين عاماً من الواقعة أتيح لي أن أطلع وأجمع جملة كبيرة من الوثائق والتصريحات والشهادات التي تؤكد جميعاً أن إسرائيل والصهيونية كانت تسعى من وراء الانقلابات العسكرية إلى الإتيان بزعماء أكثر طواعية لمشاريعها، ولحمايتها من العدوان...

ومهما يكن من أمر؛ فإن الحملة الدموية الشرسة التي قام بها قائد الانقلاب (جمال عبد الناصر) ضد جماعة الإخوان المسلمين، بل ضد عدد من زملائه ورفاق انقلابه وعلى رأسهم اللواء محمد نجيب، لا يفسره ـ فقط ـ عشقه للتفرد بالسلطة وإعدام أي توجه ديمقراطي ممّا كان الشعب المصري قد بدأ يتذوق حلاوته في السنتين اللتين سبقتا الانقلاب على يد حزب الوفد، وإنما تنفيذاً لمؤامرة خطيرة حبكتها معه إسرائيل والدول الاستعمارية وعلى رأسها أمريكا، فيما هو مكشوف من تلك القناة التي ظلت مفتوحة بين مصر والمخابرات الأمريكية... بين عرّاب الانقلاب: محمد حسنين هيكل وبين كبار القادة الأمريكيين... ومن خلال الصداقة الحميمة والزيارات شبه اليومية التي كانت تشهد لقاءات عبد الناصر بالسفير الأمريكي في القاهرة... ومن خلال وقوف أمريكا إلى جانب مصر زمن العدوان الثلاثي وإرغام إسرائيل وإنكلترا وفرنسا على الانسحاب، بعد تقديم مصر جملة من التنازلات الاستراتيجية الخطيرة لإسرائيل، والتي أوصلتها إلى البحر الأحمر والعمق الإفريقي.

شهادة قد لا يقبل بها الكثيرون ممن يتعاملون مع الظواهر من أحد أطرافها الختامية، وليس من بداياتها الأولى. وبداياتها الأولى تشهد بغير ما انتهت إليه الأمور من المزيد من الخسائر والمآسي فيما بعد.

في ربيع ذلك العام انشغل العراق والموصل، بالاحتفالات الرسمية والشعبية المتواصلة ترحيباً بتتويج الملك فيصل الثاني... كان رد فعل الموصليين يتمثل بفرحتهم الغامرة بانفكاك قبضة الوصي (عبد الإله) عن مقدرات الحكم في العراق، وترك اتخاذ القرار لابن أخته (فيصل الثاني)، الذي لم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من عمره، وكان محبوباً لدى معظم جماهير الموصل... ولذا فما أن أعلن عن بدء احتفاليات تتويجه في مايس من عام (١٩٥٣م)؛ حتى أقيمت أقواس النصر في شوارع المدينة، وعلقت الفوانيس الملونة الكبيرة على الواجهات والجدران... وأطلقت الألعاب النارية، وخرج الناس زرافات ووحداناً يتجولون عبر الليل في شوارع المدينة لمشاهدة هذا الذي يجري فيها،

وللمشاركة في الاحتفاليات... وكنت أنا وابن عمي شمس الدين الحاج محمد نخرج يومياً، لكي نتجول نحن الآخرون إلى ساعة متأخرة من الليل... كنا حتى ذلك الوقت نحمل الكثير من الودّ والمحبة للملك، ونحاول أن نفصل في عاطفتنا تجاهه، بينه وبين كل من الوصي ونوري السعيد... حتى أننا عندما سمعنا يوماً أنه تعرض لكسر بسيط في كتفه خلال استحمامه، انتابنا الحزن، ورحنا نتابع الموضوع حتى اطمأننا على سلامته!!

إن عاطفة الإنسان، وما يخفق في جنباته وبين ضلوعه، ليست ملكه في كثير من الأحيان... وهي طالما تشكلت خارج دائرة إرادته وتحليله العقلي... وبخاصة في أيام الطفولة والصبا، ولعلّ هذا ما يفسّر انقلابي عليه، وفرحي الغامر بالإطاحة به، بعد سنوات قلائل من تاريخ تتويجه ملكاً على العراق.

في بداية صيف عام (١٩٥٣م)، وكنت قد تخرجت من السادس الابتدائي، جاءني ابن عمي هشام الطالب، لكي يحكي لي ويغريني بالانتماء إلى جماعة الإخوان المسلمين... وقال لي بأن الأمر لا يحتاج لأكثر من الذهاب إلى حافة نهر دجلة أسفل قلعة باشطابيا، لكي يقلنا زورق من هناك إلى الجانب الأيسر من النهر، حيث أقام الإخوان (جردغاً صيفياً) يمارس فيه الاستحمام، والألعاب الرياضية، وتلقى الدروس والمحاضرات، وتدور الأحاديث، ويستقبل الزوار... يا لها من فرصة طيبة، قالها هشام بحرارة، فما لبثت أن وجدتها ــ بالفعل ــ الفرصة المناسبة للالتحام بمجموعة أكبر من الأصدقاء، والتعبير عن الذات بالانتماء إلى جماعة تعمل لهذا الدين وتسعى إلى نشره بين الناس...

وتوجهت بمعيته عصر اليوم نفسه، ودونما أي قدر من التردّد، إلى المكان المشار إليه، حيث كان الزورق يتمايل على شاطئ دجلة، يقوده الأخ (غازي حمودات) شقيق رئيس التنظيم الأستاذ غانم حمودات رحمه الله، فقفزنا فرحين إلى الزورق، وسلمنا على الأخ غازي، الذي ما لبث أن انطلق بنا مجتازاً النهر صوب الجردغ، حيث تعرّفنا على الشباب المتواجدين هناك، ثم انطلقنا بعد ذلك نمارس الرياضة، والنزول إلى النهر، ثم خرج لكي نؤدي صلاة المغرب

ونستمع للمحاضرة اليومية التي كان يتكفل بإلقائها الأستاذ غانم حمودات، ثم ننساح بعدها في الأحاديث حتى صلاة العشاء، لكي ما نلبث أن نقفل بعدها عائدين إلى دورنا.

كانت التجربة مغرية حقاً، لكني لم ألحظ فيها النية الواضحة لفكرة التنظيم ومطالبه الأساسية، أن تسجل أسماء المنتسبين ودرجة كل واحد منهم، والمبالغ المالية المترتبة على انتمائه، والأسرة التي سينتمي إليها، والمسؤول عن كل أسرة... إنما تركت المسألة سائبة هكذا لكل من يريد أن يأتي إلى الجردغ فيقضي فيه الساعات الطوال. ومع ذلك ظللت أداوم فيه بشكل شبه يومي، على مدى الصيف كلّه، وقد تكفل بإعادتي على دراجته البخارية يومياً أحد أصدقاء الجردغ.

وكنا نذهب أحياناً خلال الصباح إلى مقر الجماعة الكائن في بيت كبير استؤجر في محلة حوش الخان المجاورة للسرجخانة، حيث نقضي بعض الأوقات في المطالعة في مكتبة المقرّ، أو لتبادل الأحاديث، ويوماً كُلفت أنا وابن عمي هشام، وأخ ثالث هو (لقمان الحاج داود) شقيق الدكتور إدريس الحاج داود ﷺ رئيس فرع الحزب الإسلامي في الموصل بعد احتلال العراق على يد الأمريكان، بأن نذهب إلى محطة القطار لاستقبال الحاج رفيق، أحد الإخوان السوريين القادمين من دمشق في زيارة لمقر الجماعة، وأن نبدأ قبل ذلك، بتنظيف البيت الذي استؤجر لسكناه وعائلته... فشمرنا عن ساعد الجد وقمنا نحن الثلاثة بحملة شاملة للتنظيف، بحيث أن الغبار أحاط بنا من كل جانب، ثم ما لبثنا أن استأجرنا عربة من تلك التي يجرها حصان واحد، ويممنا وجوهنا صوب المحطة، حيث إذا ما وصل ما يسمى بقطار الشرق السريع القادم من الحدود السورية، استقبلنا الحاج رفيق وأسرته وأوصلناهم إلى البيت الذي استؤجر لهم. ومن المفارقات العجيبة أن لقمان هذا سرعان ما انجرف مع التيار الشيوعي الذي نشط في الموصل بعد انقلاب عام (١٩٥٨م)، ثم غادر العراق إلى رومانيا حيث توفي هناك.

وفي يوم من الأيام، وأنا جالس في مكتبة المقر أطالع في كتاب، إذا بالأخ

الحاج عبد الحافظ سليمان، الرجل الثاني في التنظيم المحلي للإخوان، يربت على كتفي، التفت إليه، فإذا به يحمل كتاباً صغيراً عن حياة أحد الصحابة (رضي الله عنهم)، ويقول لي: إن عليّ أن آخذ هذا الكتاب معي وأقوم بتلخيصه خلال بضعة أيام ثم أعود لتسليمه والملخص إياه... أحسست لحظتها بأن جبلاً هائلاً من الهم والغم والحيرة تستقر على كتفي، ولم أشأ أن أعترض، وإنما أخذت الكتاب وغادرت المكتبة لا ألوي على شيء... ولعدة ساعات بعدها، وأنا أتقلب ـ كما يقول المثل ـ على جمر الغضا، إذ كيف سيتاح لي تنفيذ المطلوب؟! ولكني ما لبثت أن وجدت الحلّ: أن أعيد الكتاب وحده إلى المكتبة مع أحد الأخوة، وأن أغادر الارتباط بالجماعة إلى غير رجعة، وحينذاك فقط تنفست الصعداء... رحمك الله يا عبد الحافظ (يا صديقي الحميم فيما بعد) بقدر ما كنت رجلاً محبوباً، وأريحياً، وسمحاً... بحيث أنك تناسيت الواجب الذي كلفتني به دون أن تسأل عنه فتضعني في دائرة الإحراج...

في السنة التالية شاركت وأحد أبناء عمومتي في حضور كل التجمعات الجماهيرية الحاشدة التي أقيمت في أماكن شتى من الموصل استعداداً للحملة الانتخابية لمجلس النواب... ولا زلت أذكر بعض أسماء المرشحين: عبد الجبار الجومرد... غربي الحاج أحمد... محمد حديد... صديق شنشل... عبد الله ليون... وآخرين، حيث ما لبثوا أن اكتسحوا مقاعد البرلمان باعتبارهم جبهة المعارضة لأحزاب الحكومة، وعلى رأسها حزب نوري السعيد، لكن هذا ما لبث بعد أن رأى النتيجة أن أعلن عن حلّ المجلس الأمر الذي زاد من الاحتقان السياسي في البلد، حتى إذا جاء عام (١٩٥٦م)، ووقع العدوان الثلاثي على مصر تكهربت الأجواء وأصبحت تنذر بالويل، واعتقدت الجماهير ـ وربما تكون قد أخطأت التقدير ـ أن الحكومة العراقية وعلى رأسها نوري السعيد، تقف مع صف المعتدين، فانفجرت التظاهرات في مدن العراق كافة وعلى رأسها الموصل.

وخرجت وثلة من الأصدقاء نتجول في شوارع الموصل باحثين عن تظاهرة

تعلن استنكارها للموقف العراقي لغرض المشاركة فيها، والتنفيس عما كان يعتمل في نفوسنا من غليان... وفي اليوم التالي، وأنا في طريقي إلى الإعدادية الشرقية، سمعت من وراء أسوارها صرخات جماعية تشق عنان السماء، ورأيت باب المدرسة مقفلاً، فخشيت أن أحرم فرصة المشاركة، لكنني التصقت بالباب ورحت أقرع عليه بعنف، ولحسن الحظ فإن أحد الفراشين كان يقف خلفه ففتحه لي قائلاً: ادخل بسرعة... وما لبث أن أقفل الباب.

كان الطلاب قد احتشدوا في حديقة المدرسة الخلفية، ثم انطلقوا إلى داخل فناء المدرسة وهم يرفعون أصواتهم وصرخاتهم بالتنديد بالعدوان وبكل من يسانده، ويطالبون بإسقاط نوري السعيد، وراح الخطباء يصعدون بين الحين والحين على أكتاف المتظاهرين لكي يرفعوا عقيرتهم بكلمة أو قصيدة أو هتاف، ووقفت أنا مع الواقفين أهتف وأصفق وأشارك في الصراخ... حتى إذا ما مضت ساعة على ذلك؛ خرج مدير المدرسة (محمود الجومرد) لكي يعلن عن وقف الدوام ويطلب منا الانصراف... فما كان من الجمع إلا أن انفض بانتظار فرص أكثر مواتاة للتعبير عن غضبه في شوارع الموصل وساحاتها.

عدت إلى البيت لتناول الغداء والانطلاق سريعاً إلى شارع غازي للمشاركة في مسيرة جماهيرية كبيرة يقودها شيوخ المعارضة في الموصل وعلى رأسهم (محمد علي الخشاب)، ثم ما لبثت الأحكام العرفية أن أعلنت في عموم العراق، ونشر اللواء الخامس المتمركز في الموصل قواته في شوارع المدينة ومفاصلها الحساسة تحسباً لكل طارئ.

في مساء ذلك اليوم، وكنت أقف على سياج السطح العلوي لدار عمي الحاج محمد، أصخت السمع للأصوات القادمة من الجهة الغربية للموصل... تبيّن لي أن تظاهرة ليلية كبرى تجمعت في ساحة رأس الجادة وانطلقت مجتازة شارع نينوى، فشارع غازي، باتجاه مركز الشرطة العام، حيث جوبهت مقدمتها بوابل من الرصاص سقط على أثره عدد من الجرحى، واستشهد أحد أفراد عائلة البارودي.

في اليوم التالي أعيد المشهد، وخرجت في الموصل جملة من التظاهرات، رداً على ما جرى يوم أمس... وقد أتيح لي وعدد من الأصدقاء المشاركة في بعضها. ولحسن الحظ فإن آمر اللواء الخامس كان اللواء الركن الحاج محمود شيت خطاب (الصديق الحميم فيما بعد، رحمه الله)، وكان بميوله الوطنية وتكوينه الديني الأصيل يسعى إلى كسب الجماهير وعدم استفزازها، الأمر الذي ساعد على إطفاء النار بأقل قدر من الخسائر.

ثم ما لبث أن أعلن عن تعطيل الدوام في المدارس كافة لمدة شهر بكامله، فكان فرصة رائعة للانكباب على القراءة النهمة للكتب... في البيت والمكتبة العامة والحدائق والمتنزهات والكازينوات، حتى إذا انتهى موعد تعطيل الدوام اتجهنا إلى مدارسنا، لكننا ما أن دخلناها حتى علا صراخ الطلبة مرةً أخرى بأشد من ذي قبل، وقرروا هذه المرة إعلان الاعتصام في الثانوية الشرقية، والإضراب عن الطعام حتى يستجاب لمطاليبهم وكان من بينها إقالة نوري السعيد والخروج من حلف بغداد وتأميم النفط!!

ومضت ساعات النهار والخطباء يعقب بعضهم بعضاً، حتى حانت ساعة الغروب وحل الظلام (وكان من بينهم مؤيد معمر وحسن علي وعبد الإله رحاوي والشاعر محسن عقراوي وآخرون)... وما لبث بعض الطلبة أن لجؤوا إلى المناضد الدراسية يكسرون خشبها ويلقونه في النار بحثاً عن التدفئة!! وفئة أخرى جمعت ما تقدر عليه من الرحلات ووضعتها خلف بوابة المدرسة الرئيسية تحسباً منهم لاقتحام رجال الجيش، الذي جاء أحد قادتهم وأخذ يخاطب جموع المتظاهرين من وراء الباب بأن يكفوا عن الصراخ، وأن يغادروا المدرسة عائدين إلى دورهم، وهو يعدهم بشرفه العسكري بالسعي لتنفيذ مطالبهم!! لكن أحداً من الطلبة لم يستجب لنداءاته وتوسلاته.

لكن الفتق ما لبث أن ألقى بظلاله على وحدة الطلبة... فكان أول من خرق مبدأ الإضراب عن الطعام هم معظم قادة التظاهرة من القوميين والشيوعيين، أما نحن المحسوبين على الخط الإسلامي، فقد أعلنّا تمسُّكنا بالإضراب حتى

اللحظة الأخيرة... فلما حلت صبيحة اليوم التالي بدأت صواني الأطعمة والشاي والفاكهة تنهال على المعتصمين من وراء أسوار المدرسة، فما كان من الفئة التي أصرّت على موقفها إلا أن تجد عبث الإصرار وتتلقى هي الأخرى وجباتها من الطعام... ولا زلت أذكر أبي رَحِمَهُ اللهُ وهو متسلق جدار المدرسة، وبيده طبق القيمر والخبز، وهو يجيل بصره بين الطلبة بحثاً عني، حتى إذا رآني أشار علي بأن أتقدم إليه وأتسلم حصتي من الطعام... كان منظره مؤثراً إلى حد كبير، ولقد أرغمني على تلبية طلبه أسوةً بالطلبة الآخرين...

ثم ما لبث الفتق الثاني أن أخذ يتسع متمثلاً بتلك الثغرة الجانبية غير المكشوفة من أحد جدران المدرسة، والتي أخذ الطلبة يتسللون منها واحداً بعد الآخر، وعلى رأسهم قادة الاعتصام، وبمرور الوقت شعرنا بأننا بقينا وحدنا نحن قلة من الطلبة بحيث لم يبق لاستمرارنا على الاعتصام أي معنى، فغادرنا المكان عائدين مع حلول المغرب إلى دورنا، لكي ما نلبث أن نتلقى أمراً آخر بتعطيل الدراسة في المدارس حتى إشعار آخر.

ولا زلت أذكر أني وصلت البيت وأنا جائع متعب، وأني جلست عند حافة النافذة متخذاً منها منضدة لتناول طعامي، ورحت ألتهمه لأكثر من ساعة، ثم ما لبثت أن وضعت رأسي على الوسادة ورحت في نوم عميق...

والحق أن الجماهير، وكما يؤكد علماء الاجتماع، طالما حركها ما يسمى بالعقل الجمعي الذي سرعان ما يستجيب للمؤثرات الخارجية دون أن يزنها بعقله، وقبل أن يمحصها ويتأكد من أبعادها الحقيقية، إذا به يندفع بردود أفعال قد تكون طائشة في كثير من الأحيان... وأنى للإنسان في مرحلة صباه وشبابه أن يمارس تمحيص المؤثرات وأن يزنها بميزان العقل الراجح، بينما هو أسير عواطفه وانفعالاته؟!

ولا زلت أذكر إحدى المفارقات الطريفة، يومذاك... حيث كنت أسجل يومياتي على دفتر صغير بسطر أو بضعة أسطر في اليوم الواحد، وكنت قد تعرّفت على صديق حميم هو الأخ (حكمت سليمان)، الذي كان طالباً بعد في

المتوسطة، والذي كان قد اعتقل بسبب نشاطه الملحوظ في متوسطته، ولكنه ما لبث أن تلقى أمراً بالإفراج عنه بعد أيام قلائل، إلا أنه فوجئ في اليوم نفسه بإعادة اعتقاله مرةً أخرى... فماذا كتبت عن الحادثة التي آلمتني كثيراً... عبارة واحدة تحسباً للجانب الأمني: (خرج ثم دخل!!) دونما أية إشارة إلى اسمه!! وعلى مدى عشرات السنين، وكلما أتيح لي اللقاء به تكون كلمة السرّ بيني وبينه (خرج ثم دخل) مع الضحك العميق الخارج من القلب... يا لتلك الأيام السعيدة!!

في منتصف عام (١٩٥٧م) أتيح لي أن أنتمي لجماعة الإخوان المسلمين للمرة الثانية، هذه المرة بمعية صديقي الحميم في الإعدادية الشرقية (عماد قاصد الحرباوي) ذي المزاج الانفعالي، والذي آلمه يوماً أن يسلّم على مجموعة من الإخوان في الجردغ الصيفي، ويبدو أنهم كانوا منهمكين في الحديث فلم يردوا عليه، فما كان منه إلا أن يعلن تركه للإخوان، ثم ما يلبث أن ينتمي لحين من الوقت إلى صفوف الحزب الديمقراطي ويتحول عنه إلى حزب البعث ثم يبقى فيه متقدّماً بخطوات واسعة في المناصب الحزبية، حتى دهي باستشهاد ابنه الوحيد في (الحرب العراقية ـ الإيرانية) ثم بإصابته بجلطة كادت تأتي عليه (عافاه الله)...

والمهم أن سبب انتمائي هذه المرة هو الجردغ نفسه الذي سبق وأن أغراني عام (١٩٥٣م)، ومع الجردغ جملة من الرحلات الربيعية، بمعية قائد الجماعة الأستاذ غانم حمودات، إلى منطقة السفينة المطلة على نهر دجلة جنوبي الموصل، أو إلى تلعفر حيث الأجواء الماطرة جعلتنا نظل جالسين في اللوري الذي غطي بجادر سميك، فكانت تلك من أعذب الساعات التي شهدتها تلك الرحلات. ولا زلت أذكر أننا قبل بدء انهمار المطر جلسنا في العراء على شكل حلقة كبيرة، وطلب من كل واحد منا أن يقرأ آية من القرآن ثم يعرّف بنفسه... وإذا بالأستاذ غانم حمودات بعد أن أجال بصره في الموجودين يقع نظره عليّ، ويطلب مني إلقاء كلمة في الموجودين... فأرتج عليّ، وتملّكني خجل

يصعب وصفه، أنا الذي لم يسبق لي على الإطلاق حتى ذلك الوقت، أن ألقيت كلمة في جمع من الناس... وكلما مضى الوقت والأستاذ يركز نظره عليّ منتظراً أن أبدأ الحديث كنت أحسّ بالاختناق والحرج أكثر فأكثر، وظللت حتى النهاية صامتاً لا أحير بكلمة واحدة... ولو بكلمة اعتذار... فما كان منه إلا أن يوجه الطلب لغيري...

ويا سبحان الله على هاتين المفارقتين: العجز عن تلخيص كتاب صغير، فيما سبب خروجي عن الإخوان، والخجل من إلقاء كلمة فيما وضعني في دائرة الحرج... أنا الذي كتبت فيما بعد آلاف الصفحات. وألقيت عشرات الكلمات والمحاضرات ومئاتها.. لعله الخزين المكبوت الذي يظل يبحث عن فرصته المناسبة للتعبير عن نفسه، ولعله رد الفعل الذي يجيء بالقوة نفسها، ولكن بالاتجاه المعاكس لما تشكل به الفعل الخاطئ أول مرة.

في العام التالي (١٩٥٨م) أعلن في العراق عن إجراء انتخابات جديدة للمجلس النيابي، وكان أحد المرشحين هو زعيم حركة الإخوان المسلمين في العراق: الشيخ محمد محمود الصواف رَحِمَهُ اللَّهُ... رشح نفسه عن مدينته التي ولد فيها: الموصل... ولا زلت أذكر ذلك الاجتماع الحاشد الذي عقد في دار أحد أقربائه في محلة الإمام عون الدين، حيث حضرنا جميعاً واستمعنا للتوجيهات الخاصة بالعملية الانتخابية، وكنا واثقين من فوزه... لكن الذي حدث هو واحدة من أكثر أعمال التزوير الانتخابية بشاعة ومكشوفية... بحيث أن باصات النقل العام أممت لنقل مؤيدي نوري السعيد ومرشحي أحزاب الحكومة، وانتهى الأمر بسقوط معظم مرشحي المعارضة وعلى رأسهم (الصواف)، الذي ما لبث أن أصدر كراساً صريحاً بعنوان (هذا بيان للناس) يكشف فيه المساحة الكبيرة للتزوير الذي شهدته تلك الحملة الانتخابية، ويندّد بمصير الظالمين بشكل صريح دونما أي قدر من التوجس أو الخوف... وخرجنا إلى محطة القطار لتوديعه وهو عائد إلى العاصمة بغداد، حيث وقف على درج القطار وألقى خطبة نارية ضد الحكومة لم تكن لتقلّ ضراوة وعنفاً عما قاله في كراس (هذا

بيان للناس)... ولعل ما شهدته هذه الحملة الانتخابية في عموم العراق، هو مما عجّل بانقلاب (١٤ تموز) الذي أطاح بالملكية وقضى على نوري السعيد.

استمرت صلتي بحركة الإخوان طيلة عام (١٩٥٧م) وحتى منتصف عام (١٩٥٨م)، حيث كان ارتباطي بالأخ (يحيى علي علاوي) رحمه الله، الذي كنت أخرج معه إلى براري الموصل بشكل شبه يومي نتناقش في شؤون الجماعة ونتبادل الأحاديث عما يشهده العراق... ولا زلت أذكر يوم زارنا الأخ (نعمان عبد الرزاق السامرائي) أحد كبار المسؤولين في الإخوان، وذهبنا في رحلة غداء إلى منطقة غابات الموصل حيث تلقينا منه محاضرة قيمة، قفل بعدها عائداً إلى بغداد.

لا أدري ما الذي دفعني إلى الانفكاك الثاني عن الإخوان... لعله طبعي الذي لا يرتاح للارتباط... لعلها بعض النقدات التي راحت تتجمع في نفسي وفي نفوس عدد آخر من المنتمين ضد بعض تصرفات الإخوان... لعله غياب الانضباط الحزبي الذي يدوّن قوائم ثابتة بأسماء المنتمين واشتراكاتهم... ولعلها غيرها من الأسباب التي لا أستطيع أن أضع يدي عليها بالتحديد... وأقول: هذه هي!!

بعد أيام قلائل من تحوّلنا من بيتنا القديم في محلة جامع خزام إلى الدار الجديدة التي بناها والدي في محلة الغزلاني قريباً من الجدار الذي يحيط ببناية سجن الموصل المركزي، حيث الفضاء المكشوف أمامه والبنايات المتفرقة التي تفصل بينها الأراضي الخضراء... وحيث السكينة والهدوء.. وقع انقلاب (١٤ تموز) عام (١٩٥٨م) الذي أطاح بالنظام الملكي وأعلن الجمهورية...

كنت صبيحة ذلك اليوم نائماً كعادتي في سطح الدار، فإذا بي أستيقظ على صرخات زوج خالتي (سالم محضر باشي) ذي الميول القومية، وهو يصعد إلى السطح صائحاً والفرحة تملأ جوانحه: لقد وقع الانقلاب، وعُيِّن صديق شنشل وعبد الجبار الجومرد وزيرين في الحكومة الجديدة... ثم ما لبث أن غادر المكان... فما كان مني إلا أن انهض قائماً والفرحة الطاغية تجتاح

مشاعري، وأسرع بالنزول إلى أسفل الدار لاستبدال ملابسي، والخروج بمعية أخي الأكبر (مظفر) للمشاركة في التظاهرات الحاشدة، التي انفجرت في الموصل لحظة سماع البيان الأول من راديو بغداد.

التحقنا بالتظاهرة الرئيسية عند نقطة اتصال شارع غازي بشارع العدالة حيث يقوم مركز الشرطة العام واندمجنا فيها ورحنا نهتف مع الهاتفين... ولا زلت أذكر، وربما كان هذا أوّل انشقاق مبكر بين جبهتي الشعب العراقي: الجبهة القومية الإسلامية والجبهة الديمقراطية الشيوعية، حيث كانت كل جبهة تنادي بشعارها الخاص... فالجبهة الأولى كانت تهتف بالوحدة الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة، والجبهة الأخرى كانت تهتف بالاتحاد الفيدرالي والصداقة السوفياتية... ووقفت متحدياً أمام أحد الشيوعيين ورحت أرفع ندائي بأقصى ما أستطيع: (وحدة... وحدة عربية لا شرقية ولا غربية) وراح هو يهتف (اتحاد فيدرالي... صداقة سوفياتية) حتى كدنا أن نتضارب بالأيدي، لولا الزخم الكبير للتظاهرة الذي فرّق بيننا، واندفع كل منا يهتف مع جماعته بما هو مقتنع به.

وبعد أن وصلنا (دار الضباط)، حيث أُسقطت صورة الملك الكبيرة المعلقة على واجهته.. انفضّت التظاهرة، وعدنا نحن إلى دورنا لمتابعة تفاصيل الأحداث من راديو بغداد، الذي ما لبث أن أعلن عن النجاح التام للانقلاب، ووصول الزعيم عبد الكريم قاسم على رأس اللواء التاسع عشر، واستقراره في وزارة الدفاع رئيساً للوزراء وقائداً للقوات المسلحة، وتعيين القائد الفعلي للانقلاب: العقيد عبد السلام عارف نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للداخلية... ثم أعلنت أسماء التشكيلة الوزارية الجديدة...

كان الفرح والابتهاج يتملكنا ونحن ننصت لإذاعة بغداد، التي أصبحت تسمي نفسها (إذاعة الجمهورية العراقية) فيما كان أشبه بالحلم الذي راودنا السنين الطوال... ثم ما لبثت أنباء مقتل الوصي والملك ونوري السعيد أن بدأت تترى،

ونحن نتابعها بشغف، رغم ما اختلط فيها من تصرفات في غاية السوء بخصوص التعامل مع جثتي الوصي ونوري السعيد، كان الشيوعيون والغوغاء يقفون وراءها.

ومنذ ذلك اليوم، وعلى مدى الأيام التالية، كانت شرفة بيتنا الجديد المطلة على الفضاء المترامي أمامها، تشهد مجلساً يومياً كان أبي يعقده عصر كل يوم لثلة من أصدقائه المؤيدين للانقلاب، حيث تدور الأحاديث والتعقيبات وتنطلق التحليلات بخصوص ما تشهده الساحة.

وبعد يومين أو ثلاثة من الانقلاب تنامى إلى مسامع أبناء الموصل نبأ زيارة سيقوم بها عبد السلام عارف نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية لمدينة الموصل، وأنه سيلقي خطاباً جامعاً في ساحة الطيران، فما كان منا إلا أن غادرنا مبكرين، واتخذنا أماكننا في الساحة الكبيرة قبالة شرفتها التي كان يطل منها العقيد عبد السلام بملابسه الكاكي العسكرية، حيث بدأ بإلقاء خطابه.

ما لبث معظم الموجودين أن فوجئوا بضحالة الخطاب، وتفككه، ولهجته العامية، وانفعاليته... بحيث أنهم عادوا إلى دورهم وقد أصيبوا بخيبة أمل قاسية، وهم يجدون رمز ثورتهم، وقائدها الفعلي، يتحدث إليهم بهذا الأسلوب الغوغائي، الذي لا يربط بين فقراته أي رباط... حتى أننا رحنا نتابع خطاباته في المحافظات الأخرى عبر الراديو في الأيام التالية، فإذا بها تنبض بالشيء نفسه من الاضطراب والفوضى، والجهل والتفكك، وحتى أننا رحنا نقول في أنفسنا لعل الزعيم عبد الكريم قاسم سيرتاح لهذه الخطب التي ستضعف مركز عبد السلام عارف، الذي بدا منذ اللحظات الأولى كما لو كان قطباً في مواجهة عبد الكريم الذي آثر الصمت، وراح يعمل بهدوء ملحوظ.

لقد كان انقلاب (١٤ تموز)، بإيجابياته وسلبياته معاً... بصفحاته البيضاء والسوداء... بدء مرحلة جديدة، ليس على مستوى العراق فحسب، بل على المستوى الفردي لجيلنا الذي كان قد أنهى المراحل المبكرة من دراسته ووضع أولى خطواته باتجاه الدراسة الجامعية.

الفصل الثالث

١٩٥٨ ـ ١٩٦٢م

عالم جديد، بكل ما تعنيه الكلمة من معنى... موقع الكلية الجميل الذي تخترقه سكة الحديد الذاهبة شرقاً، والعائدة إلى بغداد... الأبنية التدريسية والأقسام الداخلية... المكتبة المتخمة بالكتب والمطعم الأنيق... الحدائق والساحات والأشجار التي تظلل ممرات الكلية... النادي وساحة الألعاب الرياضية... الأضواء وعروض الزينة الملوّنة... والاحتفاليات شبه اليومية... والأغاني والأناشيد... والمحاضرات ذات النكهة الخاصة بأساتذتها الكبار الذين لم يقدّم لنا معظمهم شيئاً مما كنا نطمح إليه... وجبات الطعام الأنيقة حيث خصص لكل ستة طلبة منضدة خاصة وحصتهم من الغداء أو العشاء... الأجواء الخريفية بنسماتها العذبة التي تنعش الروح... الأحاسيس الرومانسية التي تجد نفسك منساقاً إليها وسط هذه الظروف جميعاً... القسم الداخلي الملاصق للكلّية، والذي اخترنا فيه نحن ستة من الطلبة الموصليين إحدى غرفه لكي نمضي ساعات الليل فيها...

كانت الأيام الأولى للدوام أشبه بالحلم... نوع من الإعجاب والدهشة والاندماج بجوار الكثير من أحاسيس الرفض والانفصال والرغبة في الفرار... ولقد لعب المناخ السياسي الذي خيّم على تلك الأيام دوره الرئيسي في تشكيل هذا الحلم المزدوج، حيث كانت كليتنا بالذات مأوى مناسباً للمنتمين للحزب الشيوعي، والديمقراطيين والانتهازيين ومحبي الزعيم عبد الكريم قاسم... ربما بسبب ما تتميز به عن غيرها من أقسام داخلية ووجبات طعام تعين الفقراء

على مواصلة دراستهم... وربما بسبب الحنين والإحساس القاسي بالغربة، وربما لأسباب أخرى.

وعلى أية حال فقد كانت كليتنا تسمى مجازاً بالصين الشيوعية، وكان (مهدي الحافظ) (السياسي الذي برز ثانية في الساحات العراقية بعد الاحتلال بآرائه ومواقفه الموزونة) يقود اتحاد طلبتها، وهو جيش جرار من العقائديين والانتهازيين... وكنا نحن الإسلاميين والقوميين والبعثيين والمستقلين نحتل بقعاً صغيرة في النسيج العام لطلبة كليتنا... لكن قوة إيماننا، ومجابهتنا الصريحة، ورغبتنا في التحدّي، جعلت كفة الصراع تميل بمرور الأيام لصالحنا.. ولكن ليس قبل مضي العام الأول الذي مثل قمة الصعود الشيوعي في أجهزة الدولة ومؤسساتها.

بمجرد صدور قوائم الطلبة المقبولين في كلية التربية، قمت برحلتي الدراسية الأولى إلى بغداد لاستكمال الأمور الإجرائية، بما فيها المقابلة التي سئلت فيها عن آخر ما قرأته فكان جوابي: (السلام العالمي في الإسلام) لسيّد قطب، و(نيتشه) لكاتب ألماني، ورحت أشرح لأعضاء اللجنة ماذا أضاف هذان الكتابان لي من حصيلة معرفية، فأعجبت اللجنة بإجابتي وأذنت لي بالانصراف، حيث غادرت الكلية وأنا أحس بسعادة بالغة وكأني حصلت على المطلوب وهو إشارة القبول لدخولي الكلية بأقسامها الداخلية...

يومذاك كانت بغداد، بشوارعها وساحاتها، تعج بالتظاهرات الجماهيرية الحاشدة التي يقودها الشيوعيون ويغذيها الانتهازيون والديمقراطيون، تأييداً للزعيم عبد الكريم قاسم، فيما كانت القوى المضادة المؤيدة لعبد السلام عارف، نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية، تلتزم السكوت يومها... وانتابني، وأنا أقف دقائق معدودات على حافة رصيف في شارع الرشيد إحساس هائل بالقرف والاشمئزاز، ليس لتوجهات هذه التظاهرات فحسب، بل للأجواء الغوغائية التي تسيّرها... نوع من التخمة والإشباع الزائد من كل حشد جماهيري... نوع من الإحساس بالاستفزاز للصرخات المجنونة التي كانت تدوّم

في سماء بغداد، رغم أنني كنت إلى عهد قريب، وقريب جداً، من عشاق التظاهرات والمساهمين في حشود الشوارع والساحات.

عدت إلى الموصل ليوم أو يومين، ثم ما لبثت أن حملت متاعي وقفلت ثانيةً في القطار الصاعد إلى بغداد لكي أبدأ الدوام... كان اختياري لقسم التاريخ قد حسم دون تردد، بعد أن لمست في قسم اللغة العربية وطرائق التدريس فيه، ما لا يحفز على التفوق والإبداع... أو هكذا خيل لي أنا على الأقل، وبخاصة بعد أن لاحقت أحد أساتذته بجملة من الأسئلة التي كنت أبحث فيها عن جواب، فأعطاني أذناً من طين وأخرى من عجين... ولكني ما لبثت في القسم الذي آثرت الانتماء إليه، أن تبين لي أنه هو الآخر يعاني من الموات... وعلى مدى السنوات الجامعية الأربع ازدادت قناعتي بهذا الذي ذهبت إليه...

ورغم أن معظم أساتذتنا كانوا من عمالقة الفكر والتأليف، وممن يشار إليهم بالبنان، إلّا أنهم ـ على ما يبدو ـ كانوا يؤثرون في عملهم التدريسي، الراحة والسلامة، ولا يبذلون أي جهد يذكر في إعطائنا شيئاً مما يملكون... ولعلهم استغلوا فرصة دخول العراق في دوّامة الانقلاب والصراعات السياسية التي رافقته، فانتهزوها لكي لا يقوموا ـ كما هو شأن العمل الأكاديمي ـ بأي جهد ملحوظ في إعداد محاضراتهم... فكان معظمهم ممن يكتفون بالإملاء علينا صفحات محدودة لا تتجاوز العشرين أو الثلاثين لكي نمارس فيها الامتحان، وهي صفحات لا تنطوي على أي قدر من الإضافة المعرفية، أو الإبداع اللذين يتحتم أن تتميز بهما المحاضرات الجامعية، ورغم أن الإملاء عليه خط أحمر في التدريس الجامعي، إلّا أنهم بسبب غياب الرقابة الأكاديمية تساهلوا في الأمر، ربما لادخار قدراتهم في أعمالهم التأليفية وليذهب طلبتهم إلى الجحيم!

ومن بين ما يقرب من عشرين أستاذاً جامعياً تناولوا تدريسنا عبر السنوات الأربع؛ لم نحس بالجهد الحقيقي إلا لدى قلة منهم (رحمهم الله)... ولا زلت أذكر هؤلاء الأساتذة، رغم هذا، بكل محبة واعتزاز، وأترحم عليهم

كلما خطر أحدهم في بالي... الأستاذ الدكتور جواد علي... الأستاذ الدكتور علي الوردي... الأستاذ الدكتور محمد الهاشمي... الأستاذ الدكتور خالد الهاشمي... الأستاذ حسين أمين (الذي لم يكن قد حصل بعد على الدكتوراه)... الأستاذ الدكتور محمود غناوي الزهيري... الأستاذ الدكتور محمد حامد الطائي... الأستاذ الدكتور علي المياح... الأستاذ الدكتور وفيق الخشاب... الأستاذ طه باقر... الأستاذ فرج بصمه جي، الأستاذ عبدالوهاب الدباغ، الأستاذ الدكتور محمد محمد صالح... الأستاذ الدكتور فاضل حسين... الدكتور مسارع الراوي... الأستاذ الدكتور عبد الجليل الزوبعي... الدكتور حمد دلّي الكربولي... الدكتور حمودي عبد المجيد... والأستاذ الدكتور إبراهيم العدوي (المصري الجنسية).

وكان بعض الأساتذة، لأسباب علمانية، وربما طائفية، يدسّون السمّ بالعسل، فاستنفرت قدراتي المحدودة يومذاك، للردّ عليهم والتصدّي لهم، وكنت رغم ذلك أخرج في معظم معاركي معهم منتصراً... وسرعان ما انضاف إلي عدد من الطلبة الذين رأوا سكوتهم أمراً غير مقبول، فأصبحنا جبهة قبالة هؤلاء الأساتذة الذين راحوا يترددون عشرين مرة قبل أن يطرحوا رؤاهم المخالفة لثوابت هذا الدين ومعطيات تاريخه وحضارته... ولكنهم ـ والحق يقال ـ لم يتخذوا من العقاب بالدرجات أسلوباً لكفِّنا عن الجدل والنقاش، بل إنهم كانوا يعطون كلَّ ذي حق حقه... (رحمهم الله)...

وكنت مع اقتراب مواعيد الامتحانات الشهرية، أو الفصلية، والسنوية، أبذل جهداً استثنائياً للحصول على أعلى الدرجات، وأحصر نفسي الساعات الطوال في مراجعة المواد الامتحانية في مكتبة الكلية أو ساحاتها العامة... وبسبب من حرصي الزائد حوّلت حياتي الجامعية عبر سنواتها الأربع إلى جحيم من الهمّ والقلق والمتابعة المتواصلة والدراسة التي لم تدعني أرتاح إلا قليلاً... لعلّ ذلك ليس فقط لرغبتي في التفوّق، وإنما للحصول على ما يؤهلني مستقبلاً لإكمال دراستي العليا... فلما تبين لي فيما بعد أن أكثر الطلبة كسلاً وتدنياً في

معدلاتهم، واصلوا هم الآخرون، دراساتهم العليا، أحسست بندم عميق على ما ضيعت من جهد، أفقد حلقة من أعذب سنوات العمر طعمها، وحوّلها إلى قلق وهمّ وتوفّز وجهد مكافح لا يعرف للراحة والاسترخاء نصيباً... ولكن ماذا ينفع الندم بعد فوات الأوان؟!

ومع ذلك كلّه فقد تركت لي الحياة الجامعية مساحات كبيرة من المتعة والسعادة والفرح... وقضاء أوقات مترعة بالتوافق والانسجام... بدءاً من لحظات الحصول على النتائج الامتحانية بمعدلاتها العليا... مروراً باختيار ثلة من الأصدقاء الذين كنت أمارس معهم جولات التخطي اليومي في ممرات الكلية ونحن نتبادل الأحاديث، أو نغادر بغداد ـ بمعية أحد أساتذتنا أحياناً ـ في رحلات خريفية وربيعية إلى سامراء أو الحبانية أو بابل أو المحافظات الجنوبية... أو نقوم في أمسية كل خميس باجتياز شارع الرشيد من بدئه حتى منتهاه لتناول الطعام والجلوس في هذا المقهى أو ذاك... وللاطلاع على العروض الرائعة للكتب والمبيعات في محلات هذا الشارع الذي كان يخفق بالأضواء... وكان ـ بحق ـ قلب بغداد النابض.

إلّا أن المساحة الأوسع لمتعتي تمثلت بعشقي لمتابعة الأنشطة الرياضية في نوادي بغداد وساحاتها وملاعبها، فما من استعراض كبير للكلية أو الجامعة أو النوادي أو الجيش إلا وكنت أهرع إليه مبكراً وأحجز مكاناً لي يمكنني من بلِّ شوقي لكل التفاصيل.

وكان (نادي الهواة) في باب المعظم مكاني المفضل لمتابعة سباقات الدوري الممتاز في كرة السلة لنوادي بغداد ومؤسساتها الرياضية، حتى أني لكثرة زياراتي رحت أحفظ أسماء وملامح اللاعبين الكبار، واحداً واحداً... ومع هذا النادي لم تفتني مناسبة رياضية شهدتها ساحة الكشافة، وهي الساحة الوحيدة في بغداد يومذاك إلّا وكنت حاضراً فيها، عبر السباقات الدولية في كرة القدم بين منتخب العراق والمنتخبات الزائرة من تركيا ومصر ويوغسلافيا وغيرها من البلدان... وكذلك الحال مع لقاءات الدوري الممتاز لكرة القدم بين فرق الجوية

والشرطة وآليات الجيش والفرقة الثالثة وأمانة العاصمة، حيث كنت أحفظ عن ظهر قلب أسماء وملامح معظم لاعبيها (من مثل عمو بابا، قاسم زوية، هشام عطا، جبار رشك، صاحب علوان، جمولي، ثامر، شامل فليح، شامل طبرة، عبد كاظم، قيس، كوركيس إسماعيل...) وغيرهم كثيرون...

ولا زلت أذكر ذلك اللقاء الرائع في ألعاب الساحة والميدان بين الفريقين العراقي والإيراني، حيث بلغ التشجيع للفريق العراقي أوجه، وصراخنا، وقفزاتنا من مقاعدنا تصك الأسماع... وحيث استطاع هذا الفريق التفوق في مجموع النقاط على الفريق الإيراني، وحيث استطاع لاعبون كبار كخضير زلاطة، ومحمد العربي، وغيرهما أن يكسروا أرقاماً قياسية في الأركاض القصيرة والقفز بالعصا... لقد كانت تلك المناسبات تمثل بالنسبة لي قمة السعادة والفرح والانسجام.

ولكن هذا كلّه لم يكن ليعدل أمسياتنا الرائعة في الأقسام الداخلية حتى ساعة متأخرة من كل ليلة من ليالي الموسم الدراسي الطويل، حيث كنا نختار في بدء كل موسم المجموعة الموصلية المنسجمة والمتآلفة، لكي نقضي العام بتوافق ومحبة، ونحن نعيش في غرفة واحدة... نلعب ونتحاور، ونتبادل المقالب والنكات، وننكب على القراءة أو الدراسة، أو كتابة البحوث والتقارير، أو نشرب الشاي ونتناول الطعام...

وكانت أمسياتنا تلك مما لا يمكن أن ينسى، وكانت ـ بحق ـ الحلقة الأكثر سعادة وجمالاً، عبر حياتنا الجامعية على تنوّعها... ولقد أتيح لي أن أسجل العديد من صفحاتها في دفاتر مذكراتي الموجزة التي يجد القارئ جانباً منها في ملاحق هذه السيرة.

وكانت عوداتنا الدورية إلى الموصل الغالية، لدى كل مناسبة، وبخاصة النصف الثاني من رمضان، وعطلتَي نصف السنة والعطلة الصيفية، تمثل حلقة رائعة أخرى من حياتنا الجامعية... كنا نستيقظ يغمرنا فرح عميق، ونخرج حقائبنا الصغيرة ونتجه إلى محطة القطار، أو كراج باصات (الانكرلي)

الرائعة، لكي ما نلبث بعد ساعات طوال أن نجد أنفسنا قبالة أضواء الموصل المتلالئة عبر روابي البو سيف، وندخل الدار بعد غياب الشهرين أو الثلاثة لكي نبلّ الشوق من رؤية الأهل وتناول وجبات الطعام الموصلي الرائع، الذي حرمناه في بغداد والذي كانت والدتي (رحمها الله) تتفنن في صنعه.

في إحدى عوداتنا إلى الموصل، وكان الموسم ربيعاً، والأمطار غزيرة، انطلق بنا الباص شمالاً، حتى إذا قطع شوطاً من الطريق، إذا به ينزلق باتجاه يسار الشارع على أرض طينية قد حفرت فيها السيول وادياً عميقاً... فتشهدنا ودعونا الله ﷻ أن ينجينا مما لا تحمد عقباه، فما لبث الباص أن توقف وهو يميل بشكل مخيف على أحد جانبيه، حتى قيض له مجموعة من الأشخاص أعادوه إلى وضعه الطبيعي، حيث انطلق عائداً بنا إلى الموصل ونحن نحمد الله ﷻ على أن أنقذنا من هلاك محتوم.

ثمة لقطات من حياتنا الجامعية تلك تفرض نفسها على الذاكرة... ولن يتسع المجال لاستعراضها جميعاً ولذا سألجأ إلى الاختيار...

يوماً ونحن نتلقى نتائج امتحاننا في تاريخ العرب قبل الإسلام من لدن أستاذنا الدكتور جواد علي رحمه الله حتى إذا ما وصل إلى ورقتي راح يحدّق فيَّ طويلاً وأطال التحديق... الأمر الذي آثار مخاوفي من نتيجة سيئة، وقلت في نفسي: لا بدّ وأن إجابتي لم تكن بالمستوى المطلوب، وأنها ربما أثارت انزعاج الأستاذ... ولكنه ما لبث أن قرأ اسمي بصوت عالٍ وأردف: مائة!!

دهشت لوقع المفاجأة، إذ كيف يتأتى لطالب مهما كانت إجابته متقنة أن يأخذ درجة كاملة في مادة التاريخ الذي ينتمي إلى حقل الإنسانيات والذي يصعب فيه أمرٌ كهذا، خاصة وأن أسئلة الأستاذ كانت تتضمن جوانب فكرية خارجة عن المقرر... إن الحصول على الدرجة الكاملة قد تحدث في المواد العلمية الصرفة، أما في التاريخ فإنها من قبيل المستحيلات... ولكني ما لبثت أن شكرت الأستاذ وتقبلت هديته القيمة بامتنان عميق، كيف لا وأنا الذي كنت أبحث دائماً عن الدرجات الأعلى؟!

يوماً أثار الأستاذ الدكتور محمد الهاشمي قضية الشك في العلاقة بين العلم والقرآن الكريم، فما لبثت أن رفعت يدي للرد عليه، فلم يكترث بي، فألححت عليه، فلما أعطاني الفرصة إذا بي أسرد عليه جملة من الآيات التي جاء العلم الحديث لتأكيد مصداقيتها المطلقة... فما كان منه إلا أن يغير موقفه ثم يستشهد بالآية الكريمة: ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]... إذن فقد غير الرجل موقفه في لحظات!!

في إحدى محاضرات رمضان عام (١٩٥٩م) جاءنا الأستاذ الدكتور علي الوردي لكي يلقي علينا محاضرته في علم الاجتماع... كان الرجل علمانياً، وربما ميالاً للشيوعيين، يوم كان الشارع البغدادي لا ينطق إلا باسمهم، وبالتالي فهو والصيام على طرفي نقيض... ولكن كيف يبرر إفطاره أمام طلبته، فيما هو من الأمور المستهجنة وغير المقبولة؟ لقد تعمد أن يؤشر على طرف أصبعه قائلاً أنه تعرض لجرح وأنه ينزف، ولن يوقف النزيف سوى قليل من دخان السيكاير المحترق، ثم ما لبث أن أشعل سيكارته وأخذ نفساً عميقاً، ثم راح ينكث شيئاً من رمادها على رأس أصبعه، ونحن ننظر إليه ما بين رافض لتصرّفه هذا وما بين مقتنع به!!

أما محاضرات الدكتور عبد المجيد حمودي في أصول التربية، فكانت فصولاً من الضحك المتواصل، من بدء المحاضرة حتى ختامها، إن شخصيته عجيبة بقصر قامتها، وسمنتها المفرطة، وحركاتها البهلوانية ما بين المنصة وأرضية الصف... وانفصالها الكامل عن المادة المطبوعة التي يوزعها علينا، والتي لم نكد نفهم منها شيئاً، وكأنها قدمت إلينا من العالم الآخر، وما بين عرضه التدريسي الذي لا علاقة له مطلقاً بهذه المكتوبات الغامضة، والذي كان يلقيه بلهجته البغدادية الصرفة، محملاً بالشتائم والسباب وبكل مفردات القاموس الشعبي لما تحت السرّة كما يقولون، ونحن إزاء ذلك كله لا نملك التوقف عن الضحك المتواصل أمام هذا (البلياتشو) النادر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

في محاضرة في التاريخ الأوربي للأستاذ الدكتور محمد محمد صالح حدث نقاش حاد بينه وبين مراقب الصف (جمال البياتي)، فما كان من الأستاذ إلا أن يطلب من المراقب أن يترك الصف، فرفض هذا طلبه، وكان يستند إلى انتمائه للتيار القاسمي ـ الشيوعي... ولكن الأستاذ ما لبث أن أصرّ على موقفه، والطالب متسمّر في مكانه لا يكترث لطلب الأستاذ، فما كان من هذا الأخير إلا أن يحزم حقيبته ويغادر هو الصف بدلاً من المراقب!!

وكان الأستاذ الدكتور محمد الهاشمي يأتينا أحياناً بقطع من الورق المقوى، وقد دوّن عليها شيئاً مما سيمليه علينا، وكان وهو يمارس الإملاء يتغنى في أدائه بصوته العذب، حتى إذا ما انتهى من إحدى قطعه من الورق المقوى مزقها بعصبية ورمى بها في سلة المهملات!! ثم جاء إلى الثانية لكي يغنّيها علينا، ولا تنقضي المحاضرة إلا بثلاث أو أربع قطع من المقوى!!

وطالما جلس على الكرسي، ورفع قدميه واضعاً إياهما على المنضدة قبالة الطلبة، وهو يتحدث عن إبداع العرب الحضاري في الأندلس...

أما الدكتور غناوي الزهيري فكان يقضي محاضرته في اللغة العربية بتمامها في قراءات متواصلة في كتاب (الكامل) للمبرد، يكلف الطلاب بتنفيذها، ويتصدر هو كرسيه موزعاً نظراته على الجميع، حتى إذا ما أنهى الدرس غادر المكان.

وكان أكثر الأساتذة أريحية، والتحاماً بالطلاب، ومحبة لهم، هم الأستاذ الدكتور فاضل حسين، والأستاذ حسين أمين، والدكتور مسارع الراوي... كان أولهم يحب الطلبة الموصليين ويمنحهم عطفه وتشجيعه، وكان حسين أمين يعشق السفر والرحلات، وطالما خرج بطلبته إلى شتى المحافظات... وأما الراوي فكان يزورنا في الأقسام الداخلية وكنا نتعاطف معه بسبب موقفه ضد الشيوعية... ولم يكن ثمة يومها أي حسّ طائفي لدى أساتذتنا من الشيعة بدليل المواقف العديدة لفاضل حسين وحسين أمين من الموصليين... وعبر

طروحاتهم الفكرية في المحاضرات... إنما حلّت هذه اللعنة السوداء بعد الاحتلال الأمريكي للعراق عام (٢٠٠٣م) وبسببه!!

في حياتنا اليومية في القسم الداخلي كنا نشهد نمطاً آخر من المفارقات، حيث كنا نلعب الداما والشطرنج، ونتقاذف بالفرش والوسائد... ويلحق بعضنا بعضاً لكي يضع على رقبته شيئاً من المسحوق الذي يجعله يهرش دونما جدوى... ونشكل فريقين ينتمي إليهما لاعبون من الغرف والأقسام المجاورة للعب (المحيبس) في ليالي رمضان... وكنا نغادر القسم بعد منتصف الليل في طريقنا إلى مطعم الكلية لتناول السحور، ونحن نرفع عقيرتنا بالغناء أو الصراخ المرتفع عبر الطريق... وهذا كله إنما يعبر عن رغبتنا في التنفيس عما يسببه الجهد الدراسي من ضغط نفسي على جملتنا العصبية!!

كان كل واحد من سكنة غرفتنا يأتي في السنة بأكلة طيبة يتناولها الجميع عبر إحدى الأمسيات الصاخبة... فكنت أنا آتيهم بعلبة خشبية ملأى بحلاوة منّ السما التي سرعان ما تصبح في خبر كان، وكان الآخرون يأتون بالكبة الموصلية أو الباسطرمة... ويوماً ونحن نقف قبالة المقلاة لكي يتناول كل واحد منا حصته من الباسطرمة ويضعها في قطعة صمون ويلتهمها التهاماً... إذا بالباسطرمة تنفد ونحن بعد جوعى ولم نشبع، فما كان من الداعي الأخ (فاضل عبد الرزاق) ﷫ إلّا أن ابتكر حلّا طريفاً لإشباعنا، نهض من على المقلاة ونادى بأعلى صوته: أيها القوم! ليحتفظ كل واحد منكم بما يستخرجه من عجين صمونته... فما كان منا ونحن مندهشون إلا أن نفذنا طلبه، فراح فاضل يتسلم العجين من واحد واحد منا، ويقطعه على شكل كرات صغيرة يرمي بها في زيت الباسطرمة المتبقي في المقلاة ثم يحمص هذه الكرات ويسلمها إلى صاحبها... حقاً لقد كانت وجبة رائعة لا يمكن أن تنسى... وكما يقول المثل: فإن الحاجة هي أمّ الاختراع...

كان صديقنا المهندس المعماري يحيى البجدلي يسكن معنا في غرفة واحدة في دار الطلبة، وهو بناء حديث من ثلاثة أدوار خصص للسكن وإطعام

طلبة الصفوف المنتهية من جامعة بغداد... وكان البجدلي يسهر يومياً إلى ساعة متأخرة من الليل، منهمكاً برسوماته الهندسية... ثم ما يلبث أن يغادر الغرفة إلى التواليت، وعندما يقفل عائداً يرفع صوته عبر الممر الطويل بأصوات رعاة الغنم من البدو: (قرت ـ قرت...) ثم ما يلبث بعد أن يكون قد أزعج كل النائمين في الغرف المجاورة... أن يدخل غرفتنا ويقفل الباب جيداً... فيخرج أولئك الذين استفزتهم صرخاته ويصبون سيلاً من شتائمهم الرخيصة على هذا الذي يزعجهم كل يوم دون أن يتعرفوا عليه... فما كان منا نحن الخمسة الآخرون في الغرفة إلا أن دبرنا له مقلباً كي يكف عن تقليده السيئ هذا، واتفقنا أن نقفل الباب عندما يغادر الغرفة إلى التواليت، وأن نسنده بكل أسرّتنا الحديدية بحيث لا تستطيع قوة في الأرض أن تفتحه... وعاد البجدلي من التواليت وهو يرفع عقيرته بأنغام رعاة الغنم، مطمئناً كالعادة إلى دخول الغرفة وإقفال الباب قبل سماع الشتائم المنصبة عليه، ولكنه ما لبث أن فوجئ بإقفال الباب، فراح يضرب بكلتا يديه صائحاً: افتحوا لي أيها الأوباش، ويصب علينا سيلاً من الشتائم والسباب... وما لبث النائمون في الغرف المجاورة أن استيقظوا وغادروا غرفهم لكي يجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام هذا الذي مارس تعذيبهم الليالي الطوال... ولكم أن تتصوروا ما لقيه منهم من أفحش أنواع الشتائم والسباب، وربما الضرب بكل ما وصلت إليه أيديهم، ونحن قابعون خلف الباب نضحك حتى نكاد نستلقي على قفانا من شدة الضحك!!

في اليوم الأول لمبيتنا في دار الطلبة، لم نستطع أن نغفو لحظة واحدة...بسبب إطلالة غرفتنا على شارع الكفاح قريباً من الموقف المركزي لباصات نقل الركاب لمدينة بغداد كلها... ولكم أن تتصوروا الصخب المتواصل الذي كان يخترق مسامعنا من أصوات الباصات حتى ساعة متأخرة من الليل... فما نكاد أن نلتقط أنفاسنا ونتهيأ للنوم حتى يكون الفجر قد آذن بالشروق، وبدأت عشرات الباصات ومئاتها تزحف عند أسفل الغرفة بأصواتها التي لا تطاق...

في اليوم التالي، وأنا أعاني من الأرق والإعياء، رحت أبحث عن مكان بديل، فقادتني خطاي إلى قسم داخلي متواضع قبالة دار الطلبة، فما كان مني إلّا أن تحوّلت إليه واخترت سريراً مجاوراً لسرير الصديق (خالد يحيى التمر) طالب الهندسة ﵀، ولكني فوجئت بعد لحظات من وضع رأسي على الوسادة، بشخير عال يصدر عن أنف خالد الذي يعاني كما يبدو من شيء من التقوّس يجعل الهواء الداخل والخارج، يخرج نغمات قاسية في حدّتها... فرحت لكي أستعيد قدرتي على النوم أهمس في أذنه: (خالد... خالد... حاول أن تدير ظهرك لكي ينقطع الشخير) فلم يلتفت لتوسلاتي، ولم يكترث بطلبي، فرفعت صوتي دونما جدوى ثم رفعته إلى مداه الأقصى، وخالد مستغرق في نومه وشخيره، فما كان مني إلا أن أمسك بالمنضدة التي تفصل بين السريرين وأضرب بها بعنف حافة سريره دون جدوى... فما كان مني في فجر اليوم التالي إلا أن أحزم أمتعتي وأعود ثانيةً إلى غرفتي الأنيقة وأصدقائي الأعزاء في دار الطلبة، وكفى الله المؤمنين القتال!!

وفي صبيحة أحد الأيام قام ثلّة من الطلبة الأشقياء الذين سموا أنفسهم (حزب الديك) بدخول غرفة تشغيل أجهزة التدفئة والتبريد، والتي تتوزع منها الأنابيب التي توصل الهواء إلى غرف دار الطلبة تدفئة أو تبريداً، وأعلنوا عن قيامهم بانقلاب من خلال إصدار بيانهم الأول المليء بالفحش والسباب لكل الموجودين في الدار... والذي كانت تتخلله المارشات العسكرية التي يعزفونها بأفواههم... والطلبة في الغرف الأخرى كافة يكادون يستلقون على ظهورهم من الضحك العميق، ثم ما لبث العزف أن توقف، وإذاعة البيانات أن كفت عن الزعيق... وأعلن عن فشل المحاولة الانقلابية...

ويوماً وقع اشتباك عنيف بين غرفتنا في القسم الداخلي وغرفة أخرى تقع في الطابق العلوي، استخدمت فيه جراول الماء الذي راح ينصب على رؤوس الفريقين بغير حساب. وإذ شعر طلبة الغرفة العليا أنهم انتصروا علينا دخلوا غرفتهم وأقفلوا عليهم الأبواب... فما كان مني ومن الأخ هاشم الجماس ﵀

إلا أن نصعد إليهم بجرول من الماء القذر، ونتجه إلى النافذة الخلفية، حيث لم يكونوا يتوقعون أن يؤتوا من خلالها، فأضرب زجاجها بقبضة يدي، ومن خلال الفتحة التي أحدثتها فيه قام هاشم الجماس بإلقاء جرول الماء على الخصوم فأصابهم جميعاً الرشاش المترع بالأقذار، وغادرنا إلى غرفتنا ونحن نهزج بأناشيد الانتصار!!

بدأنا حياتنا الدراسية في كلية التربية مع بداية العصر الجمهوري... والهيمنة التدريجية للحزبين الشيوعي والديمقراطي على مقدرات الأمور في الشارع والمؤسسة، وفي كل مفاصل الدولة... كان اندفاعهم باتجاه الانفراد بالساحة رهيباً، وكنا نلحظ ذلك بوضوح فيما تشهده كليتنا التي سميت مجازاً بالصين الشعبية... وكان مفتاح انسياحهم الساحق وجرّهم في قطارهم كل القوى الانتهازية، أنهم ربطوا مصيرهم بزعامة عبد الكريم قاسم، معتقدين أنه شيوعي الفكر، والعقيدة، ومن أجل احتوائه أطلقوا عليه لقب (الزعيم الأوحد)، في محاولة منهم لإقصاء القطب الآخر الذي رمينا بثقلنا نحوه نحن الإسلاميين والقوميين والبعثيين: عبد السلام عارف، الذي بدأ الخناق يطبق عليه بسبب من سلامة نيته، وتهوره، وخطاباته المفككة الهشة التي لا يكاد أحد يعرف رأسها من قدميها.

في البدء كانت نقطة الصراع الأساسية بين الجبهتين هي قضية الوحدة الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة، أو الاتحاد الفيدرالي والصداقة السوفياتية، ولكنه ما لبث أن تشعب وامتد إلى نوع من الصراع على مراكز القوى والمفاصل الحساسة في الدولة، والانفراد بالسلطة...

وكانت تظاهرات الطرفين في الأشهر الأولى للثورة تعكس هذا الصراع الذي ما لبث أن تعرّض للجنوح الخطير لصالح قاسم والشيوعيين، بسبب ما ادُّعي من مؤامرة كان يعمل لها في الخفاء السياسي العراقي القديم (رشيد عالي الكيلاني) بالتنسيق مع عبد السلام عارف والكتلة المؤيدة له... ولقد ضخمت أجهزة الإعلام حجم المؤامرة المزعومة، بحيث تعطي المبرر لقاسم

إصدار قراره الذي أعلن فيه عن إقصاء عارف عن مناصبه كافة، وإبعاده سفيراً للعراق في ألمانيا الاتحادية، وإرغامه على مغادرة بغداد.

ولكن عارف ما لبث أن عاد سرّاً، وجابه قاسم في وزارة الدفاع، فيما قيل بأنه رفع مسدسه في وجهه وسعى لاغتياله، الأمر الذي انتهى به إلى الاعتقال وتقديمه وثلة من أصحابه لمحكمة المهداوي، التي كانت في حقيقتها لسان حال الحزب الشيوعي الذي وجدها فرصة مواتية، فاندفع في كل اتجاه لكي يهيمن على مقدرات العراق ويضع أنصاره ومؤيديه في المفاصل الحساسة للوزارات كافة.

ولا زلت أذكر كيف أصبحت ساحات كليتنا، وقاعاتها، ميداناً فسيحاً للدعاية الشيوعية، ولإقامة الندوات والمحاضرات التي كان يدعى إليها كبار رجالات الفكر الماركسي، فضلاً عن الاحتفالات المتواصلة التي كانت تشهد جملة من الأناشيد التي تمجّد الزعيم الأوحد، وتصب جام غضبها على ما تسميه: (القوى الرجعية) حتى أنهم سرقوا النشيد المصري الذي يمجد عبد الناصر وحولوه إلى عبد الكريم والذي يقول في مطلعه:

يا كريم يا حبيب الملايين ... للخير ماشيين للنور صاعدين
وياك يا حبيب الملايين ... إحنا الملايين... إحنا الملايين
صحّيت الشرق كالو ... ووديانو... ويا جبالو...
قام بشعوبو وأبطالو ... مع بطل الثورة العراقية

كان ذلك يستفزنا ويدفعنا للردّ... لكن التيار المضاد كان يومها عنيفاً صاخباً أرغمنا على الصمت والانتظار، حتى تحين اللحظة المناسبة للرد، وإن كانت الاستفزازات اليومية قائمة على قدم وساق بين الطرفين...

ثم ما لبثت أن وقعت الطامة الكبرى، ثورة الموصل التي لم يخطط لها بما فيه الكفاية، ولم يصبر قائدها عبد الوهاب الشواف لحين ترتيب الأمور مع القادة الآخرين في بغداد والمحافظات الأخرى... ولم تمارس الجمهورية

العربية المتحدة في إسنادها دوراً يذكر اللهم إلا بتسليمها إذاعة مختنقة وقليلاً من السلاح الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.

ولا زلت أذكر ذلك المساء المتوتر من يوم الأحد (٨ آذار ١٩٥٩م) حيث كنت أقف في ساحة ألعاب الكلية أتابع سباقاً في كرة السلة، فإذا بأحد الأصدقاء يقترب مني ويهمس في أذني: لقد أعلنت الموصل ثورتها ضد طاغية العراق. وها هي إذاعتها تعلن بياناتها المتعاقبة... وللوهلة الأولى غمرتني فرحة طاغية يصعب على الكلمات التعبير عنها، واعتقدت اعتقاداً جازماً بأن الثورة ستنتصر ولسوف يطاح بالزعيم عبد الكريم قاسم بمجرد أن تتصادى القيادات العسكرية في بغداد مع الثورة...

وعُدت وأصحابي إلى القسم الداخلي مخترقين حشوداً هائلة من المتظاهرين تأييداً للزعيم وتنديداً بالمتآمرين والرجعيين، بحيث أننا لو تباطأنا قليلاً واكتشفوا أمرنا لداسونا بأقدامهم ومزقونا إرباً... دخلنا غرفتنا وأقفلنا عليها الباب وأسندناه بسرير حديدي خشية دخولهم علينا، حيث كانت كل الغرف الأخرى في ذلك القسم الداخلي ممن يسكنها الشيوعيون والانتهازيون الذين راحوا يسلطون علينا سيلاً من الشتائم والاتهامات... وقررنا أن نمسك خفارة جماعية وألا نسمح لأنفسنا بالنوم حتى مطلع الصباح... وكنا ننصت بهدوء إلى إذاعة الموصل المختنقة، ونمني أنفسنا بالانتصار رغم فشل كل المحاولات التي قامت بها طائراتها لقصف المواقع الحساسة في بغداد.

وفي اليوم التالي كانت الضربة الموجعة حيث تبيّن لنا تعرض مقر الشواف لضربة جوية سريعة أصابت القائد جراح خطيرة، ثم ما لبث أن نقل إلى مستشفى الميدان حيث ما لبث أن لفظ أنفاسه وبدا لكبار ضباطه من الانقلابيين عبث استمرارهم في الثورة، فألقي القبض على العديد منهم بينما لاذ الآخرون بالفرار... وانطلق الشيوعيون في الموصل كوحش كاسر، يقتلون ويسحلون ويعلقون الجثث على أعمدة الكهرباء ويعيثون في الموصل دماراً وتخريباً.

انفرط عقدنا في القسم الداخلي، وغادرناه قبل أن يمارس شيوعيوه الانتقام ضدنا، وتسللنا الواحد إثر الآخر كل إلى الجهة التي يجد فيها مأواه... اتجهت أنا إلى الأعظمية وجلست قليلاً في ساحة عنتر أتابع الأحداث، حيث كان طلبة كلية العلوم القريبة من الساحة يغادرون كليتهم القريبة من الساحة للمساهمة في التظاهرات الكبرى المؤيدة للزعيم عبد الكريم والمنددة بمؤامرة الرجعيين، ثم ما لبثت أن يممت وجهي صوب شقة أخي وخالي في رأس الحواش في مدخل الأعظمية، حيث اعترض علي أحد شباب المقاومة الشعبية، التي كان الحزب الشيوعي قد شكلها كأحد الأجنحة المساندة لمساعيه في الهيمنة على مقدرات العراق، وطلب تفتيشي... كنت أحمل معي دفتر مذكراتي الذي كنت أدوّن فيه خبراتي ومشاهدتي يوماً بيوم، فخشيت أن يمعن النظر فيها وحينذاك قد يقع المحذور... ورحت أدعو الله ﷻ أن يضلله، إذ سرعان ما أعاد إليّ الدفتر وسمح لي بالمرور...

قضينا في شقة أخي ليلة ليلاء، كانت أصوات الجماهير الغاضبة تخترق أبوابها وزجاجها المغلق بعنف وضراوة، وكنا نتوقع دخولهم علينا في أية لحظة... ولكن الله سلّم... ثم ما لبثت أنا وخالي وعبد الكريم اليوزبكي، وهو رفيق بعثي متقدم كان يسكن معهم في الشقة نفسها، أن استأجرنا سيارة تاكسي أقلتنا عن طريق كركوك إلى الموصل، حيث بتنا ليلة في كركوك، وفي صبيحة اليوم التالي انطلقنا إلى الموصل، والأفكار السوداء حول مصير أهلينا ومدينتنا تحاصرنا في كل لحظة... حتى إذا ما بلغنا الموصل حمدنا الله على سلامتهم جميعاً... وكان شهر رمضان قد حلّ، فتناولنا سحورنا في أجواء نفسية يصعب وصفها، ثم سلّمنا أنفسنا لنوم عميق.

في اليوم التالي جاءني ابن عمي (إنعام الطالب) فخرجنا نتجول في أنحاء الطيران، ونمرّ ببيت الشيخ نوري الفيصل الذي قتله الشيوعيون واقتحموا داره وتركوها خراباً... وكانت أصوات الرصاص تطرق أسماعنا بين الحين والحين، ولعلّها كانت تصدر عن مقرّ المحكمة الشيوعية التي تزعمها (عبد

الرحمن القصاب)، والتي نفذت فيها جملة من أحكام الإعدام بحق العديد من المؤيدين للثورة والمساهمين فيها، بينما سيق الآخرون إلى السجون والمعتقلات، لكي يلاقوا هناك الأمرّين على يد جلاوزة شباب المقاومة الشعبية... ثم ما لبثت أن عدت بالقطار إلى بغداد ثانية للالتحاق بالدوام...

غادرت المحطة والاحساس بالضياع يحاصرني، والاكتئاب يسد عليّ الطريق، ورحت أضرب في شارع الرشيد والشوارع الفرعية المحيطة به على غير هدى، بحثاً عن نقطة ارتكاز ذهني أستند عليها في تعاملي مع المرئيات ولكن دون جدوى... فما كان مني إلا أن أتجه إلى القسم الداخلي، وأضع رأسي على الوسادة وأغط في نوم عميق، لكي أستيقظ قبيل موعد الإفطار، حيث اتجهت إلى الكلية، فوجدت الأخوة بحمد الله قد فرشوا سجادات الصلاة وراحوا يصلون وراء الإمام معلنين تحدّيهم المبكر للشيوعيين، الذين أحاطوا بهم بنظراتهم المترعة بالحقد، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً...

في اليوم الأوّل من مايس عام (١٩٥٩م)، وهو ذكرى اليوم العالمي لعيد العمال، بلغ الشيوعيون قمة مجدهم، وحركوا في ذلك اليوم تظاهرتهم المليونية التي استمرت تنساب في شارع الرشيد، وتمرّ قريباً من منصة الزعيم عبد الكريم قاسم، منذ الصباح المبكر وحتى ساعة متأخرة من الليل... ولقد دفعهم إعجابهم بهذا الحشد الساحق إلى المطالبة بالمشاركة في الوزارة، وكان هتافهم الذي ظل يتردّد ذلك اليوم بطوله، وباللهجة ذات التأثير الفارسي عليها:

عاش زعيمي عبد الكريمي
حزب الشيوعي بالحكم مطلب عظيمي!!

وما لبث عبد الكريم أن استجاب لطبهم وعين (نزيهة الدليمي) العضوة البارزة في الحزب الشيوعي العراقي وزيرة للبلديات... فأصبح نداؤهم في التظاهرات التالية:

نزيهة صارت بالحكم موتوا يا بعثية!!

وكان هذا أحد أخطائهم القاتلة، كما أشار إلى ذلك البيان الذي أصدره

الحزب الشيوعي في أعقاب قيام ثورة الرابع عشر من رمضان التي سحقت الشيوعيين بغير ما رحمة... أنهم ضخموا في إعلامهم الحجم الحقيقي لحزب البعث، وأصبحوا يطلقون على كل خصومهم من الإسلاميين والقوميين والمستقلين اسم (البعثيين).

ثم ما لبثت الذكرى الأولى لثورة الرابع عشر من تموز أن حلّت عام (١٩٥٩م)، حيث أقيمت الاحتفالات ونصبت أقواس النصر، ونظمت المسيرات الحاشدة في مدن العراق كافة. فما كان من الشيوعيين في بعض المحافظات، وبخاصة في كركوك، إلا أن انتهزوها فرصة لتصفية خصومهم، فأجروا تلك المذبحة الدامية التي ذهب ضحيتها العديد من شباب التركمان الذين رفضوا الانضواء وراء الإغواء الشيوعي... ويبدو أن عبد الكريم قاسم الذي سار بموازاة الحزب الشيوعي حتى آخر لحظة... كان يبيت لهم ضربة موجعة، توقفهم عند حدهم وتكف تطلعاتهم للانفراد بالسلطة، فما كان منه إلا أن يقف في إحدى كنائس بغداد ويعلن إدانته للشيوعيين، ويتهمهم بأنهم لا يقلون قسوةً وهمجية عن المغول الذين ذبحوا بغداد!!

وكان ذلك بمثابة إشارة واضحة للقوى القومية والإسلامية والبعثية والمستقلة، أن تتحرك بسرعة لتوظيف الخطاب وتضييق الخناق على الشيوعيين... فما لبثنا في اليوم التالي أن وجدنا أنفسنا قبالة سيل من الإعلانات والملصقات وبرقيات التأييد لعبد الكريم قاسم، حتى أن جماهير الأعظمية رفعوا سيارته بأذرعهم وهم يصفقون ويهتفون!!

ثم ما لبثت حملة واسعة من الاعتقالات والتحقيق مع كبار الزعماء الشيوعيين الذين ساهموا في مجزرة الموصل... وكنا نجلس مساء كل يوم في مقهى الخيام في الدواسة بالموصل نتبادل الأخبار والأحاديث، وبين الحين والآخر، نتلقى خبراً بالقبض على أحد الزعماء الشيوعيين وسوقه للتحقيق والاعتقال... فكانت قلوبنا تمتلئ فرحاً وغبطة بهذا الانقلاب الفجائي للسلطة،

التي كانت إلى وقت قريب تمد الحبل على غاربه لأنشطة الحزب الشيوعي وإعلامهم وتنظيماتهم...

لكن الفرح لن يدوم... تماماً كما أن الأحزان لن تدوم... ويظل الطرفان يتعاقبان على مسرح الحياة... ويظل المبدأ الثابت الذي يدير الأمور بإرادة الله ﷻ، هو الآية القرآنية الكريمة: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦]!!

إذ ما لبث المهداوي، الذي كبت بالتطورات الأخيرة، أن انتهز فرصة إعدام وجبتين من كبار الضباط المشاركين في ثورة الموصل، فراح يرفع عقيرته بالاستفزاز والصراخ، وكانت الوجبة الأخرى التي تتجاوز العشرين ضابطاً تضم خيرة القادة العسكريين من المشاركين في ثورة ١٤ تموز، والمؤسسين لتنظيمات الضباط الأحرار من مثل رفعت الحاج سري وناظم الطبقجلي ورفاقهم...

في ليلة محزنة من ليالي آب وصلت الموصل أنباء الإعدام الجماعي لتلك الزمرة المباركة من الضباط، فجر ذلك اليوم في ساحة أم الطبول، فما لبثت الموصل أن تداعت في اليوم التالي لتظاهرات حاشدة شاركت فيها كل القوى المناهضة لقاسم والشيوعيين، وكانت تسير في مقدمة التظاهرة التي انطلقت من رأس الجادة، مجتازة شوارع الموصل، خطيبة المرحوم حازم خطاب وقد نكثت شعرها وراحت تلطم خدودها في منظر يبكي حتى الحجارة الصماء ويدفعها لأن تنبجس دموعاً حارة... وكنا نحن من ورائها نردد:

الله أكبر يا عرب شباباً جتلوها!!

وتصاعدت في الموصل عبر الأيام والشهور التالية حملة التصفية الجسدية لكبار الشيوعيين، وكنا نتابع أنشطة القوى التي تمارس المحاولة وهي قوى قومية وإسلامية وبعثية، ونستمع يومياً خبر مقتل الشيوعي الفلاني... والذي لم ينله القتل فرّ هارباً إلى بغداد لا يلوي على شيء... ويبدو أن أجهزة الأمن والشرطة التي كان ولاؤها للتوجه القومي، كانت بسبب كراهيتها للشيوعيين، تمارس التغطية على القتلة، فضلاً عن لعبة عبد الكريم قاسم التي مضت إلى

نهايتها المرسومة في تصفية الحزب الشيوعي العراقي وشلّه عن العمل، عبر السنوات التالية، رغم أنه يعد أحد أكبر الأحزاب الشيوعية في العالم. وقد استدعى عبد الكريم في لعبته هذه مؤيديه من الحزب الوطني الديمقراطي بأجنحته الفلاحية الحاشدة، التي كانت تجتاز بغداد في مسيراتها الكبرى وهي تهتف: بس اضرب حزب الشيطان يا كريم!!

ثم ما لبثت واقعة محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم التي نفذها حزب البعث في تشرين الأول من عام (١٩٥٩م) أن أخفقت، وسرعان ما كُشفت الجهة التي تقف خلفها حيث تم اعتقال معظم المشاركين فيها وتقديمهم لمحكمة المهداوي، الذي سعى جهده لنفخ النار المنطفئة في شرايين الحزب الشيوعي والتأليب على القوى المضادة... ولكنه لم يفلح... وكانت الرياح قد غيرت وجهتها، ولم يعد بمقدور الحزب الشيوعي نفسه أن يسترجع موقعه المتقدم... فقد خرج عبد الكريم قاسم سالماً من المحاولة... وبعد أقل من عام، وبمناسبة مغادرته مستشفى السلام الذي عولج فيه، وربما لتكوينه الأخلاقي الذي يميل إلى تغليب السماحة أحياناً، أصدر إلغاءه أحكام الإعدام على قادة البعث، والعفو على العديد منهم... بل إننا سمعنا أن ذلك تم بسبب الضغوط الدولية التي تعرّض لها عبد الكريم بأن أحزاب البعث في سوريا ولبنان قد تلجأ إلى تدمير أنابيب النفط العراقي المصدّر إلى البحر المتوسط، إذا ما قام بتنفيذ أحكام الإعدام...

ومن أجل المزيد من النكاية بالحزب الشيوعي، أوقف عبد الكريم جريدته اليومية (اتحاد الشعب)، وطلب من أحد الشيوعيين المتقاعدين وهو (داود الصايغ) تشكيل حزب شيوعي بديل، لا حول له ولا قوة، سرعان ما منح إجازة العمل، بينما منع الحزب الشيوعي العراقي من الحصول عليها.

في عام (١٩٦٠م) وأنا بعد طالب في الصف الثالث في كلية التربية، أعود ثالثة للانضمام إلى العمل مع الإخوان المسلمين، وبعد قليل مع الحزب الإسلامي الذي تشكل في ذلك العام، بعد أن اعترض قاسم على تشكيله، إلا

أنه ما لبث أن خضع لقرار محكمة التمييز ووافق على إنشائه... فاتحني أكثر من أخ في ضرورة الانتماء، وأن الذئب لا يأكل من الغنم إلا الشياه القاصية، ومن بين من فاتحني (يحيى علي علاوي) رَحِمَهُ اللَّهُ، وعبد الحافظ سليمان رَحِمَهُ اللَّهُ، و(ذنون يونس الأطرقجي) (الدكتور فيما بعد)، و(نشأة عبد الغفور) وغيرهم... كنت أجتاز في تلك المرحلة حالة غريبة من الرغبة الجارفة في الاعتقال... من الثورة العاتية في مواجهة السلطة... حتى أن رجال السلطة عندما جاؤوا يوماً إلى القسم الداخلي المجاور، تمنيت أن يجيئوا إلى قسمنا وأن يأخذوني معهم... بل إنني كتبت خطبة ملتهبة ورحت أنتظر الفرصة المواتية لإلقائها على منبر أحد الجوامع عبر صلاة الجمعة... وكنت وأنا أتجول في الشوارع عائداً من زيارة لهذا الصديق أو ذاك، كنت أجد جملتي العصبية مشدودة إلى مداها، وكأنها بانتظار اللحظة المواتية للانفجار... ولقد زادت التظاهرات الجماهيرية الحاشدة التي شهدتها بغداد ردّاً على إجراء قاسم برفع سعر البنزين وإضراب سواق السيارات، من هذا الإحساس المستعر بضرورة المشاركة في التضحية من أجل عقيدتي، وجماهير شعبي المغبون...

ولقد أتيح لي عبر تلك السنة التعبير عن شيء مما كان يعتلج في أعماقي من ثورة وجيشان، في المشاركة الفاعلة عبر كل الصراعات التي شهدتها كليتنا بين المجموعتين الشيوعية والقومية الإسلامية... أذكر منها تلك المعركة الطاحنة في نادي الكلية حيث التضارب بالكراسي، والحجارة، والأيدي والأقدام... ولقد بذلنا جهداً أسطورياً في التفوّق على خصومنا وإخراجهم هاربين من النادي إلى الساحة المجاورة فلاحقناهم بالحجارة هناك، فانسحبوا إلى سطوح بنايات الكلية وأقفلوا على أنفسهم الأبواب وراحوا يمطروننا بسيل من الحجارة كادت أن تصيبنا في مقتل ولكن الله سلّم...

وأذكر أيضاً ذلك اليوم الذي دخلت فيه إلى حدائق الكلّية، فإذا بي أجدني قبالة الشيوعيين وهم يتراكضون ذات اليمين وذات الشمال والقوى المضادة تلاحقهم، فما كان مني إلا أن أسدّد كلمة قاسية إلى أحد زعمائهم

ثم أمضي للبحث عن ضحية أخرى، حتى تمكنا من هزيمتهم شرّ هزيمة... وأذكر أيضاً أنني في صبيحة أحد الأيام، أدخل إلى فناء الكلّية، فإذا بالأخ (عدنان الدليمي) (الدكتور وزعيم الكتلة العراقية فيما بعد) يناديني ويقول بأن علينا اليوم أن نقوم بمحاولة لتأديب الشيوعيين الذين دخلوا المطعم لتناول الفطور، فاصطففنا على شكل خط طويل، بانتظار خروجهم لكي نلقنهم الدرس الذي لن ينسوه... لكنهم لم يخرجوا، وظلوا مختبئين في المطعم، ثم تبين لنا أن بعض عناصر الانضباط العسكري أعانتهم على التسلل من بوابة المطعم الخلفية... وأذكر أننا لاحقناهم يوماً في ساحات الكلية وأرغمناهم على الانسحاب إلى صفوف الدراسة حيث أقفلوا على أنفسهم الأبواب!!

وكنت أجد في التظاهرات التي تشهدها الكلية بين الحين والحين، فرصة مناسبة للتعبير عن ثورتي الجامحة، حتى أنني وقفت يوماً وسط تظاهرة من الإسلاميين ورفعت صوتي بأقصى ما أستطيع، الله أكبر والموت للطاغية... الله أكبر والموت للجزار... وهم يرددون ندائي... وانفضت التظاهرة وأنا أتوقع بأن أحد رجال الأمن سيلقي القبض علي ويقودني إلى التحقيق والاعتقال... إذ كان قاسم هو المقصود بالطاغية، والجزار... ولكن الله سلّم...

مهما يكن من أمر فقد وافقت أخيراً على الانتماء إلى الجماعة، والحزب، كان يتولى مسؤولية الارتباط بي الأخ نشأة عبد الغفور في بغداد، وعندما بدأت العطلة الصيفية ورجعنا إلى الموصل أصبح المسؤول هو (أكرم ضياء العمري) (الدكتور فيما بعد)، وكانت أسرتنا تتكون مني ومن محمد شاكر الغنام (رئيس الحزب الإسلامي في الموصل وعضو مجلس المحافظة فيما بعد) فضلاً عن مسؤولها أكرم العمري...

ولقد أتيح لي أن أحضر في بغداد جملة من الاجتماعات الجماهيرية الحاشدة للحزب الإسلامي في مقره في باب المعظم، وفي عدد من الكليات التي كانت قاعاتها تغص بالحضور، وأن أتابع موقفه الجريء من سياسات الزعيم، والذي نشره في جريدة الفيحاء التي لقيت يومذاك رواجاً كبيراً

وأصبحت النسخة الواحدة منها تباع بربع دينار وهو مبلغ كبير يومذاك... لأنها عبرت عما كان يعتلج في نفوس جماهير الشعب العراقي كافة، الأمر الذي دفع قاسم بإصدار أوامره بمصادرة الجريدة وحلّ الحزب الإسلامي واعتقال قادته.

كانت تتشكل في قناعاتي ـ وأغلب الظن أني كنت مخطئاً في ذلك ـ جملة من المآخذ والاعتراضات على سياسات الإخوان المسلمين، وتصرفات قادتهم، ثم ما لبثت بعد أن ازداد زخمها على جملتي العصبية أن كتبت تقريراً مفصلاً، كان الغرض منه محاولة جادة لتعديل الوقفة، وتصحيح الأخطاء ـ وسلمته إلى مسؤول الأسرة، ورحت أنتظر الجواب بفارغ الصبر، وبعد مرور الأسابيع الطوال تبين لي أن التقرير لم يرفع أساساً إلى القيادة في بغداد، فما كان مني إلا أن أغادر الجماعة للمرة الثالثة...

بعد سنة واحدة، وفي أعقاب جملة من الاتصالات والمناقشات بيني وبين عدد من الإخوة المسلمين؛ اقتنعت بالانضمام إلى (الجبهة الإسلامية) التي تشكلت لتدارك أخطاء الإخوان المسلمين، وللمضي قدماً بقطار العمل الدعوي إلى الأمام، وكان من بين الذين تحاوروا معي في الموضوع الأخوة: يحيى علي علاوي، وهشام الطالب، وداعية نشط يدعى (مؤيد البدري) (وهو غير ذاك المعروف في الوسط الرياضي)، وتم ارتباطي به في بغداد حيث كنت أحضر للماجستير، وعندما انتقلت للموصل أصبح ارتباطي بالأخ أحمد الدباغ، حيث تم عقد جملة من الاجتماعات التثقيفية في بغداد والموصل...

لكن هذا التشكيل ما لبث بعد سنوات قلائل أن تعرض لجملة من المشاكل والاختراقات الأمنية، فما كان منه إلا أن يحل نفسه، حيث كنت يومذاك أواصل دراستي للدكتوراه في القاهرة، فلما عدت إلى العراق فوجئت بتلك المتغيرات، وأصبحت للمرة الرابعة حرّاً من أي ارتباط حزبي أو تنظيمي، إذ سحبتني مشاريعي التأليفية إلى ساحتها فكدت أن أتفرغ لها تماماً.

ودائماً أقول في نفسي، رغم المبررات الكثيرة لتصرفاتي، إنني ربما أكون على خطأ وأسأل الله ﷻ المغفرة. لقد كنت أحسب نفسي دائماً، بما ينطوي

عليه عقلي من أفكار آمنت بها حتى النخاع، في أقصى يسار الحركات الإسلامية، إذا صح التعبير، وكنت أطمع أن ينطلق قطار الدعوة بأقصى سرعة، وبأشد الوتائر فاعلية للوصول إلى الأهداف... فلما كنت أجد ـ في بعض الأحيان ـ عكس ما كنت أطمح إليه، يصيبني الإحباط ويقودني إلى اتخاذ مواقف قد لا تكون مبررة على الإطلاق، بإحالة الوضع كله على شبكة معقدة من المعطيات أكثر تعقيداً بكثير مما كنت أتصور!!

ثمة جملة من الأحداث العامة في عامي (١٩٦١ ـ ١٩٦٢م) كان لها وقع عميق في نفسي، وعلى رأسها إعلان استقلال الجزائر، بعد أن قدمت مليون شهيد في سبيل هذا اليوم المشهود... ولقد عقدنا في نادي الكلية احتفالاً شاملاً إعراباً عن البهجة بهذا النصر الكبير الذي حققه ثوار الجزائر، ورحت أتابع بشغف وتخوّف ما شهدته الساحة الجزائرية بعد فترة قصيرة من الاستقلال، من ذلك الصراع بين الحكام المدنيين السابقين بقيادة يوسف بن خدة، الذي أصرّ على الاستئثار بالحكم وبين الثوار والقادة العسكريين، حتى أتيح لهؤلاء تحقيق الانتصار وتسلم قيادة الجزائر بزعامة (أحمد بن بلَّا) رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وكان الحدث الثاني، على العكس تماماً، مترعاً بالحزن والقهر... إنه واقعة الانفصال الذي شهدته الجمهورية العربية المتحدة بين سوريا ومصر، والذي أعاد عقارب الساعة والتاريخ إلى الوراء... وأذكر في أحد الأيام حيث دخل علينا الغرفة (قاسم يحيى رجب: وهو رفيق بعثي أصبح محافظاً للأنبار فيما بعد) وهو يسب ويشتم الإخوان المسلمين الذين كانوا السبب وراء هذا الانفصال، دون أن يدري هذا الرفيق أن حزب البعث السوري كان رأس الحربة في مأساة الانفصال، وأنه أعلن تأييده المطلق له منذ لحظاته الأولى، وأن الإخوان المسلمين كانوا من أشد المتشبثين بالوحدة، والحريصين على ديمومتها، والمضحين من أجلها بالمال والرجال...

ثم ما لبثت سوريا التي شهدت بعد الانفصال انفراجاً ديمقراطياً لم يدم طويلاً، أن تآمر عليها أفاعي حزب البعث الطائفيين، الذين اندسّوا في الجيش،

ثم ما لبثوا أن انقلبوا على ناظم القدسي، ودخلوا بسوريا، ذلك البلد العريق بعروبته، ومواقفه البيضاء، سلسلة الأنفاق المظلمة والانقلابات الطائفية، حتى سلموا الجولان للعدو الصهيوني، وذبحوا الشعب السوري في ثورته التي لا تزال تتلقى من هذا النظام الضربات المتواصلة، بعيداً عن القيم والضوابط الإنسانية والدينية والأخلاقية، فقتلته وشردته في الآفاق...

وجاءت ثورة اليمن، والحرب في كردستان، ومحاولة قاسم غزو الكويت، ما جعلني ألتصق يومياً بالراديو الساعات الطوال في متابعة متواصلة لتفاصيل الأحداث... وكان انتشار جهاز الراديو الترانزستر، المنفك عن الارتباط في مكان واحد، فرصة ذهبية لعشاق الاستماع إلى الأخبار والبرامج الثقافية، فكنت أحتضن المذياع وأنا مستلقٍ على فراشي الساعات الطوال، أتابع معطياته بحرص وشغف، حتى تأخذني سنة من النوم العميق.

في ربيع سنة التخرج (١٩٦٢م) جاء موعد (التطبيق) لتمرين خريجي كلية التربية على الأداء التدريسي واختبار كفاءتهم في هذا الحقل... وكنت أنتظر هذه التجربة بشغف بالغ، حتى إذا جاء موعدها وجدتني أذهب عصر كل يوم إلى إحدى متوسطات الأعظمية، حيث أبناء الطبقة الغنية الحريصون على تحقيق التفوق الدراسي، فكنت أجد متعة بالغة في تدريسهم، والحوار معهم، فيما يمكن اعتباره نوعاً من التحقق الذاتي الذي أغراني أكثر فأكثر بالعمل التدريسي بعد التخرج... وانقضى الشهران بسرعة بالغة، وعدنا إلى الكلية لكي نتهيأ لاجتياز المحاضرات الأخيرة وإعداد أنفسنا للامتحان النهائي. ثم ما لبثنا بعد جحيم الامتحان أن انطلقنا عائدين إلى مدننا بانتظار إعلان النتائج وتحديد موعد حفلة التخرج.

ركبنا قطار الظهيرة العائد إلى الموصل، ورحنا أنا وعدد من الأصدقاء نعد الدقائق واللحظات التي تفصلنا عن مدينتنا الغالية... وقبل الوصول بحوالي الساعة من الزمن فوجئ الركاب بمجموعة من رجال الأمن تجتاز الممرات وتطالب المسافرين فتح حقائبهم لتفتيشها... حتى إذا جاء الدور عليّ كنت مطمئناً أشد

الاطمئنان إلى ما يتمخض عنه التفتيش، وإذا بأحد رجال الأمن يسحب ورقة يجابهني بها بعنف ويقول لي بعصبية: ما هذا؟ كانت الورقة عبارة عن منشور عما تصدره جماعة الإخوان المسلمين تعقيباً على ما يشهده العراق... وهو ينطوي على نقد مرير لسياسات عبد الكريم قاسم... وكنت بعد أن قرأته في بغداد نسيت أن أمزقه، وحشرته عرضاً بين كتبي وأوراقي دون أن أنتبه إليه...

حاولت أن أبرر له سبب وجوده في حقيبتي فلم يقتنع، وكان بمعيتي اثنان آخران ممن عثروا لديهما على بعض المنشورات، أحدهما كردي من الخط الإسلامي، والآخر شيعي من مدينة (طويريج) والتي خرجت فيما بعد طاغية العراق نوري المالكي، وكان الطالب ذا توجه بعثي... وما لبث القطار أن توقف عند المحطة فاقتادونا إلى مركز للشرطة هناك، ومنها وضعنا في سيارة صالون أقلتنا ورجال الأمن إلى المديرية العامة للأمن في شارع الدواسة، حيث واصلوا تفتيشنا وأخذوا العديد من أوراقنا ومدوناتنا، وبعضها كان من بين تقاليدي في الكتابة: مجموعة من الموضوعات التي تلح علي فأدون عناوينها، مضيفاً إياه إلى موضوعات أخرى بانتظار اليوم الذي سأتفرغ فيه لتحويلها إلى بحوث ومقالات... ولقد ندمت أشد الندم على ضياعها، إذ هي حصيلة عام دراسي بأكمله من الموضوعات التي تستحق الكتابة.

طلبت المديرية من أحد رجالها أخذي بسيارة خاصة إلى البيت الذي أقطنه وتفتيش أوراقي وموجوداتي هناك... ولحسن الحظ فقد كان هذا الرجل من أصدقاء الوالد، فما أن وصلنا وجوبهنا بالوالد يقف عند الباب، مستفسراً عن هذا الذي يحدث، حتى أشار إليه رجل الأمن أن يطمئن، فإنما هي جولة تفتيش اعتيادية، بعد أن كبسوا عندي منشوراً ضد السلطة... ثم ما كان منه إلا أن يدخل إحدى الغرف ويلقي نظرة سريعة، ثم يشير لوالدي مطمئناً إياه: ليس ثمة ما يقلق، ولسوف نأخذه للتحقيق وقد يفرج عنه في أقرب وقت.

من جهتي كنت أحس بسعادة غامرة... سعادة من يعثر على شيء عزيز كان

ينتظره منذ زمن بعيد، وكنت أردد مع نفسي: هل صحيح بأنني سأدخل السجن الذي طالما تاقت نفسي إليه أسوةً بإخوتي وأصدقائي الذين سبقوني إليه؟

وفي الجانب الأيسر توقفنا عند بناية أخرى للأمن حيث أجروا معي عدداً من التحقيقات، ثم ما لبثوا أن طلبوا منا نحن الثلاثة أن نصطحب أحد رجالهم إلى المركز العام، حيث بتنا ليلتنا هناك، وفي صبيحة اليوم التالي نقلنا بسيارة أخرى إلى سجن الموصل المركزي... دخلته وسط إحساس عميق بالسعادة والتحقق، وما لبثت أن وجدت نفسي محشوراً بين زمرة من الشباب المعتقلين في أحد العنابر... كانت نظراتهم إليّ مترعة بالحقد والكراهية، وبعد أن وجهوا إلي جملة من الأسئلة طلبوا مني مغادرة العنبر إلى مكان آخر... تبيّن لي أنهم من البعثيين وأنهم تخوفوا من أن أكون مدسوساً عليهم من السلطة، فما لبثت أن تحولت إلى العنبر المجاور الذي كان يضم عدداً من المعتقلين القوميين الذين رحبوا بي أشد الترحيب، ودعاني أحدهم وهو ابن محلتي في جامع خزام (ويدعى نيازي) إلى تناول (الدولمة) بمعيته، ولكني ما أن أنهيت الغداء حتى سمعت صوتاً ينادي: عماد الدين خليل، فالتفت إلى مصدره، فإذا بصاحبه يبتسم في وجهي ويقول: إفراج!!

لم يكن البتة إحساس بالفرح والبهجة في أعقاب سماعي صوته، ولكنه كان إحساساً موغلاً بالقهر والهزيمة... كنت كمن أفلت من يديه صيد ثمين سهر الأيام والليالي لاصطياده، حتى إذا ما أمسكه بين يديه، أفلت منه، وغاب ــ بعيداً ــ ولقد عبرت عن أحاسيسي المريرة تلك في مذكراتي الجامعية التي يجدها القارئ في ملاحق سيرتي هذه.

بعد أيام قلائل أعلنت النتائج، وسافرت إلى بغداد لتسلمها، فإذا بي أحصل على المركز الثاني لقسم التاريخ في تسلسل الناجحين، إذ كان المركز الأوّل من نصيب الزميل (عبد الجبار ناجي: الدكتور فيما بعد)... كانت الدرجات بحق سخية ومعظمها في التسعينات حيث أحسست بأن جهودي المتواصلة في الدراسة لم تذهب عبثاً... وسرعان ما تلقيت التهاني من الزملاء

والأصدقاء، والتقطنا مجموعة من الصور التذكارية، وجلسنا قليلاً في النادي نسترجع ذكريات أربع سنوات من السعادة والعذاب، ثم اتفقنا على اللقاء ثانية يوم التخرج في الخامس عشر من حزيران... وقفلت عائداً إلى مدينتي.

قبل موعد حفل التخرج بعدة أيام عدت إلى بغداد ضيفاً على بيت خالتي (زوجة المقدم حسين الزرقي)، ثم ما لبث يوم التخرج أن حلّ، سبقه يوم آخر أجرينا فيه جملة من (البروفات) وغرقنا لساعات في أجواء النكات والتعليقات والضحك العميق.

وفي اليوم التالي اتجهنا إلى ساحة المنصور، حيث رفعت الأعلام، وراحت موسيقى الجيش تصدح وحيث لبسنا عباءة التخرج وقبعته، واصطففنا، كل كلية في الموضع المخصص لها، حتى إذا أعطيت إشارة التحرك، بدأت المسيرة إلى وسط الساحة حيث خصص لكل كلية المكان المناسب.

كانت هذه أول حفلة تخرج يشهدها العراق في العصر الجمهوري، ولذا فقد حسب لها أكثر من حساب ودعيت لحضورها شخصيات علمية وثقافية كبيرة من شتى أنحاء الوطن العربي، وظن عبد الكريم قاسم أنه سيُتلقى من حشود الطلبة المتجمهرين وسط الساحة بعاصفة من التصفيق، وأنه سيقاطع في أعقاب كل عبارة يتفوه بها في خطبته بالحماس والتأييد، ولكن المفاجأة المدهشة هي أن الذي حدث كان عكس هذا تماماً، إذ لم يصفق له أحد على الإطلاق، وراح الطلبة يتحدثون فيما بينهم تحدياً، غير مبالين بأصول البروتوكول الخاص بمناسبات كهذه... وحتى عندما أعلن في ختام كلمته عن منحنا نيشان الجمهورية من الدرجة الأولى؛ فإن أحداً لم يصفق له... لقد كانت كل القوى والأحزاب تقف في الطرف الآخر المناوئ له، وحتى مجموعة الطلبة الانتهازيين وجدوا أنفسهم محاصرين وسط جيش جرار من المعارضة فلم يستطيعوا أن يعبروا عن تضامنهم مع الزعيم ولو بهتاف أو إشارة واحدة!!

السؤال الذي طالما أردده مع نفسي، بعد أن دخل العراق في أعقاب الإطاحة به، جملة من الأنفاق المظلمة: هل كنا محقين في ذلك؟! أم أنها فورة

الشباب التي تكتسح في جيشانها كل حسابات العقل ومعادلات المنطق، وموازناته؟ ذلك أن قاسم طيلة السنتين الأخيرتين من حكمه كان قد تجاوز أي ميل لأية جهة كانت، ومارس حكم العراق وكأنه أب للجميع... ليس هذا فحسب بل إنه نفذ جملة من المشاريع السكنية للفقراء والكادحين، وأصدر قانون رقم ٨٠ بخصوص ملكية النفط العراقي وحقوق استخراجه، بحيث أنه ضيق الخناق على الشركات الأجنبية التي كانت تستثمره لحسابها الخاص ولا تعطي العراق من مردوده سوى الفتات... ومن أجل ذلك ـ ربما ـ قام الانقلاب عليه في الرابع عشر من رمضان عام (١٩٦٣م) بقيادة حزب البعث الذي صرح زعيمه (علي صالح السعدي) بأنهم جاؤوا على قطار أمريكي... ولقد ساعد على نجاح الانقلاب انضمام كل القوى القومية والإسلامية في الجهد المبذول للإطاحة بعبد الكريم قاسم، الذي قتل وهو لم يمدّ يده إلى فلس واحد من المال العام... ويكفيه فخراً أنه بطرائقه الخاصة تمكن من إخراج أقوى الأحزاب الشيوعية في الشرق الأوسط والعالم الثالث... من التاريخ!!

الأمر نفسه حدث في موقفنا المندفع بفورته الشبابية ضد العصر الملكي، الذي لو قدّر له الاستمرار، لكان حال العراق غير حاله وهو يعاني من الانتكاسات المتعاقبة والتمزق والقتل والخوف والجوع والتشريد والمهانة والابتزاز عقداً بعد عقد، ومرحلة بعد أخرى، ولكن ـ وكما يقول المثل ـ فإن للشباب أحكامه التي لا تقبل نقضاً ولا جدلاً.

ثم ما لبثت أن جاءت مرحلة الحيرة والتردّد... وطالما كنت أردد مع نفسي والمحيطين بي، ولا أزال، أن دقيقة واحدة من الحيرة تعدل في أذاها الساعات والأيام الطوال من المرض، وكنت أسميها (المغص النفسي) وأفضل عليها الآلام الجسدية والمغص الكلوي، لأن طعمها لا يمكن احتماله...

الحيرة القاسية بين مواصلة الدراسة للحصول على الماجستير، وبين الانتماء للعمل التدريسي في المتوسطات والثانويات... كنت أقف ـ كما يقول المثل ـ في نقطة (الففتي ففتي) دون أي دافع يجعلني ولو أن أميل قليلاً إلى

اختيار أحد الطريقين... فمن جهة كانت إغراءات مواصلة الدراسة، استناداً إلى احتمال قبولي القوي بسبب درجاتي المتفوقة وانتمائي لفرع (الشرف)، والرغبة في التحقق الذاتي في أن أصبح أستاذاً جامعياً يتعامل مع بيئة طلابية غير تلك التي يتعامل معها مدرسو المتوسطات والثانويات، فضلاً عن ضرورة قضاء عدة سنوات في القرى والأرياف، قبل أن تتاح لي فرصة العمل في الموصل... تسحبني إلى الاختيار الأول... ولكن إرهاقي الذي بلغ بي حداً صعباً من التوتر والإعياء وعدم الرغبة في إعادة حلقات القلق والهم الدراسي لعامين أو ثلاثة أعوام أخرى، تشدني إلى الفرار، واختيار العمل التدريسي بعيداً عن الدروس والامتحانات وشدّ الأعصاب...

ظللت على هذه الحال الأسابيع الطوال، قمت خلالها بأكثر من رحلة إلى بغداد لاستكمال الأمور الإجرائية المعقدة بخصوص التعيين في العمل التدريسي، والتجوال ـ من جهة أخرى ـ في أكثر من موقع، بما فيها معهد الدراسات العليا، سائلاً مستفسراً عن موانع وإغراءات التقديم للماجستير، وكنت أتلقى إجابات متناقضة بعضها يدفعني إلى الفرار، وبعضها الآخر يحضّني على الإقدام... ثم ما لبثت أن وصلتني رسالة من (خالد العسلي: الدكتور فيما بعد) الذي كان يدرس في المعهد ضمن الوجبة الأولى التي قبلت فيها، يحضّني فيها على عدم تضييع الفرصة، ويذكرني بمقولة (بسمارك) المعروفة (لم يهلك أحد من الشغل)، فوجدت في رسالته تلك إشارة الإنقاذ من بحر الحيرة المريرة التي كنت أتخبط فيها، فلما عرضت الأمر على أخي الأكبر (مظفر) أعطاني هو الآخر دفعة قوية مشجعة باتجاه الاستمرار على الدراسة... وحينذاك فقط أحسست بأني قد أزحت عن كاهلي جبلاً من الهموم... وتملكتني فرحة غامرة يصعب وصفها، رحت من أجل احتوائها والإمساك بتلابيبها أذرع شوارع الموصل الساعات الطوال!!

الفصل الرابع

١٩٦٢ ـ ١٩٦٨م

في العاشرة صباحاً من اليوم التاسع عشر من تشرين الأول عام (١٩٦٣م) انطلقت بنا السيارة، عابرة الجسر الجديد باتجاه أربيل، ودارت بين الركاب أحاديث متقطعة والسيارة تنعطف بنا صوب كركوك، وهنالك جلسنا في إحدى كازينواتها لتناول الغداء وشرب الشاي وإصلاح إطار السيارة المعطوب، ثم انطلقنا عبر طريق الفتحة، حيث لم يمض وقت قصير إلا وشعرنا بأن السيارة تتــأرجح بنا ذات اليمين وذات الشمال، بشكل مخيف، ولم يبق سوى لحظات لتصطدم بالسيارة المقبلة باتجاهها، وراح أحد الركاب يصيح بأعلى صوته: لا تضغط على البريك... لا تضغط على البريك، وفجأة انحرفت السيارة إلى حافة الشارع، ثم وقفت... كان وجه السائق شاحباً بلون الموت، بينما راح الباقون يحمدون الله على إنقاذهم من هذا الموقف الرهيب الذي كاد أن يودي بنا جميعاً...

وصلنا الفتحة، وبعد دقائق صليت خلالها وشربنا الشاي، دخلنا المعبر الذي أقلنا إلى الضفة الأخرى لنهر دجلة، ومن هناك انطلقت بنا السيارة باتجاه بغداد.

ألقيت رحالي في بيت خالتي (زوجة المقدم حسين الزرقي) ريثما أعثر على مكان مناسب للسكن، وانطلقت في صبيحة اليوم التالي إلى معهد الدراسات العليا، حيث التقيت بالطلاب الذين قُبلوا في هذه الدورة، وهم كل من قحطان الحديثي، وعبد الجبار ناجي، وناجي حسن هادي، وعلي حميدة

(من تونس)، وعبد السلام ياسين الذي سرعان ما انسحب مختاراً التدريس في إعداديات الموصل...

أما أساتذتنا فكانوا كلاً من الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري، رئيس المعهد، الذي تولى تدريسنا مادة (علم التاريخ)، والأستاذ الدكتور صالح أحمد العلي الذي تولى تدريسينا خطط بغداد، والأستاذ الدكتور جعفر خصباك الذي تولى تدريسينا مادة العصور العباسية المتأخرة، ثم ما لبثت أن لحقت بهم الآنسة أمل الخضيري لإعطائنا كورس باللغة الفرنسية.

وسرعان ما تراكمت علينا مطالب الأساتذة، من الإعداد للمحاضرات وكتابة البحوث والتقارير... فكنا نسابق الزمن، ونذهب إلى مكتبات كليتي الآداب والتربية، بحثاً عن المصادر والمراجع، ونقضي هناك الساعات الطوال... فضلاً عن جلستنا اليومية المتطاولة في قاعة مكتبة المعهد...

كنا جميعاً قلقين، لا ندري ما نفعل، نركض هناك وهناك، ونبذل من الجهد أضعاف ما نخرج به من إنجاز... ولكننا ما لبثنا بمرور الوقت أن اعتدنا على هذه الحالة، وقدرنا على الإمساك بخيوط بحوثنا وتقاريرنا والاستجابة لمطالب أساتذتنا التي كانت تنهمر علينا كالمطر.

كانت مدة المحاضرة الواحدة خمسين دقيقة، حيث يبدأ الأستاذ بالكلام ثم تبدأ المناقشة الحرة في الموضوع مجال المحاضرة، وفي منتصف الوقت ينادي الأستاذ على الشاي أو القهوة لتجديد النشاط، حتى تمضي المحاضرة إلى نهايتها، بعد أن يكون الأستاذ قد حمّلنا المزيد من الأعباء للقاء القادم...

ما لبث التوافق والانسجام أن أخذ يسود بين طلبة الدورتين الأولى (حسام السامرائي وبدري محمد فهد وعبد اللطيف العاني وخالد العسلي) والثانية حيث نحن الطلاب الخمسة... فكنا نجلس سوية الساعات الطوال في مكتبة المعهد... نواصل العمل في بحوثنا وتقاريرنا... ونتبادل الأحاديث والنكات.. ونشرب الشاي، ونتناول الغداء... وفي المساء كان الأخ عبد اللطيف يقلنا بسيارته للتجوال عبر شوارع بغداد وتناول عشائنا في أحد مطاعمها...

ويوماً انطلقت بنا سيارة زميل الماجستير الأخ عبد اللطيف العاني ضمن أصدقاء الدراسة في رحلة ممتعة منسجمة إلى الحلة، وهناك قضينا وقتاً طيباً مع أحد أصدقاء كلية التربية، وبعد الغداء استرحنا قليلاً في كازينو أنيقة مطلة على الفرات، ثم قفلنا عائدين.

ومضت الأيام ونحن نتأرجح كالغصون في أيام الشتاء بين القلق والعمل والضحك والتجوال والتنقل بين المكتبات، والانغماس في بطون المصادر القديمة وكتابة البحوث والتقارير المتلاحقة التي كان أساتذتنا يكلفوننا بإنجازها، وكان الذي يخفف عنا مشاكلنا وهمومنا الدراسية، الانسجام والتوافق الذي كان سائداً بين مجموعة الطلاب في الدراسات العليا... كنا نكتب هناك في مكتبة المعهد ونتلقى المحاضرات، ونتناول غداءنا في كلية الآداب القريبة ونشرب الشاي... وكنا نضحك وندبر المقالب هناك أيضاً، ومن ورائنا وأمامنا تلال من الكتب والمراجع، وركام من الأوراق والقصاصات...

وفي أمسيات الخريف البغدادية الرائعة كنا نغادر القسم منشرحي الصدور لكي نقضي الساعات الطيبة في شوارع بغداد ومقاهيها... وكانت أحاديثنا تتأرجح هي الأخرى بين هموم الدراسة ومتطلباتها، وبين المباهج البريئة والمسرات.

وعندما كنت أعود إلى الشقة المطلة على ساحة الأعظمية، والتي انتقلت إليها بعد أسبوعين قضيتهما في بيت خالتي... كنت أتمّ وبعض الأصدقاء أمسيتي هناك، بين الضحك والأحاديث الممتعة حيناً، وبين المشاكل والحساسيات حيناً آخر... وأحياناً ثالثة كنت أنهمك هناك في تحضير الواجبات الملقاة على عاتقنا، خوفاً من غضب (الدوري) وعقابه الذي لا تحتمله الأعصاب... وبرزت أمامي دونما داع مشكلة إتقان اللغة الإنكليزية تحسباً للمستقبل، واستغرقت مني الكثير من الجهد والهمّ، وانهمكت بعض الوقت في دراسة بعض النصوص التي لها ما يقابلها من ترجماتها العربية، واستخرجت

منها مئات الكلمات والمصطلحات التاريخية، ورحت أحفظها كلما خلوت إلى نفسي وأستعيد حفظها خلال الأسفار.

كان (عبد الجبار ناجي) صديق الدراسة الذي اخترته من بين الجميع... شعر كلٌّ منا بأن هناك انسجاماً فيما بيننا وتقارباً في الجدّ والهزل على السواء، فرحنا نخرج سويةً ونعمل سويةً ونقضي أوقات فراغنا معاً ونتناول طعامنا معاً... ثم ما لبث أن انضم إلينا فيما بعد (حسام السامرائي: الدكتور فيما بعد) بروحه الاجتماعية وعلاقاته الواسعة ومرحه وانطلاقه، ورحنا نقضي معاً أجمل الأوقات... أما في ساعات العمل فكان (عبد الجبار) هو العزاء الوحيد... وكنا نخرج بعد مغادرتنا المعهد إلى إحدى الكازينوات لمواصلة العمل في كتابة التقارير والبحوث، ومضينا فترة طويلة ونحن نعمل في كازينو تقع في الكاظمية، ونغادرها في ساعة متأخرة من الليل لكي نغرق متاعبنا في الضحك والنكات، وكان يأتي لي أحياناً بالعشاء من القسم الداخلي القريب الذي ينتمي إليه فنجد في ذلك متعة كبيرة.

لم يتح لي السفر إلى الموصل لكثرة العمل، ولكن أخبار الفيضان الذي اكتسح الجانب الأيسر من المدينة أغرتني بالذهاب، وركبت القطار إلى هناك وقضيت أياماً ممتعة مع الأهل ثم قفلت عائداً إلى بغداد. وعن طريق (حسام السامرائي) تعرفت على محرري جريدة (الجهاد) الإسلامية وأساليب تحرير الصحف، ثم ما لبثت أن عرضت علي الجريدة نشر بحثي (العلمانية انحراف) على عدة حلقات، وأحسست بنوع من الانتصار النفسي لأن بحثي هذا يمثل حرباً من نوع ما ضد الوضع العلماني الجديد الذي أعقب ثورة رمضان... ولقد ترددت الجريدة في نشره خوفاً من المشاكل ولكنها اقتنعت أخيراً... كان ذلك أول عمل ينشر لي وكان والحق يقال بمثابة فرحة كبيرة غمرتني أياماً طوالاً، وراح البحث يخرج تباعاً حتى استغرق ستة أعداد، وكانت كلمات الإطراء والتقييم تملؤني ثقة وسعادة واعتزازاً...

وأستطيع أن أقول الآن أن تلك البداية الطيبة لعبت أعمق الأثر في نشاطي الفكري فيما تلا ذلك من أعوام.

جاءت إضرابات الطلبة في مطلع عام (١٩٦٣م) بمثابة فرصة طيبة نستجم فيها من عناء العمل المتواصل، وأغلقت كلية الآداب أبوابها بعد محاولات عنيفة لجعل الدوام يستأنف فيها، وتبعها المعهد، سيما بعد أن ألقي القبض على عميده (الدوري) وسيق إلى أحد المعتقلات... ولما تأكدنا أن الدوام في معهدنا لن يُستأنف قبل مرور أسابيع، غادرنا بغداد كل إلى بلده، وعدت أنا إلى الموصل لكي أمضي الوقت في مطالعات شتى بين كتب التاريخ وقوائم مصادره وبين روايات (نجيب محفوظ)، ثم ما لبثت أن اقتنيت جهاز تسجيل قضينا معه أطيب الأوقات...

وكانت ليالي رمضان متعة لولا ما أصابني من متاعب في الالتهابات التي أصابت أذني اضطررت معها إلى عملية غسيل متعبة لجيوبي الأنفية، وكان إزاءها متعة ذلك الانسجام الذي جعلني أقضي مع أبناء عمي أطيب الأوقات وأمتع الجولات... كنا نخرج بالسيارة لكي نذرع أطراف المدينة في أمسيات رمضان الخضراء الجميلة، وكنا أحياناً نذهب إلى (مشروع الماء) لنلعب هناك الساعات الطوال... وكنت أقرأ في تلك الأيام رائعة (كوستلر) (ظلام في النهار)، وقد تركت أعظم الأثر في نفسي.

وما لبثت ثورة رمضان أن انفجرت وسط فرحة غامرة وإحساس عميق بالانتصار على أخطر وضع، وخرجنا صبيحة الثورة إلى شوارع المدينة لكي نشارك الجماهير بهجتها وسعادتها الغامرة... والتصقت آذاننا بأجهزة الراديو أياماً طوالاً، كنا نستمع خلالها إلى الأخبار والبيانات والأناشيد الوطنية بشغف لا يوصف، سيما في الليلة الخالدة التي انتهت بمقتل قاسم والمهداوي ورفاقهما المعروفين.

وبعد يومين أو ثلاثة قفلت عائداً إلى بغداد، وكانت الملامح السيئة تلوح في أفق الثورة الجديدة، ووصلت بغداد وأصوات الرصاص تملأ الأجواء، وكانت

الكاظمية التي اخترقتها سيارتنا تشهد الزخات الأخيرة اليائسة من رصاص المقاومة والتشبث بالعهد الذي آل إلى الزوال... وفي الشقة ألقيت متاعي وفطرت مع أحد الأصدقاء... ومرّت الأيام إثر ذلك والأحوال تزداد تعاسة وضيقاً، وبدأ الناس يدركون أنهم دخلوا غمار عهد لا يقل تعاسة وضيقاً عن العهد السابق.

وما لبث معهد الدراسات العليا أن شهد عودة نشاطه، ورحنا نواصل عملنا بجدّ لكي نعوّض ما فاتنا من أسابيع. وفي الليل كنت أقضي وقتي في الشقة بين الكآبة والانفراد والملل حيناً، وبين بعض الأصدقاء، وجهاز التسجيل الممتع، والضحك.. حيناً آخر... وبدأت ـ بسبب ذلك ـ بعض المشاكل والحساسيات مع الأخ (مؤيد عبد الله) مؤجر الشقة، وسعيت قدر الإمكان إلى أن أكون مرناً لتلافيها ولكن دون جدوى، وانتهى الأمر إلى قطيعة كاملة وسعي لترك الشقة إلى مكان جديد. وخلال ذلك كنت قد قُبلت كمراقب في قسم داخلي يقع في أقصى (الصليخ)، وكان علي من أجل إثبات وجودي أن أذهب لأنام هناك حيناً بعد حين في ظروف كئيبة شاقة لا تطاق، وسط القذارة والوحدة والبق الشرس، الأمر الذي جعل القسم بالنسبة لي أشبه بالمعتقل... ولما تكرّر تغيّبي عنه صدر أمر بفصلي، حيث رحت أفكر في مكان آوي إليه فيما تبقى من هذا الموسم الدراسي، ولم يكن هذا المكان سوى غرفة زميلي (عبد الجبار ناجي) في القسم الداخلي في الوزيرية...

ولم أكن أدري أن الحساسيات التي ولدتها صراحتي معه ومع بعض الأصدقاء المرائين، قبل ذلك، بصدد جبنهم ونفاقهم، قد حفرت في نفسه جرحاً عميقاً لا يغفر ولا يرحم... وما أن مضت أيام على نزولي عنده حتى بدأت المشاكل والأزمات النفسية تنفجر حيناً بعد حين، كلما أراد عقابي بغضب يكسو وجهه، وقطيعة تتلو ذلك وتأتي على أعصاب كلينا... وعبثاً حاول الأخ (حسام السامرائي) أن يقضي على الحساسيات ويرد علاقتنا إلى وضعها الطبيعي...

وكنا خلال ليالي الربيع ومطلع الصيف قد اعتدنا أن نجتمع سوية أنا وعبد الجبار وحسام ونصرت الدوري رحمه الله وفاروق النوري، سواء في أوقات العمل، أم اللهو والغداء، ونقضي معاً أطيب الأوقات، ونقوم بجولات ليلية ممتعة في أطراف بغداد، لولا المشاكل التي أثارها عبد الجبار، ولولا البخل والاستغلال اللذان بدأتُ وحسام نحسهما من بعض الآخرين... وكنا أحياناً نبقى إلى ساعة متأخرة من الليل في البناية الجديدة التي انتقل إليها معهدنا في منطقة الوزيرية... وما لبث قلق الامتحانات وازدحام التقارير والبحوث أن اكتسحنا، ثم زاد حرُّ بغداد وبعوضُها الأمرَ سوءاً وتعاسةً، فإذا ما أضفنا إلى ذلك ليالي الغضب والتوتر النفسي في القسم الداخلي، كان لي أن أتصوّر المصاعب التي كنت أعانيها آنذاك...

وبالانتهاء من الامتحانات الشاقة التي ذكرتني بآلام الامتحانات القاسية في كلية التربية، وبالتخفّف من بعض البحوث والتقارير، بدأنا نشعر بنوع من الارتياح، ثم ما لبثنا أن انتقلنا إلى غرفة حسام السامرائي في القسم الداخلي الذي يتولى الإشراف عليه... كانت الحساسيات مع عبد الجبار قد خفت إلى حدّ كبير وغطت عليها فعالياتنا الممتعة في جهاز التسجيل، وليالينا الطيبة في بغداد ومقاهيها... فضلاً عن مشاريعنا في تنظيم سفرة طويلة إلى بعض البلاد العربية، رغم أنني كنت أحسّ بأن مجرد خروجي في رحلة مع عبد الجبار سيجرعني الغصص ويدمر علي أول رحلة أقوم بها خارج العراق... وزاد الأمر تعاسة وساوسي التي لا مبرر لها إزاء عبد الجبار، الأمر الذي دفعني كالعادة إلى مصارحته، مما زاد الأمور تعقيداً وانعكس ذلك فيما بعد على سفرتنا إلى الخارج تلك التي استحالت إلى جحيم لا يطاق.

ما أن عدت من الرحلة حتى بدأ قلق البحث عن موضوع مناسب لرسالة الماجستير يتناوشني، وبعد جهود حثيثة وبعض السفرات الاستطلاعية إلى بغداد، وجلسات عديدة مع أعضاء القسم لمناقشة مسألة الإشراف على رسائلنا، وما رافق ذلك من مخاوف، انتهى الأمر بموافقة الأستاذ الدكتور

صالح أحمد العلي على موضوع (عماد الدين زنكي: مؤسس أتابكية الموصل) بعد أن رفض عدداً كبيراً من المواضيع التي عرضتها عليه... والحق أن مجرد موافقته على الموضوع الذي كان له في نفسي وقع خاص، جاء بعد ذلك القلق والخوف والانتظار، بمثابة فرحة غامرة بالنسبة لي، حتى أنني بعد أن غادرت مكتبه سجدت ركعتين شكراً لله على توفيقه... وغادرت المعهد إلى شارع أبي نواس مع أحد الأصدقاء وأنا أفيض رضاً وسعادة.

ما أن انتهت أزمة السكن وتمكنت من إقناع حسام السامرائي بضرورة مغادرة الشقة التي قررنا سكناها مع عبد الجبار، وقدرنا على الحصول على غرفة مناسبة كمراقبين في أحد الأقسام الداخلية في الصليخ، حتى بدأت العمل الجاد في المصادر من أجل تجميع النصوص عن موضوع زنكي، وكنت أقضي الساعات الطوال يومياً منذ الصباح وحتى حلول المساء في غرفة المعهد المطلة على الشارع العام... وكنت أتناول غدائي هناك كي لا يضيع الوقت عليّ وكي أعتصر الزمن اعتصاراً.

ما لبثت ثورة الثامن عشر من تشرين (١٩٦٣م) أن انفجرت في أعقاب أزمة الثالث عشر منه، وسط فرحة شاملة ملكت علينا مشاعرنا، واستيقظنا صباح الثامن عشر على صوت عبد السلام عارف يعلن البيان الأول وأزيز عدد من الطائرات تحلق في سماء بغداد، وخرجنا لنتجول في شوارع الأعظمية في ظروف خطيرة لم نأبه لها لما كان يغمرنا من شعور عميق بالانتصار، ورحنا نقرع الأبواب على الأصدقاء مصافحين ومهنئين... وفي بيت خالد العسلي تناولنا غداءنا، ثم قفلنا عائدين بعد جملة أخرى من تبادل التهاني في بيوت المعارف والأصدقاء، وذهبت بعد ليلة ممتعة في الداخلي إلى بيت أحد الأقرباء لأقضي هناك عدة أيام ممتعة وسط أمسيات عائلية وبرامج تلفزيونية مشوقة، عدت بعدها إلى القسم الداخلي الذي ما كان أروع لياليه وأحلاها!!

وخلال ذلك كنت أواصل العمل الجاد المستمر في استخراج النصوص لرسالتي، ثم ما لبثت أن سافرت إلى الموصل لأقضي هناك أسابيع طوالاً في

كتابة بعض فصول الرسالة، بعد إذ لم يبق ثمة ضرورة لاستمرار بقائي في بغداد. وهناك في برد الموصل وزمهريرها كتبت الفصول الأولى وسط ظروف نفسية ومناخية قاسية... ولا زلت أذكر كيف كنت أنزل إلى السرداب لأكتب هناك، وأعود بعد الغداء لأواصل العمل، وكيف بدأ الملل والإرهاق يتسربان إلى نفسي دون أن أستطيع لهما دفعاً... لكن كانت تتخلل ذلك فعاليات ممتعة في جهاز التسجيل وأوقات طيبة مع الأهل والأقرباء.

عدت إلى بغداد في منتصف رمضان عام (١٩٦٤م) للاشتراك في مراقبة الامتحان في ثانوية الأماني المسائية... وواصلت العمل في رسالتي في البناية الجديدة التي انتقل المعهد إليها في الشارع نفسه، وسط ظروف من الملل والكآبة والرغبة في الفرار من العمل... وقبيل العيد رجعت إلى الموصل لآخذ قسطاً من الراحة، وأطالع بعض الكتب والروايات وأقفل عائداً إلى بغداد.

وخلال ذلك كنت قد وثّقت علاقتي بجريدة الفكر العربي نصف الشهرية وبدأت أنشر فيها بعض الخواطر والمقالات، ثم ما لبثت أن دخلت مع صاحبها (أحمد الحسّو) (الدكتور فيما بعد) في مناقشات طويلة وممتعة من أجل أن أتولى رئاسة تحريرها، وبدأنا نرسم الخطط والبرامج وكأننا مقبلون على إنشاء دولة من العدم!! ثم ما لبثت أن قبلت المهمة وسط غمرة من الكآبة والشعور الثقيل بمسؤولية لم أكن بقادر على تحمل أعبائها النفسية دون مقابل من مكافأة مالية محددة سلفاً.. ولكن عشق الفكرة، والرغبة الطاغية في العمل المخلص في حقلها الصحفي سرعان ما أحال مهمتي إلى متعة لا توصف، خاصة وأني كنت قد أنجزت معظم فصول رسالتي للماجستير، فكنت أقضي معظم نهاري في المطبعة أتلقى الرسائل، وأكتب المقالات وأقتطع الشواهد وأشرف على إخراج الجريدة، وعندما أعود ليلاً إلى الداخلي أواصل العمل حتى ساعة متأخرة من الليل في كتابة المقالات والافتتاحيات بمتعة بالغة واندفاع مثابر.

كان أقربائي الذين كنت أقضي عندهم أمسيات الخميس قد غادروا بغداد

إلى كركوك، حيث عُيِّن زوج خالتي المقدم حسين الزرقي حاكماً عسكرياً في محكمتها، وكان (حسام السامرائي) قد ترك القسم الداخلي في غمرة من الجفاء بيني وبينه دونما سبب مني... وترك ذلك فراغاً في نفسي... لكني تمكنت من ملئه بالانهماك في النشاط الصحفي وفي الاندماج في عالم الرياضة الرائع في ساحات بغداد ومنتدياتها، كما رحت أتابع بنهم العروض المسرحية في معهد الفنون الجميلة، وأطالع بشغف بعض الكتب في شتى المجالات... أما العمل في الرسالة فقد كاد أن يتوقف بسبب انتهائي من معظم فصولها، وبسبب تسويف الأستاذ المشرف وتأخيره المتعمد الذي كان له أسوأ الأثر في نفوس طلبة القسم، الذين كانوا يقاسون التجربة نفسها من التسويف والانتظار. ثم ما لبث أن تبيّن لنا أن التعليمات الخاصة بالمدة الزمنية لمناقشة رسائل الماجستير ــ يومذاك ــ كانت ثلاث سنوات وليس سنتين كما توهمنا، فكان ذلك بمثابة ضربة موجعة للطلبة جميعاً...

مع مطلع الصيف قفلت عائداً إلى الموصل، ورحت أواصل العمل صبيحة كل يوم في إضافة الفصول الحضارية المهمة للرسالة، والتي لم أكن قد حسبت حسابها... وخلال ذلك كنت أنتهز الفرص لكتابة بعض القضايا لجريدة الفكر العربي، التي راحت تتأرجح بين اتجاهين... أولهما إسلامي وأمثله أنا والآخر قومي ويمثله (أحمد الحسو)، ودارت بيننا مناقشات حامية سادها التوتر والانفعال، وانتابني قلق عميق حول مصير الجريدة ومسؤوليتي عنها وهي تعاني الازدواج الخطير، وأخيراً انتهزت فرصة نشر صورة لعبد الناصر دون إذن مني، فقدّمت استقالتي من رئاسة التحرير سعيداً مطمئناً، متخففاً من الأعباء النفسية التي أرهقتني الأسابيع الطوال...

واستمر عملي في الرسالة، حتى أعادني ثانية إلى دائرة الملل القديم، وراحت الكآبة تعتصر وجودي في مطلع صباح كل يوم وأنا مقبل على العمل الثقيل.

في مطلع الخريف عدت إلى بغداد، ونزلت في دار الطلبة حيث حسام

السامرائي وعبد الجبار، وقضينا هناك أياماً وليالي حلوة مع أمسيات بغداد، وأماكن لهوها البريء، ومع المطالعات الطيبة، ثم ما لبثت أن حصلت على غرفة أنيقة هناك كمراقب في دار الطلبة، وشعرت بالوحدة أول الأمر ثم ما لبثت أن اعتدتها... وعدت إلى عملي المتواصل وتنقيحاتي غير المجدية، ومشاكلي مع أستاذي المشرف، حتى أنني في أعقاب إحدى المقابلات خرجت من مكتبه وأنا أكاد أبكي من جراء أسلوبه في إرهاق الطالب والتسويف القاتل معه... وخلال ذلك كنت قد حصلت على عدد من المحاضرات في إعدادية (الأماني) المسائية... وكنت أخرج في أوقات الفراغ لأتجول في شارع الرشيد والباب الشرقي، تلك الجولات التي تغمرها المتعة والانسجام حيناً، والتمزق والتشتت والضياع أحياناً... وكانت علاقتي مع عبد الجبار قد تحسنت كثيراً وبدأ يجمعنا الشعور المشترك بالظلم الواقع علينا من معهد الدراسات والأستاذ المشرف... وسافرت إلى الموصل مرتين أو ثلاثاً لأقضي هناك أوقاتاً طيبة ولأطلع على الإصلاحات والتوسعة الشاملة التي شهدتها دارنا هناك.

ما لبث العلي بعد صبر طويل أن أذن لي ولعبد الجبار بطبع رسالتينا، وبسرعة اتفقنا مع أحد الطباعين لطبع النسخة الأولى وشعرنا بارتياح كبير... ثم ما لبث العلي أن طلب مني كتابة فصل جديد عن (زنكي والصليبيين) وهو محق في ذلك، فانعصر قلبي وأسرعت للاتصال بسرعة مع الموصل كي يرسلوا لي النصوص الخاصة بالموضوع، ورحت أكتب الفصل داعياً الله ﷻ أن يساعدني على إنجازه قبل نفاد الصبر!!

وجاء رمضان عام (١٩٦٥م)، وقضيت ليالي طيبة مع التلفزيون في صالة دار الطلبة، وخلال النهار كنت أنهمك في إجراء التنقيحات وإتمام النواقص المتعبة في الرسالة، عبر أيام اجتاحني فيها الاكتئاب والقلق ونفاد الصبر، وأنا أتردد بين مكتبة الجامعة المركزية ومكتبة المعهد، حيث القلق يعرف كيف ينشب مخالبه في الأمعاء!!

وبين الحين والحين كانت تجيء بعض المناسبات لكي تعيد إليّ الصفاء

والاستقرار وتمنحني بعض المتعة... وقد تبدى ذلك في اندماجي في عالم الرياضة الذي بلغ قمته في سباقات العراق وإيران في ألعاب الساحة والميدان... وفي برامج وحفلات مؤتمر الأدباء الخامس الذي دعوت نفسي إليه دونما دعوة من أحد!!

وأخيراً وقعت الواقعة المنتظرة، وأذن الأستاذ المشرف في البدء بالطبعة الأخيرة من الرسالة، ورحنا نعمل أنا وعبد الجبار بهمة عجيبة، ونسابق الزمن بشكل غريب، وتمكنا في ظرف قياسيّ قصير من الانتهاء من كل مشاكل الطبع والتجليد وملاحقة النواقص والأخطاء، وكنت أسهر في بعض الليالي إلى ساعة متأخرة، وما لبثنا أن أنجزنا المهمة وقدمنا النسخ المطلوبة للمعهد وقفلنا عائدين كل إلى بلده بانتظار وصول تقرير الممتحن الخارجي، وتحديد موعد النقاش.

قضيت أكثر من شهرين في الموصل بانتظار الموعد المرتقب... قضيتها هناك بين مطالعة وكتابة ولعب وجولات في الشوارع وجلسات في المقاهي والكازينوات وسفرات قصيرة... وما لبث أن تلقيت رسالة مشجعة من الممتحن الخارجي يعد فيها بإنهاء كتابة التقرير بأسرع وقت... ثم لم يمض وقت طويل حتى جاءتني رسالة أخرى من عبد الجبار، يخبرني فيها عن وصول التقرير وتحديد الثاني من حزيران موعداً لمناقشتي.

سافرت إلى بغداد، ورحت أستعد للمقابلة التي ستقرر مستقبلي العلمي، وأتهيأ لإلقاء الكلمة المرتجلة التي سألقيها أمام الأساتذة الممتحنين... وجاء يوم الامتحان، واتجهت وعدد من الأصدقاء إلى القاعة التي سأناقش فيها... كان المناقشون، فضلاً عن الأستاذ المشرف الدكتور صالح أحمد العلي، كلاً من الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري، والأستاذ الدكتور (المصري) حسن إبراهيم حسن، وألقيت كلمتي ارتجالاً وأنا متمالك الأعصاب تماماً، ثم جرت المناقشة طريفة، ممتعة، مستغرقة أكثر من ساعتين منحت بعدها بأيام قلائل شهادة الماجستير بدرجة (جيد جداً)، لكي ما ألبث أن أبدأ معاملة التعيين

الصعبة التي استغرقت شهراً بتمامه، أعود بعدها إلى الموصل لكي أبدأ في جامعتها حياتي العملية!! بفضل من الله وعونه...

انتهى بي المطاف للعمل في مكتبة الجامعة المركزية، في (١٠/٧/ ١٩٦٥م)، حيث لم تكن كلية الآداب قد افتتحت فيها. وكانت المكتبة في بدء أمرها تشغل أحد الطوابق العليا في البلوك الأمامي لكلية العلوم عند مدخل الجامعة القديم. ولحسن الحظ فقد كان المسؤول عنها هو الأخ الأستاذ يونس عزيز، مدرّس الإنكليزي الذي كان قد حصل حديثاً على شهادة الماجستير في علوم المكتبات... وكانت تربطني به علاقة فكرية وشخصية وثيقة، وما لبث أن انضاف إلينا الأستاذ عبد الله السامرائي، وهو يحمل ماجستير في اللغة الإنكليزية، وبمعيتنا ثلاث موظفات أخريات.

كانت الأجواء العائلية، والانسجام، تحكم علاقاتنا في العمل الذي انصب على فهرسة الكتب الموجودة، وترتيب بطاقة لكل كتاب، الأمر الذي تقبلته في الأسابيع والأشهر الأولى على مضض، خاصةً وأن كل الكتب التي كنا نتعامل معها تنتمي إلى العلوم الصرفة من كيمياء وفيزياء ورياضيات وجيولوجيا وعلوم حياة وهندسة... الخ، ولم يكن في المكتبة ـ يومها ـ ثمة كتاب واحد بالعربية وفي علوم الإنسانيات... فما لبثت أن بدأت أشعر بالملل وبأني لست في موقعي. ولهذا انتهزت أول فرصة سنحت لي للعمل في التدريس الجامعي خارج العراق، في إحدى الجامعات السعودية، وسافرت إلى بغداد لإكمال الإجراءات الروتينية في السفارة السعودية هناك، حتى إذا اكتملت الصفقة، وتمت الموافقة على تعييني، وجهزت حقائبي للسفر، إذا بمكالمة من بغداد، من الأخ الصديق فيصل الأرحيم رَحِمَهُ اللهُ يعلمني فيها أنه قد تم استبدالي بمدرس آخر يحمل درجة الدكتوراه... ولشد ما كانت فرحتي طاغية لهذا النبأ المفاجئ، إذ كان تشبثي في مدينتي الغالية الموصل، قريباً من أهلي وأصدقائي، يعدل عندي الدنيا وما فيها، وكانت الهموم تتناوشني لفراق هذا كله... فما لبثت البشرى أن جاءت فحمدت الله على السلامة.

كنت رغم كثرة مشاغلي وهمومي وأعمالي، قد رتبت حياتي فيما يسمح لي عبرها بالكثير من المتع والمسرّات... من مثل طلعات الفجر الأسبوعية، وحدي أو مع ابن عمي، والتي كنا نقطع فيها، ولما تشرق الشمس بعد، المسافات الطوال... حتى إذا وصلنا مطاعم السوق، كان الجوع قد أحكم قبضته علينا، فتناولنا فطورنا اللذيذ من الكباب أو المشويات أو القلية أو الباجة أو اللحم بعجين، ثم جلسنا في كازينو البلدية التراثية الرائعة المطلة على نهر دجلة نتحدث، أو نلعب الداما، ولا نرجع إلى دورنا إلا قبيل الظهر.

ومن مثل الولع الشديد بلعبة كرة المنضدة، حيث اشتريت معداتها التي وضعت في كراج البيت، وكنت أنا وأخي الأصغر نبيل رَحِمَهُ اللهُ نمارس اللعب يومياً، حتى تكيفت أيدينا عليه، ورحنا نتفنن في أدائه، ونسجل شهراً بشهر حصيلة اللقاءات الدورية، وكنا خلال اللعب نتطارد في الشعر الشعبي المرتجل من أجل التأثير في معنويات الخصم، والتعبير عن قدراتنا الأدبية، وكان الكثير مما قيل يبعث على الضحك حقاً... كان أبناء العم يشاركوننا اللعب أحياناً... وسرعان ما نقلت قدراتي إلى كلية الآداب حيث دخلت في منافسات على الكأس مع العديد من لاعبيها المتمرسين الذين كنت أجتازهم الواحد تلو الآخر، ولكن الحلقة الأصعب كانت في لقاءاتي على الكأس مع الأخ أنس الشيخ علي (الدكتور فيما بعد، والمستشار الأكاديمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي في لندن)... ومع ذلك فقد حصدت الكثير من الكؤوس، حتى أنني، في رحلتنا العائلية الرائعة في العطلة الربيعية لعام (١٩٦٦م) إلى بيت خالتي في كركوك، دخلت في جملة لقاءات مع ضباط النادي العسكري، حيث كان زوج خالتي حاكماً عسكرياً هناك واكتسحتهم جميعاً.

وكان تحلّق العائلة حول جهاز التلفزيون الذي دخل الموصل في منتصف الستينيات لمشاهدة المسلسلات المصرية، أو المسرحيات الكوميدية، مما لم نتركه يفلت من بين أيدينا؛ يمثل أجمل الأوقات، ونحن نتابع بشغف أحداث هذا المسلسل أو ذاك... أو نتابع هذه المسرحية الكوميدية أو تلك مما كان يضحكنا

حتى الأعماق... هذا إلى جلسات الجردغ اليومية الذي كان يديره الأخ والصديق الرياضي المعروف خالد فصوله ﷺ والمطل على نهر دجلة، مع عدد من الأصدقاء، حيث كنا نتبادل الأحاديث، أو نتابع السباقات الدورية في الكرة الطائرة... وإلى أمسيات الخميس الرائعة مع (الجمعية) التي شكلناها نحن مجموعة من المعارف والأصدقاء من الأساتذة الجامعيين والفنانين، والمخرجين المسرحيين والخطاطين والمدراء والمحاسبين والمهندسين، حتى بلغ عدد المنتمين إليها بشكل دائم ما يقرب من العشرين...

وكانت البداية اجتماعات يومية حيث يكلف كل داع بتقديم وجبة عشاء سخية، وحيث لم يكن معظم الأعضاء قد اعتقلوا في خانة الزواج بعد... ولكنها ما لبثت أن تحوّلت إلى جلسات أسبوعية مساء كل خميس بعد أن تزوج معظم الأعضاء، فكنا نسهر حتى ساعة متأخرة من الليل، ونتبادل الأحاديث الجادة، والنكات الهازلة، والمقالب المضحكة، والوجبات اللذيذة... وقد أضفنا إلى أمسياتنا تلك جملة من الرحلات الخريفية والربيعية إلى براري الموصل والمحافظات المجاورة.. ولا زلت أذكر كيف استأثرت «حمام العليل» بالعديد من أمسياتنا الشتوية في بيت أحد أعمامي هناك، حيث كنا نقضي الساعات الطوال، حتى يؤذن الفجر بالحلول، لكي ما نلبث أن نقفل عائدين.

كانت المكتبة المركزية قد انتقلت إلى بنايتها الجديدة في الجهة اليمنى لمدخل الجامعة... بقاعاتها الكبيرة، وغرفها العديدة... وكنا نحن لا نزال نكدح في فهرسة الكتب التي كلما كدنا أن نأتي عليها، إذا بمسؤول المكتبة يونس عزيز يبتكر صيغة مغايرة للفهرسة، وفق مستجدات علوم المكتبات، فنعود ثانيةً إلى نقطة الصفر لكي نفهرس من جديد... ونتلقى يومياً رشقات من كتب ومراجع العلوم الصرفة، التي كان علينا أن نلاحقها هي الأخرى...

ما لبث هاجس إكمال دراستي العليا للدكتوراه أن هيمن عليّ، خاصةً وأن لديّ في القاهرة التي كنت أعشق الدراسة في جامعاتها اثنان من أعز الأصدقاء: أحمد الحسو (الدكتور فيما بعد)، وفيصل الأرحيم ﷺ الذي حصل

على الماجستير في التاريخ المعاصر من معهد الدراسات القومية في القاهرة... وقد أغراني الصديقان بضرورة التقديم وأنهما سيتوليان متابعة الموضوع... فأسرعت بتجهيز الأوراق المطلوبة، ووقع اختياري لإنجاز أطروحة الدكتوراه في موضوع لم يسبق إليه أحد: (الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام)، ودفعت بطلبي إلى القاهرة، ورحت أنتظر...

ولكني ما لبثت بعد أسابيع طويلة من الانتظار أن تلقيت رسالة من الحسو يشير فيها إلى ضياع أوراقي، وأن علي أن أعيد الكرة، فأعدتها خلال أيام قلائل، وأرسلت بها إلى القاهرة... فما لبثت الموافقة على قبولي أن وصلتني بعد حين من الزمن، حيث شمرت عن ساعد الجدّ وصممت خطة البحث وقائمة المصادر والمراجع، وبدأت بتجميع المادة المطلوبة من عشرات المصادر القديمة ومئاتها، حيث كنت أمزج الليل بالنهار وأنا منهمك في التقاط لكل ما يمسّ موضوعي من بطون تلك المصادر ذات المجلدات الكثيرة...

وكنت أنتهز فرصة عدم وجود ما يتطلب فهرسة من الكتب المنهالة على المكتبة، فأنصرف إلى مواصلة جمع المادة. كما أني، استناداً للراتب الهزيل الذي كنا نتقاضاه؛ ارتبطت بجملة محاضرات في ثانوية الأماني المسائية، أسوةً بما فعلته زمن دراستي للماجستير... والحق أن التدريس في ثانويات كهذه، حيث يلتم جملة من الطلبة اللامبالين، والمشاغبين، والمشاكسين، هو الذي يدرّب المدرّس الجاد، ويمنحه القدرة الفائقة على ضبط الصف والأداء التدريسي المتميز الذي يحيل هؤلاء الطلبة إلى النقيض، وهذا ما تعلمته من تدريسي في هاتين الثانويتين في بغداد والموصل، رغم أن ذلك كان يتطلب جهداً استثنائياً في التعامل مع الطلاب.

ما لبثنا أن فوجئنا بقبول يونس عزيز للدكتوراه في إحدى الجامعات الأميركية، وأنه على وشك الرحيل، وما أن غادر الموصل حتى صدر الأمر الجامعي بتعييني في محله مسؤولاً عن المكتبة المركزية، حيث التحق بها كل

من: عبد الرزاق كامل الذي يحمل الدبلوم في علوم المكتبات من إحدى الجامعات الألمانية، وقاسم العارف ﷺ حامل الماجستير في اللغة الإنكليزية... فضلاً عن جملة من الموظفين والموظفات.

كان علي أن أنسق العمل، وأن ألاحق كل صغيرة وكبيرة، فها هي ذي التجربة الإدارية الأولى في حياتي الوظيفية، وعلي أن أحسن التعامل معها... فكنت ألاحق مطالب قاعة المطالعة لغرض تدفئتها في ذلك الموسم البارد، وما يتطلبه ذلك من تجهيز مخازن كافية وتغذيتها المتواصلة بالنفط... وأن الاحق انتظام عملية الفهرسة، والإعارة، وفضلاً عن ذلك فقد ارتأيت أن أضيف إلى خزائن الكتب العلمية الصرفة، خزائن أخرى بكتب المعرفة الإنسانية باللغة العربية... حيث كانت الصفقة الأولى التي عقدتها مع الدار القومية في الموصل هي النواة، ثم ما لبثت أن قدمت طلباً بالذهاب الدوري إلى بغداد لاختيار الكتب والمراجع الضرورية لكلية الآداب المزمع افتتاحها بعد أشهر معدودات... فلما تأخرت الموافقات الروتينية ضربت بها عرض الحائط وذهبت إلى بغداد حيث قضيت عدة أيام وأنا أجمع المصادر والمراجع من مكتبات شارع المتنبي وبخاصة من مكتبة الأم: (المثنى)، والتي سرعان ما تم شحنها إلى الموصل، فما كان مني إلا أن أتقدم بقوائم حسابها لمساعد رئيس الجامعة الدكتور نجيب خروفة وأضعه أمام الأمر الواقع، حيث ما لبث بعد تردد قصير أن أعلن موافقته.

وهكذا أصبحت مكتبة الجامعة المركزية تنطوي على جملة خزائن للكتب العربية في سائر المعارف الإنسانية. وقد أتيح لي بعد عقود طويلة من الزمن أن أؤسس للمكتبة تقليداً آخر، هو تلقي المكتبات الشخصية لمثقفي المدينة شراءً أو وقفاً، مع إبقائها في خزائن خاصة تحمل اسم صاحب الكتب. وقد بدأت المحاولة عندما اتصل بي ورثة اللواء الركن الحاج محمود شيت خطاب ﷺ، يطلبون مني مفاتحة رئيس الجامعة الأستاذ الدكتور أبي الديوه جي بفكرة شراء مكتبته العامرة قبل أن تعبث بها الأيدي وتتعرض للتبعثر والضياع، فما

كان من رئيس الجامعة إلا أن يعرب عن موافقته على شرائها وبشرط أن تظل في خزائن خاصة تحمل اسم المرحوم... وما لبث الآخرون أن حذوا حذو آل الخطاب فتقدموا بمكتباتهم الخصبة وقفاً على المكتبة المركزية، مبتغين الثواب عند الله ﷻ وخدمة الطلبة والباحثين تنفيذاً لحديث رسول الله (ﷺ): «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له**».

كما أتيح لي بعد سنة واحدة، حيث انتقلت إلى كلية الآداب، أن أحقق نواة مشروع مفتوح لتشكيل مكتبة موصلية صرفة تضم بجناحيها مؤلفات الموصليين في الزمن القديم والحديث، وأولئك الذين كتبوا عن الموصل في شتى مناحي المعرفة، واخترت خزانة خاصة لكي نبدأ بها المشروع، وجمعت ما استطعت جمعه من مؤلفات بهذا الخصوص، وقد أعانني على ذلك الدكتور عمر الطالب بما يمتلكه في مكتبته الخاصة من أعمال أدبية لمؤلفين موصليين، وعهدت بالخزانة إلى إحدى الموظفات من حملة شهادة الماجستير، لكي تتولى الإشراف عليها وحمايتها من السرقة. ولكنها للأسف الشديد ما لبثت أن أغفلت الموضوع، فضاعت الخزانة وما فيها من مؤلفات، بينما كنت أنا منهمكاً في ترتيب قوائم بأسماء كل أولئك الذين كتبوا عن الموصل من أبنائها أنفسهم، أو من الآخرين.

ويوماً جاءني عدد من الطلبة يشكون جانباً مما تشهده قاعة المطالعة، مما ينافي التقاليد الخلقية والجامعية، بين بعض الطلبة والطالبات، فما كان مني إلا أن أصدر أمراً ـ دون الرجوع إلى مساعد رئيس الجامعة الذي كان ارتباطي المباشر به شخصياً، وكان هذا تصرفاً خاطئاً مني ندمت عليه فيما بعد أشد الندم ـ بالفصل في قاعة المطالعة بين الطلاب والطالبات. فما كان من معظم الطلاب إلا أن يعلنوا ثورتهم ضد هذا الإجراء، الأمر الذي أرغمني على التراجع عنه، بعد أن تلقيت كتاباً من مساعد الرئيس يرفض هو الآخر ما قمت به...

ولست أدري ما الذي جعلني أبقى في المكتبة بعد ذلك، إذ كان علي أن أقدم طلباً بإقالتي من الإشراف على المكتبة... وقد ظللت بعد ذلك أعاني من الندم على تصرّفي هذا، رغم أن (خروفة) كان يعاملني دائماً معاملة مترعة بالمحبة والمودة والاستجابة لطلباتي. بل إنه حرصاً منه على مستقبلي العلمي وضرورة حصولي على الدكتوراه رشحني لبعثة كولبنكيان إلى إحدى الجامعات الإنكليزية، وهي فرصة ذهبية يتقاتل من أجلها الكثيرون، ولكنني اعتذرت عن قبولها بسبب ارتباطي المسبق بجامعة عين شمس في القاهرة. ولكن يبدو أن تخوفه من أن يأخذ الأمر بعداً سياسياً، قد يقود الطلبة، وبخاصة البعثيين منهم، إلى الإضراب العام، جعله يسارع بحسم الموضوع.

زارنا يوما في المكتبة رئيس الوزراء العراقي (عبد الرحمن البزاز) ﵀، فجلنا معه في قاعات المكتبة، وأماكن خزائنها، وأبدى الرجل ارتياحه لما شهده... وبعدها بفترة قصيرة، وفي خريف عام (١٩٦٦م)، قيل أن رئيس الجمهورية (عبد الرحمن عارف) سيزور الموصل لوضع الحجر الأساس لجامعتها الناشئة، التي اختيرت لها منطقة الصيرمون المطلة على نهر دجلة في جانبه الأيمن، وهي واحدة من أجمل بقاع الموصل في تكوينها الطبيعي، وخضرتها الزاهية، وارتفاعها، وإشرافها على النهر.

وبعد أن تمت مراسيم الاستقبال، حيث طلب مني أن أضع على صدري شارة المستقبلين الخضراء ولكني اعتذرت، إذ لم يخطر على بالي يوماً ولن يخطر، أن أكون أحد المستقبلين للشخصيات الرسمية... وأُلقيت عدة كلمات لرئيس الجمهورية، ورئيس جامعة بغداد الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري، حيث أعلن عن إنشاء جامعة مستقلة في الموصل لا ارتباط لها بجامعة بغداد، يرأسها الأستاذ الدكتور محمود الجليلي ﵀... ثم التوجه إلى حدائق نادي الضباط وسط الموصل لتناول العشاء وقضاء الأمسية بمعية حشود من التدريسيين والموظفين...

وفي اليوم التالي قام الأستاذ الدكتور محمود الجليلي يصحبه الأستاذ

الدكتور عبد العزيز الدوري بزيارة لبناية كلية الآداب التي آثر الدكتور الجليلي تسميتها بكلية الإنسانيات، والتي سرعان ما فتحت أبوابها للقبول عبر ثلاثة أقسام هي: اللغة العربية، والتاريخ، واللغة الإنكليزية... وسألني الدكتور الدوري عما إذا كنت أرغب في التفرغ للتدريس في هذه الكلية، والانفكاك من إشرافي على المكتبة المركزية، فكان ذلك بمثابة فرحة غامرة بسبب تحرّري من العمل في المكتبة والتفرغ لما كنت أعشقه دائماً وهو التدريس... وتمّ الانفكاك بسهولة بالغة، وانصرفت للعمل في هذه الكلية التي لم يكن كادرها التدريسي يتجاوز الأشخاص الثلاثة: العميد الدكتور عبد المنعم رشاد، ومعاونه الدكتور عامر سليمان، وأنا... حيث كنا أشبه بالمؤسسين لهذا الصرح العلمي الذي سرعان ما راح يتسع في أساتذته وأقسامه وطلبته ويسمى بعد سنة واحدة باسم (كلية الآداب).

كانت واقعة مقتل رئيس الجمهورية (عبد السلام عارف) ﷺ في حادثة طائرة الهليوكوبتر التي كانت تقلّه، وثلة من كبار القادة في رحلة إلى جنوب العراق، في نيسان عام (١٩٦٦م) بمثابة ضربة موجعة لكل العراقيين الذين طالما تلقوا الضربات الموجعة... كنت قبل هذه الكارثة بيوم واحد، أجلس على مدرجات ساحة الكشافة لمشاهدة اللعبة النهائية على كأس العرب في لعبة القدم بين فريقي العراق وسوريا... وإلى يساري تماماً، حيث تقوم المنصّة الرئيسية، كان عبد السلام عارف يجلس هو الآخر منفعلاً بمجريات السباق الذي كان يعكس ـ بشكل من الأشكال ـ بعداً سياسياً في صراع بين دولتين إحداهما ثارت على استبداد البعث، والأخرى خضعت له، بل ركبته لتحقيق أهدافها الطائفية... وعندما انتهى اللقاء بفوز العراق عمت الفرحة جميع الموجودين، وارتفعت الأكف بالتصفيق والحناجر بالهتاف...

ولكن هذه الفرحة سرعان ما انطفأت في اليوم التالي بالإعلان عن استشهاد عبد السلام عارف الذي كانت مرحلة حكمه الممتدة حوالي السنوات الثلاث (١٩٦٣ ـ ١٩٦٦م) من أكثر المراحل التي مرت بالعراق استقراراً

وتعاطفاً بين القائد والجماهير. ولا زلت أذكر كيف كان عبد السلام يكره الإتيكيت، والحماية الأمنية المشددة، التي برع فيها أولئك الذين جاؤوا بعده وبعد أخيه عبد الرحمن عارف، وكيف كنا نراه وهو يتخطى وحيداً في شارع أبي نوّاس، وليس ثمة وراءه، وعلى بعد مسافة متطاولة إلا مرافقه الشخصي... وأذكر ــ كذلك ــ يوم زيارته لنا في دار الطلبة، حيث تحلّق الطلاب حوله يعرضون عليه مطالبهم وهمومهم، وهو يجيبهم بابتسامته المعهودة، وقد التصقوا به دون أية حماية على الإطلاق.

كان يوماً حزيناً ذلك اليوم الذي شيع فيه عبد السلام عارف، الذي ذهب ــ في أغلب الظن ــ غدراً، نتيجة مؤامرة شارك في إحكامها قادة حزب البعث، تمهيداً لاستعادتهم السلطة ممن اعتقدوا بأنه سلبهم إياها، وقد كانت جهودهم المؤقتة في تولية أخيه الضعيف، تستهدف الغرض نفسه، ومن أجل ذلك حاولوا حماية وجوده الهش على رأس السلطة من أية محاولة انقلابية، من أجل الاحتفاظ بالغنيمة لأنفسهم عندما يحين موعد الحصاد، ولذلك شاركوا في إحباط محاولتي القائد الطيار ذي التوجه الناصري عارف عبد الرزاق، التي استهدفت أولاهما الإطاحة بعبد السلام نفسه، وسعت الأخرى للقضاء على حكم أخيه، فيما يكاد يكون معروفاً للقاصي والداني، وما كشفته منشوراتهم ذاتها.

ثم ما لبثت بعد عام واحد أن حلّت أم الكوارث: الهزيمة الساحقة لمصر في الخامس من حزيران عام (١٩٦٧م)... كنت أجلس في مكتبة المتحف في الموصل عندما جاء من يخبرنا بأن الحرب قد اشتعلت بين مصر وسوريا من جهة، وإسرائيل من جهة أخرى... فلجأنا إلى الراديو لمتابعة الأنباء... كان رد فعلي المبكر، فرحة طاغية تملكتني وكل الموجودين معي في المكتبة، على وقوع ما كنا ننتظره منذ زمن بعيد: إعلان الحرب على إسرائيل واجتياز سيناء وصولاً إلى غزة، ثم اكتساح الدولة اللقيطة... وكانت أخبار وبيانات إذاعتي القاهرة وصوت العرب المبكرة في ذلك الصباح توحي بهذا الأمل، حيث راحت طائرات

العدو تتساقط الواحدة تلو الأخرى والجيش المصري يتقدم سريعاً مجتازاً صحراء سيناء في طريقه لاختراق العمق الإسرائيلي... ولكنها لم تكن سوى نشوة عابرة لم تستمر سوى دقائق معدودات، حيث ما لبث أن تبين لنا الهزيمة الساحقة التي منيت بها القوات المصرية، بدءاً من تدمير غطائها الجوي الذي كان جاثماً على الأرض، وقادته يسهرون ويعربدون مع راقصات مصر... ومروراً بالزحف الإسرائيلي السريع الذي دمرّ في طريقه ما اعترضه من جند مصريين يحاولون الهرب من الجحيم، وصولاً إلى حافة السويس حيث تمركز هناك، وحيث لم تعد أكاذيب ومبالغات إذاعتَي القاهرة وصوت العرب تنطلي على أحد، ولم يعد يجدي توسّل المغني عبد الحليم حافظ بالمقاتل المصري أن يأتيه بنصر ولو ضئيل... أي نصر على الإطلاق:

بابا يقولك يا بطل هات لي انتصار!!

انقلب الفرح السريع حزناً دائماً، وراحت الهزائم تتوالى على الجبهات الأخرى، حيث تم اكتساح الضفة الغربية والقدس، وسيطرت القوات الإسرائيلية ـ تحت غطاء مؤامرة سورية طائفية خبيثة ـ على هضبة الجولان، التي كانت تتحكم بالعمق الإسرائيلي، وحيث أعلن راديو دمشق عن سقوطها قبل وقوعه بساعات طوال... لقد مورست بحق مصر واحدة من أقذر الأساليب السياسية في التاريخ المعاصر، عندما أصرّ الاتحاد السوفياتي على مصر ألّا تبدأ الضربة فتكون البادئة بالعدوان، وبذلك فوتت عليها فرصة الضربة الأولى التي تحسم الموقف، وسلمتها ليد إسرائيل... أما دور العراب الأمريكي والصليبية الأوربية فلا يكاد يخفى على أحد.

ما لبثت مصر وسوريا أن وافقتا على عرض مجلس الأمن بوقف القتال، عبر اللحظة النموذجية للانتصار الكامل للخصم، فيما يمكن اعتباره ـ إذا استخدمنا منطق القانون ـ الجريمة الكاملة... وكنا نحن الذين لا خبرة لنا بالحرب والقضايا الاستراتيجية والتعبوية والسوقية... نقول ونتساءل: لماذا يحدث هذا الذي تريده إسرائيل بالضبط؟ وماذا لو لم توافق الدولتان

العربيتان على وقف إطلاق النار؟ أكان بمقدور القوات الإسرائيلية المحدودة العدد، والمنهكة عبر قتال الأيام الستة، أن تنساح في أراضي مصر وسوريا... إلى كل شبر فيها؟ ألا يعرضها هذا للهزيمة الشنعاء بسبب ما يمكن أن تقوم به الشعوب نفسها، وبؤر المقاومة فيها من إلحاق الدمار بالجيوش الإسرائيلية؟ ولكن الجواب سرعان ما يجيئنا واضحاً، بيناً لا ريب فيه: إن حكامنا لا تهمهم الهزيمة بقدر ما يهمهم الاحتفاظ بمناصبهم العليا، ولن يتحقق ذلك إلا بمنح إسرائيل فرصتها الذهبية للقطاف: بوقف إطلاق النار في اللحظة المناسبة تماماً!!

بعد حوالي الشهر من الهزيمة، أتيح لي أن أسافر إلى مصر لإكمال دراستي للدكتوراه.. دخلت القاهرة لكي أراها وقد اعتصرها الهم والحزن، ووضعت أكياس الرمل على مداخلها كافة، وألصقت بواجهاتها الزجاجية أشرطة الورق المصمغ خشية من أي هجوم محتمل من إسرائيل... حيث كانت ما سمي بحرب الاستنزاف قد بدأت، وضرب بعرض الحائط اتفاق وقف إطلاق النار... وكانت إسرائيل هي البادئة دوماً، كما هو شأنها حتى ذلك الوقت.

اخترت فندق (كراند أوتيل) الأنيق للإقامة فيه... بسبب وجوده في قلب العاصمة عند ناصية الالتقاء بين شارعي سليمان و(٢٦) يوليو، حيث الحركة والناس والمقاهي والمطاعم والأسواق التي تحيط به من كل جانب... في مساء اليوم الأول لوصولي اعتصرني الحنين إلى أهلي وبلدي وأصدقائي، وكنت وأنا أتجول في شوارع القاهرة وأحيائها وأنظر إلى نوافذ بيوتها وشققها المضاءة؛ أشعر بالحسد إزاء كل أولئك الذين يأوون إلى كنف أهليهم وأطفالهم وعوائلهم... ولكن هذا الاحساس المرير بالحنين، ما لبث أن أخذ يتلاشى عبر الأيام التالية، حيث انغمرت بالعمل، وشكّلت جملة من العلاقات الودّية مع عدد من الأصدقاء العراقيين والمصريين والفلسطينيين.

كانت خطوتي الأولى يوم وصولي هي أن ألتقي بالزميل الأخ (محمد صالح القزاز: الدكتور فيما بعد)، والذي ذهب وعائلته في حادث سيارة أودت بهم

جميعاً بعد عودته إلى العراق، (رحمهم الله جميعاً) لأنه كان بحق مختار العراقيين والموصليين خاصة، بصدره الرحب، وروحه التعاونية، وسخائه العجيب، واحتضانه لكل من يطرق بابه من الغرباء... فما لبث أن استقبلني ببشاشته المعهودة، ومدّ لي سفرة العشاء، ثم شرح لي الطريق الذي أسلكه في ذهابي إلى بيت أستاذي المشرف (الدكتور حسن حبشي) ﵀، حيث تم اللقاء في أجواء غاية في المودة والأريحية، وعرضت عليه جانباً من الفصول التي أنجزتها في بلدي، وتلقيت منه جملة من التوجيهات، وضربت معه موعداً للقاء قادم. ثم غادرت الدار عائداً إلى الفندق فرحاً سعيداً بما حققته من إنجاز.

لكن ما أغاظني أن ألتقي عنده بطالب ماجستير موغل في العمر يدعى (عبد القادر طليمات)، الذي كان ينجز رسالته في دراسة وتحقيق كتاب (الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية في الموصل) للمؤرخ ابن الأثير، واستفزني للدخول معه في نقاش حول موقف ابن الأثير المتحامل ضد الناصر صلاح الدين، وتأييده لهذا الموقف. فلما بينت له خطأ موقفه هذا، وأفحمته بجملة من الوقائع التاريخية والبراهين، إذا به ينفعل فجأة ويتهمني بالتعالي والغرور، وهما صفتان مما كنت أرفضهما بل أحتقرهما عبر حياتي كافة... فرددت عليه بعنف وأسكته منهياً جدلي معه بأنه رجل موغل في العمر ينظر إلى غيره من الشباب نظرة ملؤها الغيرة والحسد... ثم ما لبثت الأمور بيني وبينه أن عادت بعد أسابيع فحسب إلى الوئام والانسجام...

مضت الأيام بعدها وفق برنامج يكاد يكون ثابتاً، التوجه صباحاً إلى دار الكتب المصرية لمتابعة عملي في أطروحتي، والاطلاع على جملة كبيرة من المخطوطات، والتحدث إلى المحقق الكبير (فؤاد السيد رحمه الله) ثم العودة ظهراً لتناول الغداء، وأخذ قيلولة سريعة، ومغادرة الفندق مساء للقيام بجولات يومية، بمفردي، أو مع هذا الصديق أو ذاك، للاطلاع على كل زاوية من زوايا القاهرة التي تعج بالمتاحف والمتنزهات والآثار...

استيقظت في أحد أيام تشرين الأول، وألقيت كعادتي، وأنا في طريقي إلى

دار الكتب، نظرة على مانشيتات الصحف المصرية، فإذا بها تجمع وبالبنط العريض على هذا الخبر (انتحر المشير). فما كان مني إلا أن اشتري صحيفة منها لمتابعة هذا النبأ المثير، فإذا بها تجمع على أنه كان يشد على بطنه قرصاً من تلك التي إذا ابتلعها الإنسان أودت بحياته... وأن تقرير اللجنة الطبية التي كشفت عن الجثة أكدت على هذا!!

قبل أيام قلائل كانت أجهزة المخابرات المصرية قد اكتشفت محاولة انقلابية بقيادة المشير وكبار زبانية الأمن والمخابرات والمباحث المصرية: شمس بدران، وصلاح نصر، وحمزة البسيوني، والروبي، وعدد من كبار الضباط، فتم القبض عليهم جميعاً وأودعوا المعتقلات نفسها التي أذاقوا فيها خصومهم الإسلاميين الويل والثبور الذي تعجز القواميس عن وصفه... أما المشير فقد فرضت عليه الإقامة الإجبارية في منزله، ووضع تحت رقابة صارمة، الأمر الذي انتهى به إلى هذا المصير المعتم في الدنيا والآخرة، بما كسبت يداه، ولدوره الخطير في إلحاق الدمار بجماعة الإخوان المسلمين وكل القوى والأحزاب الديمقراطية في مصر، ولكونه أحد أعمدة الانفصال، وهزيمة الخامس من حزيران.

أعلن عبد الناصر استقالته، ثم عاد فسحبها، فيما سُمِّي بمسرحية (تقديم الاستقالة وسحب الاستقالة)، وكان رفيقه المشير يأمل الشيء نفسه... أن يعود ثانية لتسنّم منصبه الخطير في قيادة القوات المسلحة، وإدارة الأمن والمخابرات ووزارة الدفاع... ولكن عبد الناصر، كان يخشى دوماً التحرّش به في الماضي تحسباً من ردود أفعال الأجهزة العسكرية والمخابراتية والأمنية التي تأتمر بأمره... أما الآن فإنه وجدها فرصة مناسبة لإخراجه من السلطة، فلما تحرك هذا فيما قيل أنه محاولة انقلابية، ما كان من رفيق نضاله إلا أن يدس إليه من يقتله للتخلص من أذاه، ثم اتهامه بمحاولة الانتحار!!

ولكن العبرة لا تكمن هنا فقط، وإنما في إنشاء محكمة خاصة لمحاكمة كل أولئك المشاركين معه، والذي تولوا كبر قتل وإبادة وتعذيب الإخوان المسلمين، من

أمثال صلاح نصر، وشمس بدران، وحمزة البسيوني، والروبي، وغيرهم، فكنت أشتري الصحف يومياً لمتابعة ما تشهده تلك المحكمة من مرافعات، وللدور الواسع الذي أعطي للإخوان الذين غدر بهم لكي يدلوا بشهاداتهم... وأردد مع نفسي: جلّت قدرتك يا رب، يا من تعرف كيف تمكر بخصوم دعوتك، وتكيد لهم، حتى توردهم موارد الهلاك... فها هو صلاح نصر يعاني من عذاب السنين الطوال، وهو ذلك السمسار القذر الذي كان يوظف العديد من الفنانات والممثلات والراقصات في مهماته الاستخبارية، وكأن رئيسه عبد الناصر لا يعرف عن قوادته شيئاً!!

عدت إلى الموصل في أواخر تشرين الأول لكي ألتحق بعملي معيداً في كلية الآداب... ثم العودة ثانية إلى القاهرة لإكمال عملي في الأطروحة والاستعداد للمناقشة... فما لبثت أن فوجئت بالعميد وهو يدعوني إلى مكتبي ويعلمني باختياري مدرّساً في كلية البنات التي افتتحها رئيس الجامعة الدكتور محمود الجليلي، في محاولة جادة منه لاحترام التقاليد الدينية الأصيلة لمدينة الموصل... حاولت في البدء الاعتذار عن قبول المهمة، إلا أنه أصر على موقفه قائلاً: ليس ثمة غيرك من يتولى أمراً كهذا، فصرت محاضراً في الكلية المذكورة في يومين فحسب، أدرّس في قسم اللغة العربية مادة السيرة النبوية، وأتفرغ في الأيام الأخرى لكلية الآداب، ولإنهاء عملي في الأطروحة. حتى إذا حان موعد العطلة الربيعية شددت الرحال وعدت ثانيةً إلى القاهرة لوضع اللمسات الأخيرة على الأطروحة تحت إشراف أستاذي الدكتور حسن حبشي، والتهيؤ للمناقشة، حيث كنت أتردد صباح كل يوم في ذلك الشتاء الرائع في القاهرة ما بين كليتي آداب جامعة القاهرة وآداب جامعة عين شمس... أما في المساء فكنت أمارس حياتي المعتادة للتخطي، وتناول الطعام، ومشاهدة المسرحيات وزيارة الأصدقاء.

حتى إذا ما أنجزت المطلوب اجتمعت بالمشرف لتحديد موعد المناقشة في أواخر شباط عام (١٩٦٨م)، أو بدايات آذار... إذا بعاصفة الغضب

المصري تنفجر على حين غفلة في الجامعات كافة: عين شمس والقاهرة والإسكندرية... معربةً ــ ربما لأول مرة ــ عن رفضها لمنطق القيادة المصرية في تبرير الهزيمة... ولسياسات الدكتاتورية والتدجين والقهر التي عومل بها الشعب المصري السنين الطوال... بل إن بعض الهتافات كانت موجهة مباشرةً إلى عبد الناصر وضد وزير داخليته الطاغية شعراوي جمعة الذي تلقى من المتظاهرين أقبح الأوصاف.

كنت يومها في كلية آداب عين شمس، وتعمدت أن أشارك الجماهير غضبها واحتجاجها، حيث كانت الأبواب الخارجية لحدائق الجامعة قد أقفلت، وطوقت بالدبابات، وبحزام من رجال الشرطة الذين راحوا يطلقون القنابل المسيلة للدموع لإرغام المتظاهرين على الانفضاض، فكنا نقوم بين دقيقة وأخرى بالتقدم نحو الشرطة ونحن نرفع احتجاجاتنا ثم ما نلبث أن نتراجع قليلاً إلى الوراء. حتى حان المساء وانفض السامر كما يقولون، وغادرت الكلية فإذا بي أجدني قبالة الشوارع المهجورة، وآثار التظاهرات الجماهيرية وحواجز منع المرور منتشرة فيها، وكنت مع إحساسي بالفرح العميق على أن المصريين تمكنوا أخيراً من أن يقولوا: لا لحكامهم...

إلا أن إحساساً آخر كان يوازي هذا الإحساس... إنه الشعور بالحزن والإحباط على ضياع فرصة المناقشة وربما لفترات قد تطول كثيراً... ورغم أن عبد الناصر أراد امتصاص زخم الغضب الشعبي، بأن أعلن عن استعادة محاكمة الضباط الجويين وزيادة عقوباتهم، في محاولة منه للإيهام بأنهم هم وراء سبب الهزيمة، إلا أن ذلك لم يعبر على المصريين الذين كانت ثورتهم تستهدف القيادة العليا نفسها...

ومرت الأيام ثقيلة متباطئة، وأنا ممن يقتلهم الفراغ يشدّد عليهم النكير، ويضعهم في معظم الأحيان في دائرة الملل والاكتئاب، فكنت أنتقل من مقهى إلى مقهى، ومن مكان إلى آخر دونما أي قدر من الإحساس بطعم الأشياء...

ولقد كتبت بذلك إلى أحد أصدقائي الفنانين في الموصل رسالة مطولة آثرت نشرها في مجلة (الأقلام) العراقية بعنوان (رسائل إلى فنان).

وكنت أتردد على أستاذي المشرف لكي أعرف منه ما الذي سيتم اتخاذه بخصوص المناقشة، فإذا به بعد أسبوع أو عشرة أيام، يعلمني والبشر يطفح في وجهه، بأن عمادة الكلية قد وافقت على إجراء مناقشتي صبيحة السادس من آذار في إحدى قاعات الكلية نفسها، والسماح فقط بدعوة عدد من الأصدقاء... أما الطلبة والحضور فلم يكن مسموحاً لهم بدخول الجامعة لأسباب أمنية.

وجاء اليوم الموعود، وجرت المناقشة التي أشرف عليها الأستاذ الدكتور عبد الهادي أبو شعيرة، وشارك فيها الأستاذ الدكتور إبراهيم العدوي، الذي سبق له أن مارس التدريس بكلية التربية في جامعة بغداد عندما كنت طالباً هناك... فضلاً عن الأستاذ الدكتور حسن حبشي (المشرف على الأطروحة)، وسارت الأمور وسط أجواء من المودة والانسجام والنقاش الهادئ... ثم ما لبثت الجلسة أن رفعت لكي تعلن النتيجة بعد دقائق معدودات: الحصول على الدكتوراه بدرجة الشرف، وهي أعلى الدرجات التي تمنحها الجامعات المصرية.

غادرنا القاعة لكي نلتقط عدداً من التصاوير التذكارية، ولكي أضرب موعداً مساء اليوم نفسه للذهاب إلى بيت أستاذي الدكتور حسن حبشي شاكراً ومودّعاً... حيث مدّ لي ولعدد من الأصدقاء مائدة عشاء عامرة... وجلس هو يحدثنا ولا يكاد يتناول شيئاً، بسبب من متاعبه الصحية ونصائح الأطباء له بألا يأكل سوى الخبز المحمص واللبن... والحقّ أنني إذ تألمت كثيراً لذلك كنت أخمن أن حياته، وقد أوغل في العمر لن تستمر بعد ذلك طويلاً... ولكني بعد ذلك بأكثر من ثلاثين سنة أفاجأ بسلام يصلني منه عن طريق الأخ الدكتور أحمد الحسّو... فسألته دهشاً: أو لا يزال الرجل حياً؟ قال: نعم، ولكن وضعه لا ينبئ بخير... ثم ما لبث بعد فترة قصيرة... أن توفي رَحِمَهُ اللَّهُ...

استكملت الأمور الإجرائية بخصوص الموافقات الرسمية على الدكتوراه

خلال يومين فحسب، وفي اليوم الثالث الموافق (٨ آذار عام ١٩٦٨م) قفلت عائداً إلى بلدي لكي أتلقى تهاني الأهل والأقرباء، ولكي ما ألبث أن أجدني فجأة أمام إحساس هائل بالفراغ... ورحت أتساءل مع نفسي وأنا غارق في دوّامات الملل والاكتئاب: ما الذي جرى؟ ففي يوم فرحك الكبير، حيث تُوِّجت جهود أكثر من عشرين سنة من الكدح الدراسي بحصولك على الدكتوراه بأعلى الدرجات ينكسر هذا الفرح ويتحول إلى حزن عميق... وإحساس قاس بالفراغ؟

ولكني سرعان ما عثرت على الجواب: لقد كانت حياتي عبر عشرين عاماً ملأى بالرغبة في التفوق الدراسي، واجتياز مراحله واحدة بعد الأخرى، فلما أنجزت المطلوب ولم يبق ثمة أمامي ما يدفعني إلى هدف جديد أحسست بذلك الفراغ القاسي الذي أفقدني تذوّق طعم الأشياء، واستمر يحاصرني لأسابيع طوال... ويوحي لي بأنني لست في مكاني... لماذا؟ لا أدري... فرحت أخرج مساء كل يوم من البيت للتجوال وحدي في الشوارع المحيطة بالدار بحثاً عن نقطة ما أرتكز عليها في تعاملي مع الظواهر والأشياء... وعبر علاقاتي مع الناس... ولكن دون جدوى... وتذكرت المقولة المعروفة: (ماذا لو ملك الإنسان الدنيا وخسر نفسه؟) فقلت في نفسي: ها أنا ذا أحقق المطلوب، ولكني أفقد السكينة والفرح والاطمئنان.

وسرعان ما تبين لي أن إرادة الله ﷻ، شاءت لي ذلك، لكي تدفعني إلى الردّ المتواصل الذي سيقدّر له أن يملأ حياتي كلها، ويمنحها طعماً... وأن يعيد إليَّ فرحي الضائع، وأن يجعلني مشروعاً مفتوحاً ليس ثمة محطة نهائية يقف عندها إلى آخر مرحلة من حياته: إنها الكتابة والتأليف والإنجاز... ولا زلت أذكر كيف عبّرت عن ذلك في قصة قصيرة كتبتها في تسعينيات القرن الماضي بعنوان (**رحلة الصعود التي لا نهاية لها**)، وهي تتحدث عن موظف طموح بذل جهداً مستميتاً لكي يبلغ درجة المدير العام للدائرة التي يعمل فيها، فلما تحقق له هذا، إذا به يحسّ فجأة بفراغ هائل يحيط به، وبكآبة ثقيلة موحشة تملأ عليه أقطار نفسه... فما كان منه إلا أن أخذ يعمل فكره في عبث الكدح البشري الذي

يستهدف الوصول، حتى على حساب القيم الخلقية والإنسانية التي يؤمن بها، ثم لما يصل يجد نفسه قبالة اللا شيء، بكل قسوته وبشاعته وعبثيته... وحينذاك قرر أن يغيّر مجرى طموحه باتجاه الآفاق المفتوحة التي لا نهاية لها... آفاق الإيمان الذي يفتح الأبواب الموصدة أمام الإنسان إلى الحركة الدائمة، والعطاء الموصول، من أجل رضا الله ﷻ... إنها بحق، وكما أسميت بها القصة (والمجموعة القصصية كلها): **(رحلة الصعود التي لا نهاية لها)**!!

وطالما تساءلت بيني وبين نفسي: ما الذي أنقذني مراراً من الموت المحقق غير إرادة الله ﷻ؟ ما الذي أخرجني سالماً من خمس عمليات جراحية كبرى أوشكت في كل منها على مفارقة الحياة، غير إرادة الله؟ ما الذي مكنني من كتابة وتبييض آلاف الصفحات، رغم ما كنت أعانيه عبر كتابة كل سطر من ضيق قاس في النفس، وثقل في الكتف الأيسر، ومتاعب جمة في القلب، وانسداد في الصمام، غير إرادة الله ﷻ؟

إنها إرادة الله ﷻ هي التي ترسم خرائط حياتنا بتفاصيلها الكاملة... وهي التي تقرر مصائرنا... وهي التي تقودنا عبر الطريق... وترعانا، وتحرسنا من الأذى... والمخاطر... والموت!! لحكمة يريدها الله ﷻ... أفلا نكون أوفياء معه جلّ في علاه... ونمحض حياتنا... نؤمم كل دقيقة للجهد المثابر الموصول من أجل إعلاء كلمته في الأرض؟

وهكذا وبهذه الرؤية الواضحة النقية كالبلّور... جابهت دوّامة الفراغ التي كادت أن تفترس حياتي... أخرجتها من حساباتي... وبدأت رحلة الصعود التي لا نهاية لها...

الفصل الخامس

١٩٦٨ ـ ١٩٧٧م

في السابع عشر من تموز عام (١٩٦٨م) شهد العراق انقلاباً عسكرياً ضد حكم عبد الرحمن عارف، قاده البعثيون بمعاونة عدد من كبار ضباط المخابرات والقصر الجمهوري الذين أغرتهم السلطة، واطمأنوا لوعود البعثيين، فخانوا الأمانة، وانقلبوا على رئيسهم وشاركوا في الانقلاب... بعضهم من ذوي التوجه الوطني، وبعضهم من ذوي التوجه الإسلامي، ومعظمهم من المستقلين.

لم يدم هذا الائتلاف المصطنع سوى أسبوعين فحسب، إذ ما لبث المكر البعثي أن أحاق بكل المتعاونين معه، من خارج دائرته، قتلاً ونفياً وإبعاداً وتشتيتاً في الآفاق... ففي الثلاثين من تموز أعلن عن انقلاب ثان تفرّد فيه قادة البعث، وعلى رأسهم أحمد حسن البكر وصدام حسين بالسلطة.

كنت أتابع أنباء الانقلابين يوماً بيوم وساعة بساعة، في الإذاعات والصحف، وأنا أتذكر إحدى جلساتنا في مقاهي الموصل بعد انقلاب تشرين عام (١٩٦٣م)، الذي أطاح بالانقلاب الأول لحزب البعث بقيادة عبد السلام عارف... كنت وصديق آخر نتحدث عن مجريات الأحداث معلنين عن غبطتنا بزوال حكم البعث الذي أذاق العراق الأمرين على مدى بضعة أشهر من تسلمه السلطة، على يد جلاوزته من قادة الحرس القومي، وكنا نحاول أن نغيظ بكلامنا هذا الشاعر البعثي عبد المحسن العقراوي، الذي ما لبث أن تملكه الانفعال، وضرب المائدة بكلتا قبضتيه وقال مؤكداً: ولكننا سنعود مرةً أخرى... أقسم لكما أننا سنعود!!

لم يكن العقراوي، ذو المزاج الشاعري المتقلب، والذي ذهب هو نفسه

ضحية البعث بعد سنوات قلائل، يعرف شيئاً عن المكر الدولي وألاعيبه ومؤامراته... فإذا كان البعث باعتراف قائده الأعلى (علي صالح السعدي) قد جاء في المرة الأولى (على قطار أمريكي)، فما الذي يمنع من أن يستقل قطاراً آخر أمريكياً، أو إنكليزياً لكي يوصله ثانية إلى السلطة التي يتعشقها، وهو مستعد أن يقدم أي تنازل، معلن أو خفي في سبيل الإمساك بها؟

وبالفعل ما أن مضت أيام قلائل حتى سمعنا باغتيال الدكتور ناصر الحاني أحد وزراء انقلاب (١٧) تموز في بيروت، وقيل يومها، فيما يكاد يشبه الإجماع، أنه كان حلقة الاتصال بين تنظيمات قيادة الانقلاب وبين السفارة الأمريكية في بيروت... قضوا عليه، وفق طرائقهم المعروفة، قبل أن ينكشف الستر.

ثم ما لبثت الأسابيع التالية للانقلاب أن شهدت محاكمات رجالات العهد السابق، واعتقالهم، وتعذيبهم، وتصفيتهم الواحد تلو الآخر... وكان قصر النهاية، وهو في الأصل قصر الرحاب الملكي، الذي حوّله البعثيون إلى سجن رهيب؛ قد تولى أمر الإشراف على ما يشهده من شناعات: مدير الأمن العام، الرجل الدموي ناظم كزار، خريج معهد الهندسة الصناعية، والذي سبق وأن شارك معنا في عام (١٩٦١م) في ملحمة الصراع ضد الشيوعيين، بمعية حشد من طلبة المعهد المذكور، بحكم قرب المعهد من كلية التربية.

كان تلفزيون بغداد يعرض التحقيقات التي كان يجريها مع المتهمين محمد سعيد الصحاف، المدير العام للإذاعة والتلفزيون (وهو أحد خريجي كليتنا، قسم اللغات، وكان معروفاً عنه يومذاك أنه من البعثيين الوجوديين الملاحدة، حتى أنه في إحدى التظاهرات المشتركة ضد عبد الكريم قاسم، راح يصرخ في المتظاهرين طالباً منهم أن يكفوا عن رفع أصواتهم بنداء الله أكبر، لأن نداء كهذا (يزعجهم)!! ثم ما لبث بعد أن تولى أمر الإذاعة والتلفزيون أن انجرف وراء شهواته مغطياً إياها بحرصه المصطنع على سلامة الثورة، واستفزازه المتواصل لأولئك الذين وضعتهم الأقدار بين يديه... فيما بعد تولى وزارة الإعلام، حيث من بين كل رجالات البعث السابق الذين

اعتقلتهم السلطات الأمريكية المحتلة عام (٢٠٠٣م) فما بعد، غادر العراق معززاً مكرماً، في طريقه إلى الإمارات العربية المتحدة بصحبة أحد إعلامييها، ولا يزال هناك.

ووفق التكتيك البعثي المعروف أعلن في شتاء عام (١٩٧٠م) عن مؤامرة مزعومة ألقي القبض فيها على حوالي الخمسين من الضباط والقيادات الإسلامية والمستقلة، وأعلن عن تنفيذ أحكام الإعدام بهم، بما فيهم الشهداء عبد الغني شندالة، والشيخ عبد العزيز البدري الذي سبق وأن تعرّفت عليه والتقيت به أكثر من مرة وتابعت خطبه الرائعة في جامع الصرافية، فضلاً عن العقيد محمد فرج وآخرين...

بعدها بأسابيع قليلة تم تشكيل تنظيم إسلامي بقيادة الشهيد صالح سرية رَحِمَهُ اللَّهُ أعلن لمجابهة النظام، وجاء إلى الموصل واتصل بنا في أحد جرادغها، ولمّح بأهداف التنظيم، الذي ما لبث أن انكشف، حيث تمكن سرية من الهروب إلى مصر لكي يقود هناك محاولته الفاشلة في الكلية العسكرية ضد نظام السادات، والتي انتهت بإعدامه.

ما لبث الأمر أن استقر بشكل محكم لصالح حزب البعث الذي راح يطمح، وقد بدأ انقلابه بثلة معدودة من الضباط وبحزب لم يتجاوز أفراده في العراق كافة التسعمائة عدداً... أن يوسع قواعده في المؤسسات والمدارس والجامعات فضلاً عن الجيش والشرطة والأمن، حيث عهد بتصفيتها للرفيق طه ياسين الجزراوي، الذي لم يكد يبقي على ضابط مستقل واحد في عموم التشكيلات العسكرية في العراق.

الأمر نفسه شهدته الجامعات العراقية، في محاولة مستميتة لتدجين أساتذتها كافة وجعلهم ينتمون لحزب البعث ويسجلون عضويتهم فيه، بالترغيب والترهيب.

وبدأت مرحلة الصراع القاسي الذي لا يرحم، وعلى مدى عشر سنوات (١٩٦٩ ـ ١٩٧٧م) ضد محاولات اتحاد الطلبة، وانتهازيي الأقسام العلمية من الأساتذة أنفسهم، وبدأت مرحلة كتابة التقارير اليومية التي كان مدبجوها

يتهمون فيها خصومهم من الإسلاميين والمستقلين والقوميين بسيل من التهم الملفقة والأكاذيب المبالغ فيها... وللأسف فإن هؤلاء الخصوم لم يحاولوا أن يتجمعوا في تنظيم يلمّ طاقاتهم جميعاً وينسق بينها، والتي راح كل واحد منهم يدافع عن نفسه ويقاوم الإغراء والتهديد بما يقدر عليه... الأمر الذي دفع العديد منهم في نهاية الأمر إلى الاستجابة للضغوط التي لا تطاق، والتوقيع على استمارة الانتماء...

ومنذ اللحظة الأولى اتخذت من جهتي موقفاً لا مهادنة فيه على الإطلاق: ليس فقط في رفض التدجين، وعدم الاشتراك في أية تظاهرة أو استقبال لمسؤول حزبي أو مناسبة سياسية على الإطلاق، وإنما أيضاً بالهجوم المدروس على مرتكزات الفكر القومي العلماني في محاضراتي وكتاباتي داخل العراق وخارجه... فلما أعلن عن قيام الجبهة القومية والوطنية الديمقراطية في العراق، في بداية السبعينيات، وكان من بين المنتمين إليها الحزب الشيوعي العراقي، انتهزت الفرصة بهجوم شبه يومي في محاضراتي على ما يعانيه الفكر الشيوعي من تناقضات ستقوده يوماً إلى السقوط، الأمر الذي جعل العديد من الشيوعيين من طلبتي يتذمرون ويحاولون مناقشتي، ولكني كنت أفحمهم فيضطرون للسكوت على مضض، مما دفعهم إلى رفع شكوى ضدي محتمين بغطاء الجبهة، إلى قيادة تنظيمهم المحلي في الموصل، الذي ما لبث أن أصدر حكمه السرّي بإعدامي حيثما أتيحت له الفرصة... ولقد بلغني هذا الإجراء، فلم يثنني عن الاستمرار في الهجوم على الشيوعية وأفكارها وتوجيه النقد المرير إليها.

ليس هذا فحسب، بل إن القيادات العليا لحزب البعث في بغداد، لا أدري جهلاً أم تقرّباً للفكر الشيوعي، أم تعبيراً عما تكنه أنفسهم وقناعاتهم الخاصة... سلّمت مهمة التخطيط لمناهج العلوم الإنسانية في الجامعات العراقية، للأستاذ محمد توفيق حسين ذي الميول الشيوعية، فأصدر بياناً عاماً أطّر فيه لطرائق التعامل مع هذه العلوم واستئصال الفكر الغيبي من شرايينها... وهو موقف يعكس

بوضوح الرؤية الماركسية التي ترفض الغيب ابتداء وتتناقض حتى مع أطروحات حزب البعث التي طالما أكدت على تشبثها بالإيمان!!

كنت يومها قد اتفقت مع إحدى دور النشر في بغداد على جملة من الدراسات والبحوث الموجزة على شكل كراريس صغيرة سريعة التداول... فما كان مني إلا أن أضيف إليها رداً على أطروحات (محمد توفيق حسين) الإلحادية رسالة تحمل عنوان **(ما الذي يعنيه رفض الغيب؟)** بأسلوب علمي يضع النقاط على الحروف ويكشف عن ازدواجية الفكر البعثي بين الإيمان والإلحاد... وأن الغيب هو مرتكز العقيدة الإسلامية، والذي يرد كتأسيس لها في مطلع سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ١ ــ ٣]...

ولقد لقي هذا الكراس والكراريس الأخرى التي صدرت تحت عنوان (خطوات في عالم الإسلام الرحيب) رواجاً كبيراً بفضل الله ﷻ، الأمر الذي جلب انتباه أحد تدريسيي القسم من اللاعبين على الحبال، والذي بدأ حياته شيوعياً يوم كانت الشيوعية تغزو الموصل، ثم تحوّل إلى الفكر القومي يوم أن أصبحت لعبد الناصر الكلمة الأولى في توجيه الشارع العربي... ثم ها هو ذا يتحول إلى البعث يوم أن تسلّم هذا الحزب مقاليد السلطان... فما كان منه إلا أن يرفع تقريراً إلى الجهات المعنية يبين فيه خطورة هذا الكراس، والكراريس الأخرى، الأمر الذي دفع رجال الأمن إلى لمّها من الأسواق ووقف صدور السلسلة.

لكن ولحسن الحظ، لم يقدّر للجبهة القومية والوطنية الاستمرار، بسبب إدراك الحزب الشيوعي أنها مجرد واجهة لتبرير تفرّد حزب البعث بالسلطة، وكشف الشيوعيين، ووضعهم تحت المجهر... ومع ذلك فإن لعبة الإلحاد وتضييق الخناق على الطرح الإسلامي الأصيل في الجامعات العراقية استمرت... وبقدر تجربتي المرة في قسم التاريخ؛ فإنني عايشت أربعة أو خمسة من تدريسييه كانت أفكارهم التي يطرحونها في محاضراتهم أمام الطلبة، أو عبر السيمينارات التي يعقدها الأساتذة، تنبض بالرؤية الشيوعية، والصراع

الطبقي، وتتنفس الإلحاد والتفسير المادي ورفض الفكر الغيبي، ولكنهم بسبب من انتهازيتهم سرعان ما انتموا لحزب البعث، ومن أجل تأكيد ولائهم له راحوا يكتبون التقارير ويمارسون الاضطهاد الفكري ضد كل من يرفض الانتماء للحزب... أصبحوا كما يقول المثل (ملكيين أكثر من الملك) بل إن أحدهم وهو (الدكتور خضر الدوري) الذي اغتيل في بغداد في ثمانينيات القرن الماضي، في حادث سطو على سيارته الفاخرة، كان يجاهر بأفكاره الماركسية، ويهاجم حركة الفتوحات الإسلامية بأنها استعمار للشعوب الفارسية المضطهدة، ويندفع في الوقت نفسه في سلّم الترقيات الحزبية، حتى أنه استدعي إلى وزارة التعليم العالي في بغداد ليكون بمنصب مدير عام التفتيش في الوزارة...

ولقد استمر صراعي المباشر معه سنوات طويلة فكنت أتصدى له في كل ما يقول... ويوماً، وهو يطرح فكرة أن الرسول ﷺ نفسه كان يمارس الغزو أسوةً بالحملات الاستعمارية، في محاضرة عامة للأستاذ المصري الدكتور عبد المنعم ماجد، فرفعت يدي وقلت له: لقد أسأت بكلامك هذا إلى شخصية الرسول ﷺ، وقلت له ما يستحق من تحقير، الأمر الذي جعله يلملم أوراقه ويترك القاعة.

وطالما طلب مني تحويل مكتبي في الكلية من مكان إلى آخر، وكانوا حريصين في كل مرة ألا يتركوني وحدي في المكتب، وأن يلحقوا معي أحد التدريسيين، ذلك أن كثرة زواري ومُراجعيّ من الأساتذة والأصدقاء والطلبة والطالبات كان يزعجهم، فكان أعضاء الاتحاد الوطني يدسّون أنوفهم بين الحين والحين، ويفتحون الباب عنوة للتأكد من أني لا أمارس شيئاً ضدهم مع المراجعين والزائرين، حيث كنت أعلق فوق رأسي لوحة خطية جميلة تتضمن الآية الكريمة ذات الدلالة: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فيما كان يستفزهم لأنهم أدركوا مراميها. وكانوا وهم يلقون نظراتهم تجاهي تنضح وجوههم بالكراهية والمقت... ولا زلت أذكرهم واحداً... واحداً... بعضهم ممن أدرك فيما بعد خطأ موقفه، فحاول تصحيحه من خلال التقرّب إليّ ومجاملتي ودعوتي للمشاركة في مناقشة رسائلهم وأطروحاتهم فكنت أعتذر

عنها، وبعضهم الآخر ممن أدرك سخف اللعبة التي كانوا يمارسونها بحقي، ففاء إلى حظيرة الإيمان وأصبح ممن لا تفوتهم صلاة!!

ولا زلت أذكر أحد أصدقائي ممن تربطه بالمسؤول الأمني لجامعة الموصل رابطة مصاهرة... جاءني يوماً لكي يقول أن صهره، قد ملّ أكداس التقارير التي رفعت ضدك من قبل (فلان) و(علان) من أعضاء الاتحاد، حتى أن أحدهم جاءه يوماً بما يقرب من حقيبة يد مترعة بالتقارير المسمومة، فكان يمزقها ولا يرفعها إلى الجهات المعنية... ولم يكن الهدف من وراء ذلك كله الحرص على مطالب الحزب، وإنما هي المصالح الذاتية التي تؤمِّل في الصعود الرخيص من خلال التضحية بالآخرين.

ولا زلت أذكر، أنني بعد عودتي من الأردن، بُعيد الاحتلال الأمريكي القذر للعراق، تلقيت نسخاً من التقارير الأمنية التي كتبت عن سلوكي الجامعي المضاد... بالحق والباطل... وهذه بعض نماذجها... وفق تسلسلها الزمني:

مديرية أمن لواء الموصل — سرّي

الجنائية — ٤٦٠٨

الرقم ٨٢١ — ٩٦٢/٦/٤

التاريخ ١٩٦٢/٦/٣

إلى متصرف لواء الوصل

الموضوع/القبض على طلاب وبحوزتهم نشرات الإخوان المسلمين

أمس ظهراً وبين محطة سامراء وتكريت، وأثناء تفتيش ركاب القطار الصاعد رقم (١٠١) القادم من بغداد للموصل من قبل مرتباتنا، عثر على ثلاثة نشرات لإخوان مسلمين ونشرة اتحاد الطلبة في العراق بحوزة كل من الطلاب عماد الدين خليل الحاج عمر طالب في الصف الرابع كلية التربية، ومن أهالي الموصل محلة السجن، وطاهر محمد سعيد البريفكاني طالب في كلية الآداب الصف الثالث ومن مدينة الموصل محلة المنصور، والأخير منذر مدب الزبيدي من أهالي الحلة طالب في ثانوية الصناعة بالمجموعة الثقافية.

ولدى التحقيق معهم اعترفوا بعائديتها لهم ونتيجة تقديم الأوراق التحقيقية إلى حاكم تحقيق الخفر قرر توقيفهم وفق المادة ١٥/١٤ من مرسوم الإدارة العرفية لغاية ١٩٦٢/٦/٦ وإجراء التحري الأصولي بدورهم هذا ولا تزال التحقيقات مستمرة. أرجو التفضل بالمعلومات.

مجيد عزت

و. مدير أمن لواء الموصل

صورة منه إلى:

ـ مدير الأمن العام ـ أرجو التفضل بالمعلومات وطياً صحائف أعمالهم.

ـ مدير شرطة لواء الموصل للعلم رجاءً.

ـ آمر مركز استخبارات الموصل.

ـ المعاون عبدالمجيد عزت ـ لإنجاز التحقيق.

اطلعت

و. المتصرف

٦/٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مديرية أمن لواء الموصل

العدد ١٢١٥٨

التاريخ ١٩٦٦/٦/٢٦

م/تبليغ

إلى معاون شرطة الغزلاني

يرجى الأمر بتبليغ المدعو عماد الدين خليل عمر والساكن محلة السجن شغله مدرس بالحضور لمقر هذه المديرية شعبة السفر وإعلامنا.

عن ــ مدير أمن لواء الموصل

وزارة الداخلية
مديرية الأمن العامة
مديرية القيود السرية
العدد ١٧٧٢٧
التاريخ ١٩٦٦/٨/٢١

إلى ـ مدير أمن الموصل
م/سفر
كتابكم ٤٧٦٠ في ١٩٦٦/٧/٢٤

يرجى إجراء التحقيق السري الدقيق عن ميول ونزعات عماد الدين خليل عمر في الوقت الحاضر وإعلامنا للنظر في الطلب.

زياد جمال
مدير القيود السرية

صورة منه إلى:

ـ مدير المكتب السياسي ش٤	لبيان ما لديكم عنه حيث أنه مدرس معيد
ـ مدير المكتب السياسي ش٦	في دائرة نائب رئيس جامعة الموصل
	ورأيكم حول سفره رجاءً.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاونية أمن الساحل الأيسر

إلى مديرية أمن محافظة نينوى سري ومستعجل

الرقم ٣٨٩٩

التاريخ ٢٣ ك١ ١٩٧١

الموضوع ـ طلب معلومات

كتابكم / ق. س / ١١٠٥٨ في ٢٢ ك١ ١٩٧١

معلوماتنا عن المذكور أنه من الإخوان المسلمين وكان أمين للمكتبة المركزية في الموصل ثم كان في إنكلترا لإكمال دراسته بعدها عاد إلى الموصل، الآن في كلية الآداب ومن أشد الحاقدين على الثورة والحزب للتفضل بالعلم رجاء.

نقيب الأمن

ضابط أمن الساحل الأيسر

السيد المدير

أعلاه معلومات الأيسر حول الدكتور عماد الدين خليل عمر

للتفضل بالاطلاع وإبداء رأيكم

مديرية أمن محافظة نينوى

القلم العام

العدد ٧٥٨١١

التاريخ ١٩٧١/١٢/٢٥

الجمهورية العراقية

رئاسة لجنة التنسيق لمحافظة نينوى

العدد/س/٧/٥١٧٤ سرّي وشخصي

التاريخ ١٩٧٢/١١/٣٠

إلى/مديرية أمن محافظة نينوى

م/معلومات

تفيد المعلومات الواردة إلينا من مصدر موثوق به.

أن جمعية رابطة العلماء فرع الموصل هي جمعية تضم حركات سياسية منها الإخوان المسلمين وحركة التحرير، وهي تتحرك بشكل واضح، وذلك من خلال توجيه الدعوات وإلقاء المحاضرات، وأن العناصر التي تحاضرهم هم الدكتور عماد الدين خليل والدكتور حازم عبد الله وهم من الإخوان المسلمين. يرجى متابعة تحرك الرابطة المذكورة أعلاه وإعلامنا.

فليح حسن الجاسم

رئيس لجنة التنسيق لمحافظة نينوى

مديرية أمن محافظة نينوى

القلم العام

العدد ١٠٤٢٧٥

التاريخ ١٩٧٤/١١/٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

معاونية أمن الساحل الأيسر

العدد /ق س /٣٩٤٨ سري وشخصي

التاريخ ١٩٧٤/١٢/٢١

إلى مديرية أمن محافظة نينوى م/معلومات

كتابكم ق. س ٢١٢٨٥ في ١٩٧٤/١٢/١٥

وكتابكم ق. س / ٢٠٤٧٧ في ١٩٧٤/١٢/١

لدى جمع المعلومات عن رابطة العلماء فرع الموصل، تبين لنا أنها جمعية تضم الحركات الدينية السياسية، ومنها حركة الإخوان المسلمين، وترتبط مع هذه الجمعية جمعية شبان المسلمين، علماً أن مركزهم يقع في بناية في شارع الصديق قرب الفرع المؤدي إلى منطقة وادي حجر، وأن مسؤول الرابطة سابقاً هو المدعو عبد الرزاق الصفار، والذي يعمل بصفة مدير رعاية الأيتام قرب المستشفى الجمهوري. وتتحرك هذه الرابطة عن طريق فتح دورات القرآن الكريم في العطل الصيفية... أو عن طريق مدرسي اللغة العربية والدين الإسلامي. ومن أبرز العناصر النشطة هم الدكتور حازم عبد الله خضر الأستاذ في قسم اللغة العربية، وهو من أصل عربي يسكن في حي الأندلس حالياً علماً بأنه من أنشط العناصر في الجامعة. وكذلك الدكتور عماد الدين خليل الذي يعمل بصفة أستاذ مساعد في قسم التاريخ، وهو من أصل عربي يسكن محلة الغزلاني شارع رفعت الحاج سري. وأن المذكورين أعلاه يقومان بنشر أفكارهم على الطلبة بواسطة سلطتهم التدريسية، وقد تم وضعهم تحت المراقبة السرية للتفضل بالعلم رجاء.

م. أول الأمن

ضابط أمن الساحل الأيسر

مقدم الأمن

مدير أمن محافظة نينوى

مديرية أمن محافظة نينوى

القلم العام

العدد ١١٠٧٨٦

التاريخ ١٩٧٤/١٢/٢١

نسخة منه إلى:

ـ مديرية أمن المحافظات الشمالية/وطياً صورة كتاب رئاسة لجنة التنسيق للتفضل بالعلم رجاء.

ـ ضباط أمن الداخل/لاحقاً لكتابنا ق.س / ٢٠٤٧٧ في ١٩٧٤/١٢/١ ونرجو الاستمرار بمراقبة المذكورين وإعلامنا بكل ما يستجد لديكم من معلومات حول الموضوع.

بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهورية العراقية

وزارة الداخلية   سري للغاية

مديرية الأمن العامة

الشؤون السياسية

العدد / ش٥ / م٥/ ٣٥٣٤٦

التاريخ ١٩٧٧/٨/٢٧

إلى: مديرية أمن محافظة نينوى

الموضوع/طلب معلومات

وردت بالبريد العادي جريدة النور الصادرة في ١٩٧٦/٦/٣ بالمغرب عن جمعية البعث الإسلامي ومرسلة إلى الدكتور عماد الدين خليل الأستاذ المحاضر في جامعة الموصل ـ كلية الآداب، وقد لوحظ أن تلك الجريدة ذات اتجاه ديني متطرف معادي للاشتراكية. نرجو التحقيق السرّي لمعرفة ماهية علاقة المذكور بالموضوع أعلاه والتحقيق السري عن سيرته وميوله وعلاقاته وبيان ما مسجل لديكم ضده وإعلامنا رجاء.

عن/مدير الأمن العام

نسخة منه إلى:

ـ مديرية القيود السرية، نرجو بيان ما مسجل لديكم ضد المذكور.

ـ مديرية الشعبة الرابعة، وأعلامنا

مديرية الأمن العامة

القلم العام

العدد ٧٦٦٨٤

التاريخ ١٩٧٧/٨/٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة الداخلية

مديرية الأمن العامة

الشؤون السياسية

العدد/ ش٥ / م٢. ق٢ / سرّي ومستعجل

التاريخ ١٦/١٠/١٩٧٧

إلى مديرية أمن محافظة نينوى

الموضوع: تبليغ

كتابكم ١٤٤٦٧ في ١٢/أيلول/١٩٧٧

يرجى تبليغ موضوع البحث بالحضور إلى هذه الدائرة أثناء الدوام الرسمي بالسرعة الممكنة وإعلامنا.

عن/مدير الأمن العام

نسخة منه إلى:

ـ مديرية أمن الدائرة ـ الاستعلامات / للعلم رجاءً.

مديرية أمن محافظة نينوى

القلم العام

العدد ٩١١٣٢

التاريخ ١٨/١٠/١٩٧٧

من أمن نينوى ــ ١٢ التاريخ ١٩٧٨/٩/١٠

إلى / أمن الساحل الأيسر

رقم المنشئ / ٢٤٢٥٨ / لإجراء التحقيق السرّي الدقيق عن المدعو عماد الدين خليل عمر/ باحث علمي في كلية الآداب / جامعة الموصل / المؤسسة العامة للآثار وفق الفقرات المطلوبة والمعمول بها في التحقيق على أن يردنا جوابكم خلال (٤٨ ساعة) حتماً، أنبؤونا

ضابط الخفر

مديرية أمن محافظة نينوى ع ن/مدير أمن محافظة نينوى

المدقق المسؤول التاريخ ١٩٧٨/٩/١١

بسم الله الرحمن الرحيم

مديرية أمن محافظة نينوى

العدد س١٢/٢٤٦٣١

التاريخ ١٩٨٣/٩/١٤

إلى مديرية أمن الحدباء م/طلب معلومات

يرجى تزويدنا بالمعلومات المتوفرة لديكم عن الأساتذة العاملين في كلية الآداب جامعة الموصل والمدرجة أسمائهم أدناه والذين يسكنون المتحف الحضاري الواقع قرب تعبئة ابن الأثير وإعلامنا خلال ٤٨ ساعة لطفاً.

عن: مدير أمن محافظة نينوى

الأسماء:

١ ـ عماد الدين خليل / يعمل موظف في المتحف الحضاري

٢ ـ دريد عبد القادر نوري